إبراهيم الثاني

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : إبراهيم الثاني
تأليف : إبراهيم عبدالقادر المازني
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٤٠٤٦ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 40 - 3

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

إبراهيم الثاني

إبراهيم عبدالقادر المازني

إهداء

إلى كل «تحية»

يشقى صبرها ببعلها . . . أحياناً

إبراهيم عبدالقادر المازني

إيضاح

إبراهيم الثاني، هو «إبراهيم الكاتب» أو كأنَهُ على أصح القولين، ثم تغير جدًا. فلو أمكن أن يلتقي الإبراهيميان، لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف..

وقديمًا قلت في هذا المعنى، أيام كنت **أقول الشعر**:

إني أراني قد حُلت، وانتسخت مع الصبي، سُورة من السورِ

وصرت غيري، فليس يعرفني -إذا رآني- صباي ذو الطرر

ولو بدا لي، لبت أنكره كأنني لم أكنه، في عمري

كأننا اثنان ليس يجمعنا في العيش، إلا تشبثُ الذكر

مات الفتى المازني، ثم أتى من مازن غيرهُ على الأثر

إبراهيم عبدالقادر المازني

الفصل الأول

(١)

أصبح إبراهيم، ذات يوم، مكتئبًا، متبرمًا، يشكو إلى كل من يلقاه من الإخوان أنه لا قدرة له على فهم «هذه المرأة».

ولم يكن يعني امرأة خاصة على الرغم من اسم الإشارة. وإنما كان -وهو يتكلم يبسط كفه، ويمد ذراعه، ويطوح بها في الهواء -كأنما يومئ إلى «الجنس» كله ويدل عليه.

وكان في العقد الخامس من عمره، ولكنه كان ذا وسواس. وكان أخوف ما يخاف، أن يكون قد شيخ، أو أشفى على الشيخوخة. ولم يكن لهذا الوهم ما يسوغه سوى إرباء إحساسه بالحياة على القدر الذي تتسنى به الراحة فيها. وكانت امرأته ذكية رحيبةَ أفقِ النفس، بعيدة مطارح العين. وكانت تتوخى أن تجدد نفسها له وتحرص على أن تحيطه بجو من «الشباب»، ولا تفتأ تدعو من ذوات القربى، أو من بنات المعارف، الفتيات الناهدات، والآتي ما زلن في عنفوان الشباب. وكانت ترجو بهذا أن يجد بعلها ما ينعشه وينشطه، ويميط عنه أذى الإحساس بالشيخوخة المخوفة أو المتوهمة. ولم تكن تخشى عليه الفتنة. فقد كانت تعرفه رزينًا حكيمًا، وحَييًا محتشمًا. غير أن هذا الذي تحرته معه، كان يعمق

شعوره بأنه ارتفع عن حد الشباب، ودخل في الكهولة، أو هو على عتبتها الباردة. وصار يحس أن به حاجة إلى ما يطمئنه على شبابه الذي ينضب معينه بسرعة. وكان يعلم أن امرأته تحبه -أو لا تزال تحبه- غير أنه كان يخشى أن يكون حبها له عادة، أو بفضل الذاكرة وتشبثها بما نعمت به منه في شبابها. فاشتاق أن تحبه غيرها واشتهى أن يسمع كلمات الحب والإعجاب من فم آخر. ولم يكن يعدم ثناء سارًا، بل ودًا صريحًا، من الفتيات اللواتي يحطن به. ولكنه كان يقول لنفسه إن هؤلاء غريرات لا خبرة لهن بالحياة ولا تجربة لهن فيها، فلا اعتداد برأيهن فيه. وكان يسترِيب بالمجربات الحاذقات، ولا يطمئن إلى صدقهن، وخلوص سريرتهن. فصار الأمر مشكلاً -لا حب امرأته يقنعه، ولا مودة الغريرات بها اجتزاء، ولا ثقة له بغيرهن.

وعرف فتاة -في بيئته، وبفضل امرأته- اختلط أمرها عليه فما كانت، فيما يرى، من الغريرات، ولا كانت تبدو ذات تجربة ما. وكانت متزنة ذات عين فاحصة ولكنها غير صارمة. وكانت أحلى ما تكون حين تبتسم وتتقارب جفونها حتى لتكاد تنطبق. وكانت على سكونها وهدوء مظهرها في كل حال، لا يشك الناظر إليها في أنها زاخرة بالحياة الفوارة -بهذا كانت تنطق كل حركة وإيماءة، ونظرة، ولفتة. وكان اتزانها فيما يبدو له، كالسد الذي يحبس الماء وراءه، ويمنعه أن يتدفق. ولم تكن مع هذا يبدو عليها الكبت، ولا كان سكون طائرها تكلفًا، بل كان خفرًا طبيعيًا واحتشامًا مكتسبًا بالعادة على الأرجح.

وما أسرع ما توادا، بل ائتلفا -لا يدري كيف؟- وصغا إليها. وصغت إليه. وأنس بها، وأنست به. التقيا مرة في غير داره، اتفاقا، فوقفا هنيهة يتبادلان التحية والكلام الذي لا محصول وراءه. وكان يهم أن يدعوها إلى مرافقته فلا يسعفه لسانه. فلما وضعت يدها في يده وهي تودعه وتفتر له عن ابتسامة رقيقة، وأيقن أنها ذاهبة، وأن الفرصة قد لا تسنح مرة أخرى، انطلق اللسان المحتبس، وزايله حذاره المألوف فسألها هل تسمح بمقابلته في يوم آخر؟ وكان يتوقع الاعتذار. وإذا بها تتقبل دعوته باغتباط وبساطة عجيبة .

وصارا يلتقيان. واتفقا على أيام معينة يخلوان فيها بنفسيهما بنجوة من الرقباء. وأعدته بسكونها. فهدأت ثورة القلق وذهبت عنه الوحشة التي كان يكابدها إذ يكون مع الناس. ونفثت فيه من حرارة شبابها فنسى أوهامه، وعادت إليه الثقة والاطمئنان -إلى حد ما- وصدق ظنه أن سكينتها سد وراءه فيض زاخر من الحيوية محتبس. حتى لصار يخشى جدًا أن تنفتح «البوابات» كلها دفعة واحدة، فيغرقها -ويغرقه معها- التيار الجارف. وراح يقنع بعلمه باضطراب الماء واصطفافه وراء الأبواب المؤصدة. وسعد بها، وسعدت به. وصارت له، وصار لها، مألفة. وكانت دائمة البشر والبشاشة، سلسة كالجدول الرقراق، فلا سورات غضب، ولا دلال تتكلفه، ولا هستيريا. وكان هو أيضًا معها على هذا النحو الموافق من الرقة، ولين الجانب لأنه أمن منها البطر وسوء السلوك .

غير أنه أقلقه عليها -ومنها- ما علمه من صدها الخُطاب وزهدها في الزواج. وكان يقول لها، وهو يحاورها، إن هذه حياة غير طبيعية. فتقول إنها قانعة راضية وأنها لا تطمع في غير ذلك، ولا تتطلع إلى ما يجاوزه. وأنها سعيدة هكذا فلماذا تغير الحال؟.

وكان هذا يسره، ويسوؤه. فأما وجه السرور فذاك أنه وجد فتاة لا ينقصها المعجبون والعشاق ترضي غروره بهذه القناعة به وتقوي شعوره بأنه ما زال كفؤا للحياة وأن ما كان يخشاه لم يكن إلا وهمًا ووسواسًا أورثه إياهما تلف الأعصاب. وأما ما ساءه -كما قال لها مرارًا- فذاك أن عمر هذه الصلة لا يمكن أن يكون إلا محدودًا. فإنه أسن منها بأكثر من خمسة عشر عامًا. فهي تستقبل الدنيا، وهو يستدبرها شيئًا فشيئًا.

فكان ردها الذي لا يختلف أنه لا يزال بينهما وبين هذه الخاتمة التي يراها محتومة أمدٌ طويل، وما زال أوانها بعيدًا. فلماذا تحمل همها سلفًا؟

فيأبى أن يقتنع ويقول «وهل تظنين أن الرغبة فيكِ ستظل كما هي الآن بعد سنوات أخرى؟»

فتقول: «ولم لا؟ إن لكل سن مزيتها. ولكل امرأة من يطلبها في سنها. دعنا من هذا. وخلنا في الحاضر. فإن الغد غيب ..»

وكان لتلف أعصابه يتطير أحيانًا من هذا الكلام. ويذكر أن فتاة أخرى كانت لا تنفك تبدئ وتعيد في أنها لن تتزوج. وقد صدقت وما تزوجت لأنها ماتت. فكان يحدث نفسه أن لعل هذا يحدث له أو لصاحبته فيموت أو تموت. وكانت تضحك

مـن كلامه هـذا وتصرفه عـن هذا اللـون الثقيـل من التفكـير وتقول لـه: «ومـاذا إذا مـت أنـا؟ أليـس خـيرًا أن أموت سـعيدة في شـبابي؟ أم تـراك تريـد أن تـراني شـمطاء تشـيح عنها الوجـوه وتتحـول عنها العيـون نافـرة، وتجوفهـا القلـوب؟ لا يا سـيدي..»

فيقول: «ولكن أنا؟ أنا؟ إني أخب إلى الشيخوخة..»

فتقـول: «يمكنـك أن تثق أني سـأظل صديقة وفيـة لا ألومك على شـيخوخة لم تجنهـا عـلى نفسـك، ولم تـدركك بفعلـك، ولم تتعمد أن تبلغهـا لتكايدني»

ولم يجـد جـدوى في مثـل هـذا الحـوار الـذي كان ينتهـي في كل مـرة إلى غـير نتيجـة يحسـن السـكوت عليهـا، أو يمكن الاقتنـاع بها. وراح يطفـو معهـا عـلى متـن التيـار. وكان تيـارًا رقيقًـا لا يطغـى بـه ولا يعنـف. وكانـت هـي قريـرة العين، صريحـة البشر في غـير تعمل. وظـلا سـنتين عـلى هـذا الحـال -لم يقـع بينهما خـلاف مـرة. ولم تنظر إليـه قط بغـير الابتسـام والبشاشـة، وخلت حياتهـما معًا مـن العتاب والغـيرة. وكان خـير ما يـسره منها أنها لا تعرف قولة «لا» فما سـمعها منهـا ولا مـرة واحـدة في عامـين طويلـين. وكانـت تـكل إليـه أمرها واثقـة مطمئنـة. فـكان لهـذا حفيًـا بهـا، متحـرزًا مـن أجلهـا سـاهرًا عليهـا، لا هـم لـه إلا أن يذيقهـا أقصى مـا يدخل في الطـوق البشري المحـدود مـن العـادة الميسـورة، وكانـت كأنهـا عـلى يقـين مـن هـذا.

إلى أن كان يـوم وقعـت فيـه بينهـما جفـوة لسـبب سـخيف. وكانا قـد اسـتأجرا سـيارة «تاكـسي» ومضيـا في الطريـق الزراعـي الـذي ينتهـي إلى الإسـماعيلية، لينعـما بنضـارة الخـضرة عـلى جانبيـه.

فلما صارا على مسافة فراسخ من القاهرة، انثقبت إحدى العجلات. فوقف السائق ليضع مكانها العجلة الاحتياطية فإذا هي فارغة من الهواء. ولم يكن معه منفاخ. فحمل المسكين العجلتين وذهب بهما ليصلحهما. وبقيا على الطريق ينتظران ويتحدثان، ويتضاحكان. ولكن الانتظار طال فثقل عليها واربد وجهها. وحاول أن يسري عنها ويعيد إلى محياها البشر المألوف الذي لم يعده سواه فأخفق.

وبعد ساعات عاد السائق المسكين يحمل عجلة ويدحرج أخرى. ورجع بهما إلى القاهرة. فلما بلغاها أبت أن يصحبها وأصرت على ركوب الترام وحدها، وكانت مقطبة. وكثيرًا ما عاد بها الترام وحدها فليس في هذا جديد. ولكن الجديد هو التعبيس الذي يراه أول مرة في عامين. ولم ير أن له ذنبًا، أو أنه يستحق هذا التقطيب، وثارت نفسه على الظلم. وكره أن يفضي بهما الأمر إلى الشجار والنقار السخيفين. وعجز عن فهم البواعث التي جاءت بهذه السحب وعكرت صفاء وجهها ونفسها، فانصرف ناقمًا، ساخطًا، أثقل ما يعانيه أنه غير فاهم شيئًا.

(٢)

وظل بضعة أيام يحدث نفسه كالموسوس بتعبيس صاحبته «ميمي». وكان امرًا في أصل طباعه الجد الصارم، وإن كان قد عود نفسه، ابتغاء الراحة، أن يأخذ الأمور من مآخذها السهلة، القريبة، وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها المشرقة الوضاءة، من غير أن تغيب عنه نواحيها الحالكة الكالحة. وكان مما راض به نفسه على ذلك قوله وهو يناجيها حين يخلو بها: «إن الدنيا ليست بالجنة، ولم تخلق على هوانا، ولا كان لنا رأي في خلقنا نحن. وإنما جئنا لأن نواميس الحياة اقتضت أن نجيء. فغير عجيب أن يكون ثم ما يسخطنا ولا يرضينا. ولو ذهبنا نتسخط كل ما لا يرضينا لما عادت الحياة محتملة. فالصبر والحلم وتناول الأمور برفق وتسهل، أوجب ما يجب، وأدل شيء على حسن الفهم وصحة الإدراك. وليس هذا من قبيل قولهم ليس في الإمكان أبدع مما كان. فإن كل ما في الدنيا قابل لتحسن وإصلاح وتهذيب، وإن لم يكن في ذاته غاية في السوء والفساد».

واكتسب بالأناة، على الأيام، والإنصاف حتى من نفسه. وصارت له قدرة نادرة على وضع نفسه في موضع غيره، وتصور

ما يصدرون عنه من بواعث، وكيف يجيبون ما يهيب بهم من هواتف. وما أكثر ما حزن وتألم. ولكنه كان يستطيع، وهو يعاني ما يعاني، أن يمهد العذر للذي أورثه الألم أو الحزن.

وقال لنفسه: «إن ميمي تظلمني. فما لي ذنب فيما كان. وتظلمني ظلمًا ثانيًا حين يثقل على كاهل صبرها؛ أنها حرمت ما كانت تتطلع إليه، فقد كان الحرمان نصيبي أنا أيضًا. ثم إنها تنسى ما أتجشم في سبيلها لأنيلها أكبر حظ من السعادة. وإني لأعرض عن فتيات كثيرات في وسعي أن أصل سببي بأسبابهن بغير عنا. وإني لأنفق فوق ما يشير به حسن التدبير، فما أنا بذي سعة عظيمة في الرزق. وأكون على موعد معها فلا أبالي ما يفوتني في سبيل لقائها. وأكون مريضًا، أو متعبًا، فأتحمل على نفسي فألقاها ولا أكون معها إلا هاشًا باشًا -ضاحكًا مازحًا- لأسرها. ولقد حَرمتُ زوجتي بعض حقها، حين اختصصت ميمي بهذه العناية. فما من شك في أني أهمل أمراتي بعض الاهمال، وما جنت شيئًا تستحق به ذلك، ولا ذنب لها فيما اعتراني من ملل لطول العشرة وفرط الألفة. وإنها أيضًا لجديرة أن تمل وتسأم، ولعلها تفعل، غير أنها تتجلد وتتشدد. ولا تبدي لي إلا الود والعطف، وإلا الفرح والإعجاب والزهو بي .. بي أنا المتلهي عنها بميمي .. أفلا تكون هذه الزوجة معذورة إذا اقتاست بي واحتذت مثلي، وذهبت تنشد التسلي والتلهي برجل آخر أصبى مني؟ رجل تكون في عينه جديدة كميمي في عيني؟ -كل هذا تنساه أو تغض عنه ولا تحفله ميمي، ويسوئها -فتتجهم- أن عجلة انثقبت فقعدنا في الطريق ساعة ننتظر إصلاحها وفاتنا ما يسهل اجتناؤه

في يـوم آخـر. وكان جمال الطريـق مبتغانـا، فلتملينا بحسـنه قاعدين، لا رائحـين غاديـن. وتأخـرت عـن موعـد عودهـا إلى بيتهـا قليلاً».

وأحـس أن ثـورة نفسـه تتفاقـم، لا عـلى ميمـي، بـل عـلى نفسـه وعـلى الدنيـا كلهـا، ومـا أصـاره إلى هـذا الحـال، وعـلى كفرانـه حق زوجتـه. فقـد كان في قـرارة نفسـه يحبهـا ويجلهـا، ولا يسـتطيع أن يتصـور دنيـاه خاليـة منهـا. ولكـن إلفـه لهـا فـترة فذهـب يلتمس ما بـه يتجـدد، وينشـط، وينبعـث.

وأراد أن يكبـح هـذه الثـورة فقـال لنفسـه: «وميمي؟ ألا تتجشـم في سـبيلي مثـل ما أتجشـم؟ مـا حاجتهـا إلي؟ إن في وسـعها أن تتزوج وتهنـأ، ولكنهـا لا تفعـل. وليسـت فقـيرة إلى مـالي. فـمالي مـال يطمع فيـه طامـع. ومـا عرفت فيهـا الطمـع. والقليـل الـذي أهديـه إليها، تُهـدي إلي خـيرًا منـه وأنفـس. وهي تحـرص عـلى لقائـي في مواعيده ولـو انطبقـت السـماء عـلى الأرض. وأمهـا لا ينقـضي عجبهـا لهـذا الخـروج في أيـام لا تختلف وسـاعة لا تتقـدم أو تتأخر دقيقـة واحدة. ولا تنفـك تلـح عليهـا بالسـؤال، وتلـج في استكشـاف السـر. ولم تسـتطع في عامـين طويلين أن تهتـدي إلى الحقيقة. ولو شـاءت ميمي، أو طاشـت، لورطتنـي، عمـدًا أو عفـوًا. ولكنهـا لا تتطلـع إلى شيء ولا تبغـى إلا أن أكـون معهـا .. هكـذا ... ليـس إلا ... ومـا عرفتهـا ندمـت أو قلقـت، أو عنيـت بأن تمـد عينهـا إلى الغد المحجـوب، وما عسـى أن يكـون حالهـا فيـه. وإني لأحـاول أن أحملهـا على تدبـر هذا الغـد، فتأبـى إلا أن تصـدف عنه وتعرض، لا يأسًـا منـه، ولا مجازفة، بـل لأنهـا راضيـة قانعـة. ومـا أكثـر مـا قلـت لهـا إنهـا تضيع شـبابها معـي، وإنهـا لتعـيرني مـن حرارتـه. ولكنهـا لا تسـتطيع أن تـرد علي

شبابي بما تنفث في من حرارة شبابها، وأنه أولى بها أن تكون ذات بعل شاب مثلها، فتصغي بعناية ولكن بابتسام ساخر، ثم تقول: «شاب؟ شاب ايه؟ ماذا أصنع بالشباب؟ بالطيش والغرور؟ إذا حاولت أن أضع له اللجام، نبا في العنان، وإذا ألقيته له جمح. وأنا الشقية في الحالين. ثم الأولاد ... والبيت ... والمطبخ ... لا يا سيدي ... بدري. بدري .. كل شيء في أونه. ثم ما عيبك أنت؟ رجل رزين حكيم، مجرب. ولم يذهب شبابك كما لا تفتأ تزعم .. أو تحسب أن الشباب سواد الشعر ونضارة الجلد؟ إنك بنفسك أصبى من ألف شاب. وأنا أجد في صحبتك ما لا يعرف الشبان كيف يتيحونه لي .. إن لي كل يوم جديد مُتعة أفيدها منك. وقد رفعتني إليك، وأخلق بالشاب أن يهبط بي معه. ومنحتني ما كان خليقًا أن يفوتني لولاك .. مزيتك هي مزية الكهولة الناضجة -لا تقاطع- لا تقل إنك لست الوحيد في الدنيا أو الذي لا ند له. فإني أعرف ذلك. ولكني لا أعرف، ولم أعرف سواك. ثم إني معك في أمان من المخاوف -لا سوء عاقبة. ولا طرد من الجنة. أتذكر يوم قلت لي ليت أبانا آدم أكل من شجرة الحياة، ولم يأكل من شجرة المعرفة؟ لقد دار هذا في نفسي مذ سمعته منك. فهل تعلم أنك أطعمتني من شجرة الحياة، ومن شجرة المعرفة جميعًا؟ ثق أني معك أحيا، وأتعلم، وبلا ثمن أيضًا -أو بثمن هين. وإني لأكون شقية لو استقللت ذلك ... ثم مالك أنت ما دمت أنا راضية قريرة العين؟ ...»

فكان يدهشه منها حكمة الطبع، وهي في مثل سنها الغضة عجيبة نادرة.

وانتهى من هذا الحوار مع نفسه إلى أن الأولى أن ينتظر حتى يلقاها مرة أخرى فيرى ما يكون منها. فإذا عاد إليها بشرها تناسى الأمر كله. وإلا .. وإلا .. وإلا ماذا؟ لا يدري .. ولكنه لا يطيق هذا التعبيس، وما من موجب لاحتمال ثقله ثم إنه لا يفهم لماذا يتكلف الناس ما يفسدون به حياتهم؟ والتكلف جهد على الحالين فلماذا يتكلف الناس ما ينغص العيش ولا يتكلفون ما به يطيب ؟

ولقيها في الموعد المضروب. وكان ينتظرها على رصيف مسجد. ورآها قبل أن تراه. وكان يسره منها أنها لا تتثنى في مشيتها، ولا تتقصع، وأنها تسير غير متلفتة أو عابثة بأحد. وسره منها في يومه هذا أنها جاءت في أحب ثيابها إليه وأشرحها لصدره. وكانت لا زاهية ولا قاتمة، ولا قطعة واحدة بل اثنتين، واحدة كالصدرية، بيضاء مخططة خطوطًا زرقاء، دقيقة النسج، رحيبة، ولكنها لا فضفاضة ولا محبوكة، ولا تحجب ما يحسن أن يظهر من فتنة الصدر الممتلئ، ولا تبدي ما يجب -رفقًا بطينة الإنسان- أن يُستر. والكمان إلى القريب من المرفق، ففيهما من الاحتشام ما لا يمنع أن تحس العين لين الساعد ونعومته ورقته.

وقالت له: «كدت أتأخر .. جاءت بنت خالتي لزيارتنا ودعتني للخروج معها لقضاء حاجات لها، وأضحك .. لما دقت الجرس لم أكن أعرف من الزائر أو الزائرة فخفت أن أتأخر. وكان باقيًا على موعد الخروج ربع ساعة فأسرعت وتناولت هذه الثياب فطرحتها على كرسي بحيث يراها من يدخل فيعرف أني كنت أتهيا للبسها أي للخروج فلا يطيل .. وقد سألتني حين

رأت الثوب: «أكنت خرجة؟» قلت: «نعم» وشرعت في ارتدائها أمامها فقالت: طيب نخرج معًا قلت: لا يا ستي .. طريقي غير طريقك .. أنا مستعجلة .. فإذا كنت غير مستعجلة. فأنت في بيتك. وقد كان. خرجت وتركتها. فما رأيك؟ أو لعل الأولى أن أسأل عن رأي أمي حين أعود فأسمعه منها.»

وكانت تضحك وهي تروي له هذا الخبر. وكانت تقص عليه كل شيء فهي لا تقصد إلى المن. فنسى ما كان أمضه في لقائهما السابق وقال لها: «أظنك أخطأت حين تركتها .. كان ينبغي أن تبقى معها قليلاً .. فما في وقوفي لحظة أنتظر من بأس، ما دام لك هذا العذر».

قالت: «لا يا سيدي ... لا بنت خالتي ولا بنت عمتي ... ومالك أنت على كل حال؟».

وكانت هذه العبارة أقوى حججها. فلهج بها في سره، وصار يقول لنفسه: «ومالي أنا. على كل حال؟» غير أنه لم يقتنع، فقد كان يؤثر -ويعنيه- أن لا تتعرض لخلاف مع أهلها بسببه.

وحدث نفسه وهو يرى طلاقة وجهها وإقبالها عليه، وسرورها به، أنه لا يزال عاجزًا عن فهم «هذه المرأة» .. كانت غاضبة ثم رضيت. ففيم كان الغضب؟ وفيم كان الرضى؟

(٣)

وكانت ميمي فتاة يسعها أن تكون مستقلة، وسيدة نفسها، وأمرها جميعه بيدها، ولكنها نشأت على ما «كان» عودها أبوها، من أن تكون «بنت ناس» ومؤدبة مهذبة. والأدب والتهذيب في عرف «أبي حمزة» كما يكنى نفسه، أن تلزم بيتها لا تريمه -فإذا احتاجت أن تخرج لحاجة لها فليكن ذلك بصحبة أمها أو إحدى قريباتها العجائز. أو «ولد» من ذوي قرابتها. والشرط بعد ذلك أن يكون الخروج نهارًا والإياب قبل المغرب وعليها أن لا تبدي زينتها في الطريق أو من النافذة وأن تكون في حال متجملة محتشمة.

وكان أبو حمزة يريد البنين. فلما لم تجيئه امرأته -في عشر سنوات- بغير هذه الفتاة، ضجر ونفد صبره، فطلقها وترك القاهرة وعاد إلى قريته -على مقربة من دمنهور- واتخذ زوجة غيرها ولدت له ما لم يكن يبغى من بنات وفوق ما كان يبغى من بنين. ولزم القرية إلا في بعض الأعياد والمواسم الكبرى. ولكنه لم يهمل مطلقته وفتاته. فكان يرسل إليهما نفقة كافية من الأرز والزبد والقمح والجبن وما إلى ذلك. ولا يقتر على ابنته «القاهرية» فما يتطلبه تعليمها وتثقيفها. ولا ينفك معنيًا بها وبأمها. ومتعهدًا

لهما «بالمراسلة» فما طلق امرأته كراهة لها، بل كراهة لبقائها في عصمته وهو مع غيرها في بلد ناء. فابرأ ذمته وأرضى شعوره بواجبه لنفسه ولبنته ولم يفهم من معنى «العرض» بهذه الطريقة التي لا تخلو من الغرابة.

ولم يكن أغرب منه إلا مطلقته. فقد حرصت على أن يكون سلوكها حياله وهي مطلقة كما يجب أن يكون وهي زوجة. وكانت رسائله إليها في منزلة الأوامر التي تطاع ولا تُعصى فتفعل ما يأمر، وتتقي ما ينهى عنه -أو ما كان خليقًا أن ينهى عنه لو كان معها.

وكانت تتوخى في تربية «ميمي» ما تعلم أن فيه مرضاة أبيها. وكانت «ميمي» تؤثر أن تدرس الطب. ولكن أباها أبى ذلك كل الإباء. فلم ثقل عليه إلحاحها وضاق صدره بلجاجتها، قطع عنها نفقة التعليم. وكان لها من صلابته وعناده حظ ضئيل. فلما رأت منه ذلك تحولت عن الطب إلى مدرسة للمعلمات -نزوعًا منها إلى الاستقلال والاستغناء عن والد يغضب فيقطع النفقة. فجفاها أبو حمزة زمنًا. ثم غلبه الحب والحنو فعاد إلى الرضى وألقى لها الحبل على الغارب. فصارت معلمة في سوعها -كما أسلفنا- أن تستغني عن معونته. إلا أنها ورثت عن أمها لينها ووفاءها فبقيت على توقيرها له.

ولم تكن تخالط إلا ذوي قرابتها وقليلين جدًا من المعارف من بينهم أسرة إبراهيم. وكان لها ابن خالة اسمه «صادق» لم يكد يفرغ من التعليم الابتدائي حتى مل وكف. وعجز أبوه -وكان

في سعة- عن كبحه فرمى إليه بالزمام، وأطلق له، غير مخير، أن يصنع ما بدا له. فصار نهاره ليله، وليله نهاره، وأمله المفرد ومطمعه الوحيد، أن يكون «منولوجست» مشهورًا يذيع «قطعة» في الراديو، وراح على سبيل التمهيد يجمع حوله لفيفًا من أترابه وأشباهه العاطلين، وسربًا من بنات الحي ويقضي الوقت مع هؤلاء وأولئك في التدريب. وكانت له ملكة في الزجل، وطبع في الموسيقى، ولكن التحصيل ينقصه، فبقى حيث هو، لا يبلغ شيئًا، ولا يدرك غاية، ولا يزيد على أنه عاطل.

وكان صادق هذا يتودد إلى ميمي، وهي لا ترى فيه إلا أخيب الخياب وأفشل الفشلة، ولكن زرايتها به كانت لا تمنع أن تشعر بمزاياه وإن كان التدليل قد أفسدها أو حجبها وحال دون الانتفاع بها. وكان طويلاً نحيفًا، وفي نظرته شدة، وفي مشيته خفة كخفة القط. وكان أكثر ما يروعها -ويرعبها- سكونه وقسوته واستخفافه بكل شيء، وسخريته من كل شيء. وكانت تشعر -حين تكون معه- أنه يجذبها ويدفعها في آن معًا، يجذبها بقوة الشخصية وسحر النظرة الثابتة الفاحصة ويدفعها وينفرها بإثارة شكوكها في صدقة وإخلاصه، وبما يبديه من السخر من كل ما تعده جليلاً، والتهكم على كل ما نشأت على الحرص عليه والتعلق به، من مبادئ وعقائد وتقاليد. وكانت ربما كبر في وهمها أنه ليس إلا وحشًا في ثياب إنسان، وكان هذا يقلقها منه -وعليه- وكثيرًا ما أفضت إلى إبراهيم ببواعث قلقها هذا فكان يسري عنها ويقول لها:

«هوني عليك. فما الإنسان إلا حيوان، وكلنا ذلك الحيوان إذا أردت الحقيقة. وليست المدنية سوى صقل لا يمنع أن الحيوانية -وهي الأصل- كامنة متحفزة للظهور على الرغم من كل هذا الصقل إذا أتيحت لها الفرصة، أو استثارها مستثيرة قوى. وما زالت أساليبنا في حياتنا هي أساليب الحيوان، أو الوحش الضاري، ولكنها ملطفة مهذبة مرققة، أو قولي إنها «منظمة» بالقوانين، والتقاليد والعادات المرعية، ومن هنا تخفي حقيقتها، ومن هنا يروعك صادق لأن فيه تمردًا على الظواهر والطلاء، وإخلاصًا للأصل.»

وكانت ميمي إذا سمعت منه هذا التأويل تهز راسها غير مقتنعة، أو مطمئنة، وهو الأصح وتقول له «إن دأبك أن تنظر إلى الأمور هذه النظرة الهادئة المريحة وأن تحاول أن تنصف غيرك -ولكن ألا يخطر لك أني أنا أيضًا جديرة بالإنصاف؟»

فيسألها «كيف؟ ماذا تعنين؟»

فتقول «إن حياتي مثلاً تجري في مجرى سلس. ولكن صادقًا وأضرابه يحدثون فيه اضطرابًا شديدًا.»

فيقول لها «إني إنما أحاول أن أريك الجانب الذي ينبغي أن تنظري إليه حين تتدبرين هذا القريب المثير. إنه لم يجد من يصقل له جانبه الخشن أو يقلم له أظافر الوحشية الكامنة في نفوسنا -وفي وسعك أن تفعلي ذلك بأن تبدي له صفحة الود والتقدير، إنك بذلك -لا بنفور والتحقير- تستطيعين أن تُظهري وتنمي بذور الخير والفضيلة في نفسه، وثقي أن في نفسه -في نفس كل

إنسان- بذورًا كثيرة للخير. ولكن صادقًا لم يلق من يعينه على معرفة نفسه، ولقى، على العكس، من يستفزه، ويحنقه، ويستثير شر ما في نفسه، بالتحقير والنفور والسخط والانصراف عنه يأسًا منه، والقول أبدًا أنه خائب لا خير فيه ولا أمل ... امنحيه ودك يا ميمي وأنظري ماذا يكون منه ... امنحيه الثقة على الخصوص فإن ظماه إليها -نلهفه عليها- أعظم مما تتوهمين. صدقيني .. إن إيلاءه الحب والثقة خليق أن يجعل منه إنسانًا جديدًا ... جربي ... عرفيه بنفسه المطوية ... أديري له عينه فيها .. افتحيها له عليها ... لا تجعلي بالك إلى ثرثرة لسانه بما دفعه جهل الناس وسوء سيرتهم معه إلى اللغط به. فإن هذه الثرثرة ليست منه إلا من قبيل الدفاع عن النفس ... أهله جميعًا يستخفون به ويحقرونه، وينفضون أيديهم منه، ولا يرونه جديرًا بأدنى عناية، أو أفمأل حظ من الثقة، كفروا به جميعًا -فهل يلام إذا ثار، وتمرد، وكفر هو أيضًا بهم وبما يمثلون مما أغروه بكرهه؟ ولا تقولي إني أنصفه دونك .. فإني أنصفك أيضًا ... أنتِ تظلمينه وأنا أحاول أن أريك كيف تنصفيه وترفعيه إلى منازل الكرامة، والشرف والفضيلة عندك. فإذا استطعت هذا -وأنا واثق أنك تستطيعين- فإن هذا يكون انتصارًا لك- فماذا تبغين من الإنصاف أكثر من هذا؟»

وقد أطاعته ميمي فكفت عن مجافاة صادق. ولكنها ظلت تخشاه في قرارة نفسها، وإن كانت تكتم هذا ولا تبديه ولا تدعه يظهر على وجهها أو في سلوكها معه. وفرح صادق بهذا التحول من ميمي إلى محاسنته. فسلس قيادته في يدها، ولكنه طمع أيضًا، أو على الأصح زاد طعمه فيها. فكان أحيانًا ينظر إليها وكأنه يريد

أن يأكلها. فتفزع وتعاني مشقة عظيمة في كتمان ما يسورها من الخوف وتستعين على التجلد والتشدد بما قاله إبراهيم. وكانت ثقتها به كبيرة واطمئنانها إلى حكمته وسداد رأيه عظيمًا، بل تمامًا، فوطنت نفسها على أن تروض هذا الحيوان وأن تكون له أمًا رؤمًا، وإن كانت ربما حدثت نفسها أن ما لها هي. ولم يكن عندها جواب لذلك، سوى أنه يطاردها، وإن الصد والنفور لم تعد لهما أي جدوى، فما هو بالذي يصده شيء. فلعل الرفق يكون خيرًا. وعسى أن تكون الحسنى أرد عائدة.

وطمأنها قليلاً أنها استطاعت ذات ليلة أن تقنعه، على ما بدا لها، بأن يدع ذكر الحب واللغط به، وأن يقنع منها بالصداقة. وقد سخر في البداية من هذه الصداقة التي تعرضها بديلاً من الحب، ولكنها لطفت به. ولم تزل تحاوره وتداوره، حتى سكن وأمسك. ثم أظهر لها الرضى والاقتناع. وقال، بابتسامة لم تخل من سخره المعهود: «ألا تعطينني عربونًا لهذه الصداقة التي جملتها في عيني؟»

ولمحت السخر الذي في عينه. وتوجست شرًا من نبرة صوته. ولم تكن عبارته مما يبعث الاطمئنان. ولكنها تشددت وتحاملت على نفسها. وآلت لتمضين في التجربة إلى نهايتها المقدورة. ومالت عليه فلثمت جبينه. فرفع إليها فمه وقال: «هنا موضع التقبيل ... ثم ألسنا قد صرنا صديقين؟»

فامتقع وجهها وحدثت نفسها بأن هذه التجربة «الإبراهيمية» قد تؤدي إلى كثير لم يكن في الحسبان. ولكنه أدهشها بوداعته وقناعته. فلم يحاول إطالة القبلة. ولم يهم بالضم والعناق. وارتد

عنهـا مغتبطًـا. ومـضى إلى الباب. ثم كأنـما أبى إلا إزعاجهـا وإقلاقها فقـال ويـده عليه:

«لا أدري مـن أشـكر عـلى هـذه القبلة الأخويـة. وأكـبر الظن أني مدين بالشـكر للأسـتاذ .....»

ولم يفتـه تغـير لونهـا عند ذكـر إبراهيـم فقـال: «اشـكريه عني من فضلـك إذًا لقيتـه قبـلي» وتركها مبلبلة. موسوسـة.

الفصل الثاني

(١)

لم يكن إبراهيم حين استقر رأيه على الزواج من تحية يعرف قبل ذلك بدقائق -أي نعم بدقائق- أنه يستزوجها، أو ينوي ذلك، أو يفكر في زواج.

وكان ابن عمته حامد -أو ابن بنت عمة أبيه إذا أردت الدقة- قد دعاه إلى ضيعته لقضاء أيام مع لفيف من الأهل والأصهار وقال له فيما قال إن أسرة «طاهر بك» -عميد إحدى القرى المجاورة- ستكون هناك. ومعها ابنتها «تحية».

وابتسم ...

فقال إبراهيم «هذا الجمع يحشد إذن لهذا؟»

فقال حامد «الحقيقة أنها في حكم الخطيبة. وإن لم يجر كلام في الموضوع.»

قال إبراهيم «إنك تذكرني بمن قال لأمه إنه سيتزوج بنت السلطان. فما ينقصه إلا أن يوافق السلطان وبنته - هل أعرفها؟»

قال حامد «لا أظن. فقد تعلمت في الإسكندرية حيث اتخذ

أبوها دارًا في الرمل قريبًا من دارنا التي بعناها. وفي دارنا عرفناها وأعجبت بها. وأنت تعرف رغبة أبي في تزويجي. ولكن بلدتنا ليس فيها كفؤ لنا. وقد أدرت عيني في مركزنا كله فلم أجد من هو أكرم وأرفع منزلة من طاهر بك وإن كان دوننا ثروة»

فتبسم إبراهيم وقال «يخيل إلى من يسمع كلامك أنك ستتزوج طاهر بك أو بقراته وعجوله أو أرضه، أو جاهه..»

فهم حامد بكلام صرف عنه إبراهيم بقوله «لا تقل شيئًا .. إني فاهم. ضُرب في القرن التاسع عشر - هذا أنت .. كالريال النمسوي الذي يتعاملون به في الحبشة، وقد بطل استعماله في بلاده»

وأزجى إليه التهنئات «سلفًا» ووعد بالسفر.

وخطر له وهو في القطار أنه آن لحامد أن يتزوج، فقد ناهز الخامسة والثلاثين. ولأبيه الحق في الإلحاح عليه فما رزق من الولد غيره. ولا خير في العزوبة لرجل انقطع للعمل في الأرض فما يفارق القرية إلا في الندرة القليلة ولأمر تستدعيه مطالب الزراعة، وحدث نفسه أن حامدًا حكيم حازم، وأن أباه موفق. ومن حكمته أنه اقنع أباه بالتخلص من الدار التي بالرمل فإن الإقامة فيها معظم شهور السنة تنأى به عن «الغيط» وتكل أمره إلى الإجراء الذين لا يبالون أجاد الزوع أم كندت به الأرض.

وانثنى إلى نفسه فقال إنه هو أيضًا في مثل سنه أو أعلى منها -ولا علاقة هناك تؤذن بزواج. وطافت برأسه صور الماضي فنحاها. كما يهش المرء الذبان. وليس له أرض يحمل همها، فقد

كان لـه أخ أسـن منـه -عليـه رحمـة الله- «كنـس ومسـح» كـما تقـول العامـة وأعفـاه مـن هـذا العنـاء. وقـد عنيـت أمـه بتعلميـه. وآتتـه القـدرة عـلى كسـب رزقـه بعـرق الجبـين، فـما حاجتـه إلى الأرض؟ وإنـه ليكسـب كثـيرًا. ولكنه متـلاف لا يبقى على شيء ولا يحسـن أن يدخـر قرشًـا أبيـض ليوم أسـود. أتـرى هـي الوراثة؟ وإن ابـن عمته لـيرى إنفاقـه عـن سـعة فيتوهمه أغنـى منه وخـيرًا حـالاً .. وضحك إبراهيـم وقـال إن هـذا هو «السـتر» الـذي لا ينفك الجمهـور الأكبر مـن النـاس يسـألون الله أن يضيفـه عليهـم. ولقد عمـل في الصحافة -وإنـه الآن لحـر- يكتـب في الصحـف والمجـلات. ويؤلـف الكتب و«يدبـج» التقاريـر والمذكـرات لمديـري الـشركات العربيـة يحسـنون غيرهـا. ولا يجحـد فضـل الله عليه.

ومـا زالـت أمـه تحثـه عـلى الـزواج وتدعـوه إليـه وتقـول لـه إنها مريضـة. إحـدى رجليهـا في الدنيـا والأخـرى في ... العيـاذ بـالله .. ولا قـدر الله .. وكـبر في وهمـه أنـه خليـق بـأن يضـل ويشـقى إذا فقـد أمـه. فإنهـا عصمة لـه. ونقلـت عليه وطـأة هـذا الخاطـر. فنفاه بجهـد. وذهـب يفكـر في تحيـة، كيـف هـي يا تـرى؟ وماذا عسـى أن يبلـغ من صبرهـا على حيـاة الريف وهي بنـت الإسـكندرية، المشرقة الوضـاءة؟

وبلـغ القريـة. وقـد مالـت الشـمس للمغيـب. فاسـتقبله عـلى الجسر. عنـد مدخلهـا خـادم أبلغـه أنـه أعـد لـه «الكشـك» الـذي في الجزيـرة، وأركبـه زورقًـا إليهـا -وكان الجـو سجسـجًا، وأشـعة الشـمس الذهبيـة ترقـص عـلى المـاء. فانـشرح صـدره. وأمـر الخادم أن يكـف عـن التجديـف. فبقـى -الخـادم- كالتمثـال، ومقبضًـا

المجدفين في حجره، وطرفاهما يقطر منهما الماء، والزورق يسبح على غير هدى. وصارت الشمس في عينيه فرفع كفه وحجبها، فعاد يرى النهر المتوهج و«الكشك» القائم على شاطئه والخضرة اليانعة حوله. وود في هذه اللحظة لو أنه كان إلى جانبه .. من؟ وأحس أن حياته ناقصة .. ودار في نفسه ما يشبه الحسد لقريبه. فأنكر هذا. وبادر فقال إنه يرجو له السعادة مع تحية ... ترى كيف هي؟ طويلة؟ قصيرة؟ ثقيلة؟ خفيفة؟ ومتكلفة أم على الفطرة؟ وهز كتفه ومط بوزه، وتنهد. وأمر الخادم أن يرسو به.

وكان الكشك عبارة عن بيت من خشب فيه غرفتان أرضيتان واحدة للخادم والأخرى متخذة مخزنًا لما عسى أن يحتاج إليه الضيف. وفوقهما غرفتان أخريان للنوم والجلوس وحولهما شرفة من جهات ثلاث. والأثاث بسيط مريح: طارقتان -كنبتان- بينهما «كليم» من نسج الصعيد فوقه منضدة مستديرة عليها رخامة، وإلى جانبها كرسيان من الخيزران، ورف بجانب الباب عليه أكواب وفناجين للقهوة والشاي. وفي غرفة النوم سرير وكرسي هزاز، ومشجب ومنضدة صغيرة. وعلى حافة الشرفة قلل شتى الأحجام والأشكال ملأي بالماء ليبترد. وعلى أرضها وسائد منتشرة للجلوس.

وصرف الخادم وأخرج من حقيبته زجاجة ويسكي صب منها قيراطين في كوب وشعشعه بالماء. وقعد على كرسي خرج به إلى الشرفة. وتبسم وقد تذكر أنه كتب مرة إلى صديق، من هذه الجزيرة -ومن هذا الكشك- يصف له الموقع والمقام. فما كان من صديقه إلا أن بعث إليه بالرد بهذا العنوان.

«بكشك بجزيرة في مجرى النيل بين قريتي كذا وكذا، لا يمكن أن يخطئها عامل البريد إلا إذا غلط وركب النيل على فرعه الآخر».

وخطر له وهو ينظر إلى الماء والخضرة، أنه لا يريد أن يعبر إلى حيث القوم في «الدوّار» وماذا يصنع في ذلك الزحام؟ إن حاجته إلى هذا السكون المريح. وقد يستغربون تخلفه عن العشاء معهم. ولكن في وسعه أن يعتذر غدًا بطول الرحلة وتعب السفر ووجع الرأس. وعلى ذكر ذلك قال لنفسه إن رأسه سيوجعه على التحقيق إذا ظل يعب في هذا الشراب.

ونهض وانحدر على درجات السلم الخشبي وتلفت فلم يجد أحدًا. حتى الزورق اختفى. لا بد أن يكون «آدم» قد عاد به إلى الضفة الثانية. إذن سيجيء على الأرجوحة بحمولة أخرى. وقطّب. فقد كان يؤثر أن يظل وحده في هذه الجزيرة الساكنة، وأن يسعه أن يقول كما قال الشاعر بلسان مستفرَدٍ وَحَدٍ في جزيرة كهذه «إني ملك على كل ما أرى»! وراح يتمشى. فأشرف على مزرعة بطيخ. فنزع واحدة صغيرة ودقها على ركبته فانفلقت وانشطرت، فإذا هي حمراء مغرية، فقضم، فاستحلاها، فعكف على القضم. وابتل أنفه وخداه. وهو لا يحفل ذلك -ورمى القشرة البيضاء الماسخة. واستأنف المشي غير جاعل باله إلى الوقت.

ودخل الليل فقعد على الأرض. ومد ساقيه. ومد بصره أيضًا ليرى الماء. وكان يسمع حريره، ولا يبصر إلا سوادًا يخلطه في رأى العين بالأرض، إلا حين تلتمع صفحته من بعيد. وشاع في نفسه الاغتباط. فصح عزمه على التخلف عن العشاء هناك. وحدث

نفسه أنه اعتاد في حياته المضطربة أن يتقبل بقبول حسن ما تجيئه به الساعة التي يكون فيها وأن لا يضيع أو يفسد ما يفيد فيها بالطمع فيما عسى أن يجبني من سواها.

وإنه لكذلك وإذا بحفيف توهمه بادئ الأمر من أوراق الشجر. وكان الظلام والسكون قد أرهفا سمعه. فخيل إليه أن أحدًا قادم. فحدق في الليل فلم ير شيئًا وكانت الكلاب تنبح -على الناحية الأخرى من النيل- والضفادع تنقنق حوله، ولكن هذه الأصوات كانت تزيد السكون عمق وقع في نفسه.

وخاطبه صوت عذب فيه نبرة الشباب «وحدك؟»

فوثب إلى قدميه من الدهشة فقد كان صوت فتاة، ما في ذلك شك. واضطرب وهو ينهض بسرعة، فكاد يقع، لعجلته ولقلة استواء الأرض. وامتدت يداه كأنما يحاول أن يمسك شيئًا يعتمد عليه فيتقي الوقوع. فعل ذلك بالغريزة. ولو أتيح له أن يفكر لما دفع يديه. وكانت دهشته أعظم لما التقت يداه وهما تذهبان في الهواء بجسم لين. ولو فكر لما تعجب.

وقالت: «لا تفعل هذا مرة أخرى. كدت توقعني في الماء»

كأنما كان قد تعمده

فقال -وفاته أن يعتذر- «لم أكن أدري أن الماء قريب من هنا»

وكان لا يرى منها إلا ثوبها الأبيض. وكان مع ذلك غامضًا.

ولم يسمع جوابًا فقال: «أنا إبراهيم ... قريب حامد»

وانتظر فجاءه الجواب في الظلام الدامس: «أنا تحية ... تحية طاهر»

وأضحكه أنه كاد ينحني لها في الظلام. ولكنه صد نفسه عن هذا العبث وقال:

«ستكونين سعيدة مع حامد .. رجل طيب جدًا.. لا لأنه قريبي. بل لأنه طيب»

فلم تجب عن هذا. وقالت: «أظنك تتعجب وتتساءل عما جاء بي إلى هنا؟ وحدي في الليل ... لا ألومك إذا تعجبت ... ولكنه لم يكن يسعني إلا أن أفعل ... كان لا بد أن أفر ... لم أعد أطيق الزحام ... ضاق صدري جدًا ... عمتك ست طيبة جدًا ... غريبة ... لا متعلمة ولا .. مثقفة. ولكنها ذكية. ذكية جدًا .. أدركت حاجتي إلى الهواء الطلق .. وإلى البعد عن هذا الزحام .. والراحة من الضجة. ورافقتني إلى هنا» وضحكت ثم قالت: «لفت نفسها بملاءة سوداء. كأن أحدًا يمكن أيراها في هذا الظلام، وجاءت معي. تركتها في الكشك. وخرجت أبحث لها عنك. فما جاءت إلا من أجلك. تالله ما أطيبها ... تحبك كحامد»

ولم يستغرب ما أنباته به. فقد كان يعرف حبها له. ولا عجب فإنها بنت عمة أبيه. ولكنها كانت تحنو عليه حنوًا شديدًا. ولعل كل هذه الرقة منها له، مصدرها حبها لأمه هو -فقد كانتا صديقتين. امرأة طيبة على كل حال. ولها عنده منزلة تقارب، وإن كانت لا تعادل، منزلة أمه. فإن هذه لا شريك لها ولا مزاحم وكلهم يعرف ذلك. وما من أحد يسوئه أن منزلته عنده دون منزلتها.

وقالت تحية: «إنهم هناك يلغطون بغيابك»

قال: «أحسب أني فررت سلفًا. كما تفرين من الضجة»

وسكتا

وراعه بعد هنيهة أنها تدندن -بصوت خافت ولكنه يسري إليه- وبكلام لا يتبينه.

ثم قالت وقطعت الغناء: «لست أحسن أن أغني. ولكن هذا الليل الساجي ... وهذه الجزيرة المنعزلة ... والماء الذي يومض من بعيد وإن كان أدنى شيء ... كل هذا أغراني .. سامحني»

فلم يقل شيئًا

وبقيا واقفين .. برهة

ثم قالت -وخيل إليه أنها تبتسم- «إن حديثنا عبارة عن فترات من الصمت. هل نعود؟

فمشى خلفها صامتًا. وسمعها تقول. كأنها تحدث نفسها «غريب ... منذ نصف ساعة كنت بين عشرين أو يزيدون. وإذا بي أشعر فجأة أني وحدي ... أحسست بوحشة عجيبة وسط القوم. أعني أني لم أشعر في نفسي بوجودهم حولي. كيف تعلل ذلك؟»

قال: «لعله الحب»

وندم على ما قال. وود لو كان لسانه اشتل أو قطع، ولم يقله. وخشى أن تحمله على محمل السخرية أو التقريع

وخيل إليه أنها استدارت ونظرت إليه. على أنها لم تقل شيئًا، حتى بلغا الكشك.

(٢)

ورآهـا في الكشـك -عـلى ضـوء مصبـاح بـترول تحملـه حلقـة مـدلاة مـن السـقف- وخيل إليـه أن وجههـا متهضم، ولنهـا باهت، وأن شـفتيها. ذابلتـان، وأن جسـمها كلـه صغـير منحـوف لا تـرى عليـه نعمـة. وخطـر لـه أن لعـل هـذا اليبـس والسـهوم مـن ضـوء المصبـاح أو لعهـا أسـاءت اختيار الثـوب ولونه. أو لم تحسـن تفصيله عـلى قدهـا. ونصف جمـال المرأة يسـتفاد مـن تفصيل الثـواب ولونه.

وقالـت لـه عمتـه. بعـد أن رحبـت بـه، وربتـت عليـه، ولثمـت جبينـه. ولثـم هـو يدهـا. «يـا ابنـي. ولمـاذا أبطـأت علينـا؟»

فقال بإيجاز «السفر. والكسل. والاسترخاء»

فقالـت «لا. هـذه آفـة العزوبـة الطويلـة. اعنـدت الوحـدة» وابتسـمت فانبسـطت أسـارير وجههـا المخـدد وقالـت «عنـدي لك عـروس. تعـال، وتمـل بالنظـر إلى حسـن وجههـا»

قال «من تكون المسكينة؟»

قالت «إيه؟ لا تقل هذا. إنك لقطة»

فقهقه وقال «أنت وأمي ... لا أدري أيكما شر؟»

واشتركت تحية في الحديث فقالت «هي زهرة ... زهرة غضة نضيرة»

فألفى نفسه يسألها «مثلك؟»

قالت «لا تسخر مني»

وقالت عمته «نعم ياسمينة مثل تحية»

وهز رأسه كالموافق. وحدث نفسه أنه لا يسعه غير هذا.

وسمع تحية تقول «ليتني كنت ذاك. ولكن الحقيقة أني ... إن الذي يرضى بي يحتاج إلى الصبر الطويل، والحلم الكثير. فإني كثيرة النسيان. أنسى مشابك شعري ولا أذكر أين وضعتها ... وأهم بقطف قرنفلة فأقطف وردة. وأذهل عن الطعام وأنا أقرأ. وأذهب إلى محل أو بيت أعرفه، فأدخل في شارع غير شارعه. وأترك نقودي ومناديلي. وأشيائي الأخرى في كل مكان. ثم أروح أزعج الناس بالسؤال والبحث ثم إني لا أحسن شيئًا. ولست أكتم عيوبي أو أخفيها. ولكنهم يضحكون ولا يصدقون»

فألفى نفسه يقول مرة أخرى: «سيسعد بك حامد»

ودار في نفسه قولها إنها دائمة النسيان، وإنها لا تحسن شيئًا، وإنها تشغل بالزهرة والكتاب عن الطعام وتدبير المنزل. وكان يسمع خرير الماء -تحت قدميه فيما يحس- ويرى ضوءًا خافتًا على الضفة الأخرى. وحدث نفسه؛ وهم يكلم المرأتين -العجوز والصبية- أن تحية لن تكون ربة بيت كأمه. ولكنها أجدت له مني

... ومن يدري!. لعل زهرة مطولة تكون أشهى -وألزم أيضًا- من حكمة ربة البيت المدبرة، وعسى أن يكون الفل والياسمين والقرنفل والنرجس والورد على اغصانه أو في زهريته أجلب لطيب الحياة، ورغد العيش .. ولم يطل عمر هذا الخاطر سوى هنيهة ثم طرده ونحاه. وراح يقول لنفسه إن المرأة التي يتزوجها، إذا قسم له الزواج، تحتاج أن تكون كأمه، حسن تدبير، وسيكون عليها أن تؤدي طوائف شتى من الواجبات المختلفة. ولن تكون في بيته للزينة والمتعة وحدهما. كلا. فليس هذا جزاء أمه.

ورأى نفسه يقول: «صبرًا حتى تتزوجي. وحينئذ تتغيرين.»

وأمنت العجوز على ذلك وأكدت لتحية أن الزواج يذهب بكل ما أحدث التدليل والفراغ.

وقالت تحية لإبراهيم: «أواثق أنت أن الزواج يفعل هذا؟ ليته يفعل »

قال: «هذا أثره في العادة ... يحدث تغييرًا على كل حال».

قالت: «لا أدري لماذا كنت أتوقع أن تقول لي شيئًا آخر ... وأهم»

قال وهو يبتسم: «آسف .. ربما كان حامد أقدر على ذلك .. وأولى»

وبدا له أن كل هذا الحوار غير لائق، في الكشك، وفي جزيرة منعزلة. وخيل إليه مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتحرك. ولا يقدر أن يعبر إلى الضفة الأخرى .... في هذه الليلة على الخصوص ... وكبر في وهمه أن لا وسيلة إلى الاتصال بهذه الضفة الأخرى -كأن

الجزيـرة قـد سـحبت وانتقلت إلى موقـع آخر قصي ... موقـع ليس له حـدود، ولا عـلى جانبيـه ضفتـان. وكم مـن «ضفة أخـرى» في الحياة ينشـدها المرء ويشـتهيها ويتمناهـا ولا يبلغها؟؟ ..

ولم تقـل لـه عمتـه من العـروس التـي اختارت لـه. ولكنـه عرفها تخمينًـا. وهـل في القريـة كلها مـن بنـات الأسر الظاهرة من تسـتحق أن توصـف بالجـمال غـير «كريمـة»؟ وكان أبوهـا قـد اختفـى بعـد مولدهـا وانقطعـت أخبـاره فليـس يعـرف أحـد أحـي هـو فيرجى، أم ميـت فينـدب؟ وآثـرت زوجتـه لـه الموت كراهـة منهـا لأن يكون حيًـا، ويهجرهـا هـذا الهجـر القبيـح، وإن كان قـد ترك لهـا أرضه ولم يبعهـا ولم يرهنهـا فنشـأت كريمـة يتيمـة وإن كانت لعلهـا غير ذلك. وكان عهـد إبراهيـم بالبلـدة غـير قريب ولكنـه تذكر كريمـة كما رآها آخـر مـرة. وكانت تفـرق شـعرها الوحف من الوسـط وترسـله على جانبـي وجههـا وتربطـه مـن الخلـف بأنشـوطة. فـكأن محياهـا مـن شـعرها الدجوجـي في إطـار وكانـت وجنتاهـا كالوردتـين، وعيناها سـودواين نجلاويـن، وفيهـما سـعة وفتور، وقـدر إبراهيـم أن تكون قـد ناهزت السادسـة عشر مـن عمرها الغـض فهي صغـيرة. ولكنها لا بـد أن تكـون الآن ناضجة. وتبسـم إذ تذكر حديثًـا روى له لما كان في البلـدة آخـر مـرة. وكان عـلى الطعـام مـع الأسرة. وكانـت كريمة وأمهـا حاضريـن وكانـت كريمـة تتهامـس هـي وجـارة لهـا في مثـل سـنها. وكان ذلـك يسـتغرقهما ويـكاد يلهيهـما عـن الطعـام. وكانت عمتـه عـلى يمينـه. وإلى جانبها فتـاة صغيرة أخـرى فمالـت الفتاة على عمتـه فألصقت فمهـا الدقيق -وعليه ابتسـامة رفافـة- بأذنها وقالت همسًـا -كذلـك جـرت الروايـة- «هـل تعرفـين في أي شيء تتحـدث كريمـة وفتحيـة؟» قالـت المـرأة «كلا. ولكنا نحـن أيضًا نسـتطيع أن

نتهامس مثلها» -قالت الصغيرة «ولكن لا يجوز أن يسمع إبراهيم ما أقول» فوعدتها الكبيرة أن تكتم الخبر. وأكدت أن الكلام سيدخل من أذن ويخرج من أذن. فزوت الصغيرة ما بين عينيها وقالت «إذن سيسك سمعه لا محالة» فضحكت الكبيرة وطمأنتها على أن الكلام الخرج من الأذن الأخرى لن يبلغه فأنبأتها أن كريمة تحب إبراهيم ...

وأقبل الخادم الهرم «عم آدم» يسأله ألا ينوي أن يتعشى؟ فقال إبراهيم إنه يكتفي ببطيخة. وطلب منه أن يقطعها ويقشرها ويضعها على الشرفة لتبرد. ففعل. ووضع معها سكينة. فاستغرب إبراهيم وقال له «كان الأولى أن تجئ بشوكة إذا كان لا بد من شيء آكل به.» قال «هذه لتصرف الشمامة» فلم يفهم وسأله «أي شمامة؟» قال «التي تشم البطيخ» فضحك إبراهيم وصرفه. وغطى الطبق بفوطة. ولكنه نام قبل أن يأكل منها في ليلته.

وفي الصباح عبر النهر إلى الضفة الأخرى التي زايلها الغموض والنأي في النهار فالتقى بالقوم جميعًا جلوسًا إلى المائدة يفطرون. وكان الجو رقيقًا، والهواء معطرًا بأنفاس الحقول والرياض. وأقبلت تحية تسلم عليه كأنها لم تره من قبل. فاستغرب هذا وكبر في ظنه أن لعلهما كتمتا رحلتهما إليه البارحة فلماذا؟ أتراهما تخشيان أن يثير الخبر غيرة حامد؟ ومم يغار الأبله؟ وأيتهما صاحبة الرأي في الكتمان؟ وألفى نفسه يسخط على عمته.

وحدث نفسه وهو يختلس النظرات إلى تحية أنها أقل جمالاً حتى مما توهمها البارحة في الظلام. ولم يخدعه المصباح حين أراه أن خديها متهضمان. ووجد أن عينيها عسليتان. وبدا له أن

جمال شعرها في أنه كأنما يأبى أن يخضع للتمشيط أو التصفيف أو الترجيل. وكانت لا قصيرة ولا طويلة. على أنه أحس أن عليه أن يغير رأيه فيها، وإن كان لم يدمن النظر إليها. فإن لها لجمالاً، وإن شبابها ليفيض عليها رونقًا عجيبًا، وإن في صوتها لحيوية «حادة» -هذا هو الصف الوحيد لما يصافح سمعه من نبراتها- وخيل إليه أن حيوتها تكاد «تؤلمها». واستغرب منها أنها طويلة النظرات حديدتها. ولكن فيها مع ذلك رقة مستورة، ولينا وراءه هذه اللحظات الحداد. وثم رشاقة جسمها ومرونة بدنها ...

وأمسك عن الاسترسال. وأنكر من نفسه أن تطوف برأسه هذه الخواطر. وشعر بارتباك. فأطبق فمه وزمّه كأنما كان يتكلم. وأحس أن وجهه يضطرم. وخشى أن يلاحظ أحدهم ذلك. وسمع حامدًا يقول لتحية. وكأن الصوت يأتي من بعيد «إنك خليقة أن تحبي إبراهيم فإنه من هؤلاء الخياليين الذين تعجبين بهم. يحلم بدنيا سعيدة حافلة بالخير، له ولمن حوله من أهل وإخوان».

وسمع نفسه يقول في جواب ذلك «إني ما فكرت في هذا قط. ولكنك لا بد أن تكون على صواب»

وغاظه ما انطوى عليه كلام حامد من التهكم. وأعياه أن يجد له مسوغًا وراح يتعجب لتحية مرة أخرى .. كيف يا ترى ستكون حياتها مع هذا الرجل الذي لا يلبس إلا الجلاليب الفضفاضة، ولا يعني بغير القطن والفول والذرة والبرسيم والجاموسة والثور؟ وود في هذه اللحظة لو يعرف رأي حامد في تحية .. وانثنى من هذا يسأل نفسه عن رأيه هو فيها؟ وامتعض

وقال لنفسه إنه لا حاجة به إلى جواب. ولا حق له في أن يكون له رأي فيها. فإن شأنها لا يعنيه.

ونهضوا عن المائدة وذهب هو إلى الشرفة المطلة على النيل -من بعيد- وكانت كريمة قد سبقته إليها وهو لا يدري. فخشى أن يساء تأويل ذلك عند قوم عهده بهم أنهم لا تفوتهم كلمة أو حركة من ضيف. ولا يبعد أن يحملوا ما يكون منه على غير محملة، وخطر له أن يقظتهم وسوء ظنهم ثمرة عصور طويلة من الظلم والاستبداد وقلة الأمن والاطمئنان. وأنهم ورثوا ضعف الثقة بالعدل وحسن النيات.

وكانت كريمة متكئة على السور. فاعتدلت لما دنا منها، وتبسمت له. ولكن لسانه لم يسعفه، فلم يجد كلامًا حاضرًا، وكان يرى جانب وجهها المتورد، وشعرها الفاحم المرسل. وتذكر في هذه اللحظة تحية -لا يدري لماذا؟ وهي تدندن بما لا يتبين في ظلام الليل على حافة الجزيرة- وأغضبه أن تنثني خواطره مرتدة إلى تحية، وأن لا يستطيع الكلام مع هذه الفتاة المشرقة الديباجة، الصابحة المحيا، كأن على فمه شبحَ يد يصده عن فتحه .. ورآها تنظر إليه بعينيها الواسعتين الفاترتين، ويفتر فمها الدقيق المغري، وخيل إليه أن أنفاسها أسرعت، وأن صدرها يعلو ويهبط، وأحس أن شابها يحمل عليها حملة رجا أن لا تكون عنيفة هوجاء.

وقال فجأة، ومن غير أن يفكر «أنتِ أجمل من رأيت يا كريمة»

فاتقد محياها وقالت وهي مطرقة «يسرني أن هذا رأيك».

ورآها جادة، وكان صوتها عميقًا ساكنًا كصوت الماء حين ينتهي إلى بركة، ووقفا بعد ذلك صامتين. ثم مضت بخطوات بطيئة إلى الداخل. فلما بلغت الباب التفتت إليه ولم تقل شيئًا. وألقت إليه ابتسامة خفيفة.

وارتد بعدها داخلاً فالتقى بتحية فسألها مبتسمًا «متى الزواج إن شاء الله؟» فهزت كتفيها. ثم قالت وأغفلت سؤاله «الجزيرة أحلى من هنا»

فلم يدر أهي تصرفه، أم تبدي رأيًا. وقال «الحق معك. سأعود إليها»

قالت: «الآن؟»

قال وقد ذهب عنه الشك: «نعم فإن بي حاجة إلى عزلتها. هي عالم آخر تسكن فيه النفس، وتطمئن، وتكف عن الجيشان، وتستريح من شدة المخض. ثم هناك الخضرة والماء -كهنا- ولكنهما هناك أوقع، حتى كأن الماء أمهى، والخضرة أخضر».

قالت: «والوجه الحسن؟»

قال: «هذا أتركه لحامد»

ولم يدر لماذا قال هذا. وكأنما لم تلتفت إلى ما سمعت فسألته ورفعت حاجبيها قليلاً: «والمخض؟»

فابتسم. وأطرق هنيهة. ثم رفع رأسه. وحدق في وجهها الشاحب. وهم بكلام ثم عدل.

وتركها ... إلى الجزيرة

(٣)

وقال لعمه -كما اعتاد أن يدعوه- «إن ضيفكم يدعوكم أن تكونوا ضيوفه»

فضحك الشيخ وصار فمه الفارغ كمدخل الكهف. وكان في يده مغزل وصوف يصنع منه جوارب للشتاء. وقال إنه ليس هناك ضيف ومضيف. فقال إبراهيم: «إنما أعني أن الجزيرة أحلى وأطيب، وأن المقام فيها أحرى أن يكون حميدًا - في كل وقت» وألفى نفسه قد حمس وهو يقول: «ثق يا عم أنها قطعة من الجنة وإن كانت كلها بطيخًا وليس فيها سوى حوض واحد صغير من الورد خلف الكشك. ولكن أليس البطيخ نصف فاكهة أمة محمد؟ وما أراها ينقصها إلا الحور العين. فأرسلهن إليها، وأطلقهن فيها واعمرها بهن. وسأسبقهن لأعد لهن متكآت أو حصيرًا مما في المخزن. وما أظن أن الحصير مما يفرش في الجنة لأهلها السعداء. ولكني أظن أن الحصير في جنة، يكون أوثر من السجاد العجمي. والعبرة بشعورك بأنك في جنة.»

واضطجع في الزورق ويده على الدفة، وأمامه في وسط الزورق عم آدم أو ظهره يجدف، وطاف برأسه خيال كريمة. فانطلق

يفكر فيها وفي شبابها الغض وشعرها الوحف. وتذكر أنهما تقاذفا كرة قبل بذع سنوات. فكان ثدياها الناهدان يرتجفان فكف عن ملاعبتها إشفاقًا على نفسه.

وكان لطول ما استنفدت الوحدة من حياته كثير التفكير طويلة، يستطرد من خاطر إلى خاطر ببطء وعلى مهل كالذي أمامه الدهر كله فلا موجب للعجلة. ومن أجل ذلك كانت عباراته -حين يتحدث- قصيرة موجزة. وأشبه بفهرس الكتاب، تومئ إلى ما فيه ولا تبسطه، إلا حين يقصد إلى الإفهام، أو يرى مدعاة للبيان. وكان في الأغلب هادئًا لا يكاد يخرجه شيء عن طوره، ولا يسبق لسانه عقله وإن كان عصبيًا، لطول ما راض نفسه على الحلم والاتزان.

وخطر له وهو مضجع في الزورق أن لسانه أفلت منه زمامه وهو يحادث تحية. وهز رأسه لما خطر له ذلك مستنكرًا «فضول» تحية. وتطفلها على خواطره، كأنما كانت هي التي أقحمت نفسها.

وترك الزورق ورده إلى الضفة الأخرى ليجئ بمن يشاء أن يجئ -من يقبل دعوته- واستلقى على الوسائد في الشرفة فنام. ثم استيقظ على مثل أصوات العصافير تناديه. فألفى عمته قاعدة على عليا درجات السلم الخشبي. وأجال عينه فرأى كريمة حيث كان هو قاعدًا في الزورق وعينها على الماء، وكفاها على الحافتين وعلى صفحة خدها الوردية خصلة متمردة من شعرها المرسل. فخطر له أن هذه فرصة ... بعد دقيقة أو اثنتين -إذا ظلت كما هي- أهبط إليها. ونطت سمكة من الماء ثم غطست. وأبصر

«ذهبيـة» مقبلـة يقطرهـا زورق بخـاري كبـير فوقف ينتظـر مرورها. ودنـت فأبـصر الذيـن فيها على سـطحها يطلـون على الجزيـرة فتمنى لـو كان معهـم. وإذا بأحدهم يصيـح «ياولاد الكلـب ...» وأضحك إبراهيـم هـذا الأسـلوب في الإعـراب عـن الاعجـاب، واسـتغرب أن يحسـد ركاب الذهبيـة الأنيقـة الفخمـة سـكان جزيـرة ليـس فيها سـوى البطيـخ، ونسـى أنـه وصفهـا بأنهـا قطعـة مـن الجنـة. ولكـن لعـل الجنـة ليسـت جنـة إلا نسـبيًا، وفي أوقـات دون أخرى.

ولم تـبرح كريمـة مكانهـا مـن الـزورق. ولم ينـزل إبراهيـم إليهـا. وكأنـما أتعبتهـا الجلسـة فتحركـت ووضعت يديهـا وراء رأسـها فبرز صدرهـا الناهـد ولم يسـعه إلا أن يـرى أحـد ثدييهـا ناتئًـا راسـخًا كالكمثـرى. وسـخط على نفسـه حسـن جـرى بباله هـذا. فـرد عينه عـن النظـر. وأدارهـا في الجزيـرة. فـرأى تحيـة مـع أتـراب لهـا فتذكر دندنتها في الظلام وشـعر بأسـف لأن ألفـاظ الأغنية قـد فاتته. فخطا خطـوة، فضربـت الشـمس وجهـه وأزاغـت بـصره. فلـم يعـد يرى سـوى نقـط سـود ترقـص في الجـو. فلفـت وجهه. فـرأى تحيـة تنظر إليـه. وخيـل إليـه أن نظرتهـا حـيرة واضطرابًـا، وأنها أجمـل من رأى -أجمـل عـلى كل حـال مـن كريمة- ونـزل إليهـا لا إلى كريمـة. وقال بـلا مناسـبة «لقـد كانت الشـمس في عيني» فلـم تقل شـيئًا، ولم تنظر إليه. وكان وجهها إلى الشـمس وشـفتاها منفرجتـين، وكفها مرفوعة إلى جبينهـا. ثـم التفتـت إليـه وقالـت «أحسسـت بشيء غريـب ...» وأمسـكت ولم تـزد. وأطرقـت هنيهـة ثـم مضـت عنـه -في صمت- إلى الكشـك.

ولم يحدث في بقية ذلك النهار سوى أن الطعام جاءهم من «الدَّوار» في الزورق فأكلوا وتلاغطوا. ثم رقد من رقد. وذهبت البقية تتمشى في أرض الجزيرة. وكان إبراهيم ممن رقدوا. فقد كانت عادته أن ينام قليلاً بعد الغداء. وأطل على حوض الزهر من غرفة نومه فبدا له كالمنديل الموشى. وطلب القهوة. وكان يتوقع أن يجيئه بها عم آدم. فجاءته بها كريمة. فجرى بخاطره أن هذا من مكر عمته. أو من يدري؟ لعلها بريئة وهو يظلمها. وصبتها له في الفنجانة. وناولته إياها. كما تفعل المرأة إذ تقوم على خدمة بعلها. وثقل على نفسه هذا الخاطر. وجلست أمامه وهو مغمض عنها لغير علة يدركها. فتوجع لها في سره. وعكف على القهوة يترشفها، والسيجارة يدخنها ولا يكاد يرفع رأسه، وفي أذنيه دندنة تحية، وفي عينيه منظرها وهي واقفة تظلل نفسها من الشمس براحتها.

وملت كريمة الانتظار والإعراض فسألته «فيم تفكر؟»

فقال -بلا تفكير- «فيك»

فضحكت -ضحكة السرور والخوف والأمل والشك وقالت «إن هذا خير على كل حال من الصمت»

ولم يكذب إبراهيم حين قال إن تفكيره كان يدور عليها، وهو يتصور تحية. فقد كانت خواطره تروح وتجئ من هذه إلى تلك كرقاص الساعة. وكان يشعر بحيرة لا يدري لها سببًا. فإن تحية خطيبة حامد أو في حكم الخطيبة. فلا داعي لانثناء خواطره إليها. وقد يسعدها أو لا يسعدها فذاك شأنها وحظها. أما كريمة فشأنها

مختلف جدًا. وهي حرة طليقة مثله ومن واجبه أن يقصر خواطره عليها وأن لا يعدوها بها إلى سواها -إلى تحية على الخصوص- إذا كان لا معدى عن التفكير في إحداهما. فإذا اقتنع بأن زواجه بكريمة يكون ملائمًا فيها. وإلا ... وإلا فقد انتهى الأمر. فما هو مقيد بشيء. وليس من الضروري أن تكون المسالة مسألة حب ... في البداية لا ضرورة... فإن الحب شجرة تنمو ولا تخلق كاملة في لحظة بأغصانها وأوراقها ونوارها.

وجاء الليل، على عجل فيما أحس. وتمشي مع ضيوفه في الجزيرة. وانفض من حوله. وبقي هو على الشرفة وحده. وخلا بنفسه وخواجله. ولم يكن ما يدور في نفسه يبلغ أن يكون خواطر أو معاني. فقد كان لمحات خاطفة ينقصها الاتصال والتسلسل، كالشرار المنبعث من وقع حوافر الجياد على أرض صلبة. ولا كان «عواطف» على قدر ما كان يستطيع أن يتبين. وكان الأمر يبدو له اشبه بالومضات من خلال السحب. وأورثه ذلك الغموض اكتئابًا لا تعليل له يعرفه.. كلا. لم يكن هذا اكتئابًا وإنما كان رأيًا يتكوّن ويتولد شيئًا فشيئًا ويبرز من هذا الغموض الذي كان يلفه في مثل الضباب الكثيف .. وإذا به يدرك فجأة أنه لا يستطيع أن يتزوج كريمة.

وأدهشه إدراكه لهذا. وحاول أن يطرد ما باغته منه. ولكنه شعر أن هذا عبث وأن لا مفر له من الاعتراف بهذه الحقيقة التي كأنما صاح بها في وجهه صائح. وأحس بمثل اللطمة حين تبين أنه لا يحبها، ولا يستطيع أن يحبها، لا لعيب فيها، بل لأن هذا هو شعور قلبه. ورفض ما كان يقول أن الحب خليق أن يجئ على

مهـل وبحكـم الألفـة .. كلا لا سـبيل إلى هـذا. ولـو تزوجهـا لقضى عليهـا بالشـقاء السرمـدي.. وليـس الأمـر أمـر امـرأة يلقـى إليهـا بزمـام بيتـه. ولـو كان كذلـك لـكان سـهلاً وخـيرًا أيضًا.

وخطـر لـه أن لعلـه قـد شـط وأسرف. فـأراد أن يراجـع نفسـه ويحاسـبها. فسـألها «مـا عيـب كريمـة؟» -ونفى أن بهـا عيبًـا. فإن لها لجـمالاً، وإنهـا لعلى حـظ من التعليـم. وفي مقدورها بفضل نشـأتها أن تتـولى أمـور بيته، وتريـح أمه، وكره هـذا اللون مـن التفكير. وحدث نفسـه أنـه لا يشـتري بقـرة مـن السـوق. إذن ما علـة هذا النفـور من كريمة، وستشـقى المسـكينة، إذا صـح ما كان بلغه عنها مـن حبها له، وإذا صدقـت دلائـل مـا رآه اليـوم منها .. ولكـن هل هي تحبـه؟ إنها صغـيرة. ولا يبعـد أن يكـون مـا تشـعر بـه -إذا كانت تشـعر بشيء- ثمـرة الإيحـاء -وجنابتـه- ولعل عمتـه الماكرة قـد ظلـت تحدثها عنه وتعدهـا بـه حتـى تعلقـت المسـكينة بهـذا الأمـر، وشـغل بـه خيالها، وصـارت تحـدث به نفسـها وتناجيها. ولكن شـبابها خليـق أن يكون عونًـا لهـا. وسـيندمل الجرح بسرعـة. والشـباب كفيل بذلـك. والآن مـاذا ينبغـي أن يصنـع؟ هـل يخاطـب عمتـه لتكف عـن إلقـاء الفتاة عليـه؟ أو لا يقـول ولا يصنع شـيئًا؟

ونهـض. وفي مرجـوه أن يفتـح الله عليـه بالـرأي الأصـوب. وانحـدر ومـضى إلى الشـمال حتى بلـغ حـوض الـورد. وكان الظلام قـد أرخـى سـدوله. فاسـتغرب أن يبـدو لـه الـورد أسـود في الليـل. وخطـر لـه أنـه لم يلاحظ ذلـك من قبـل. ثم اسـتأنف المـشي. فالتقى بمـن لم يتبـين. ولكنه قـال «تحيـة؟» نطق اسـمها غير مسـتغرب كأنما كان يـدور عـلى لسـانه طـول عمـره: ولم تجبـه. ولكنها بدت لـه كأنها

تترنح. وكبر في ظنه أنها ستقع فخطا إليها ودنا منها وأحاطها بذراعيه. فلم تدفعه. ولم تلق بنفسها عليه. وكانت كأنها غير مفيقة وليست تامة الوعي، وكان رأسها مطرقًا، وذراعها على ذراعه. وظلا هكذا برهة -هو مطوقها بذراعيه، وهي واقفة لا تبدي حراكًا، ولا تقبل ولا تنفر كأنما ليس لها في الأمر رأى أو خيار. ثم رفعت رأسها. فأحنى رأسه. وباسها.

ولم يشعر حين باسها بنشوة. وإنما كان شعوره باغتباط هادئ. وكان مبلغ إدراكه لما هو فيه شبيهًا بصوت الموجة مقبلة من بعيد. وتلقت قبلته أو الأمر بلا مجاوبة، كأنها تمثال. ثم حركت شفتيها بغتة، وباسته، فأحس كأنه يكاد يختنق.

وكأنما ارتجت الأرض فتحاجزا، وتراخت السواعد إلى الجنوب. وكان يستطيع أن يرى، على الرغم من الظلام، جانب خدها وبياض جيدها، ويحس رشاقة قوامها، ويود لو تكلمت -لو نطقت بأي شيء- ولكنه لم يسمع سوى أنفاس غير منتظمة. ولم يجد هو كلامًا يقوله سوى «يحسن أن نجلس».

وجليا، متباعدين، غير متلامسين. وخطر له وهو يتدبر تعمدها التباعد، أنها المعرفة التي أحوجت آدم وحواء إلى الخصف بورق الجنة، وكانا قبل ذلك لا يستحييان من العرى ولا ينكران شيئًا. ثم قال بعد برهة «لست آسفًا. فلا تتوقعي مني الإعراب عن أسف».

وقالت بعد فترة «ولا أنا. كلا. لست آسفة. وإني ...»

ولم تتمها.

فهم بكلام فرفعت كفها الدقيقة الرخصة إلى فمه تصده وقالت «إنك لا تدري ... ولكني تمنيت أن يحدث ما حدث ... لم يبق إلا أن تقال الحقيقة فلا قلها. ولم أكن أدرك على وجه واضح ما أبغى. ولكني كنت أحس برغبة غامضة في شيء غير جلي. أخشى أن ترى كلامي هذا فارغًا. ولكني لا أعرف كيف أقول غير ذلك. وإنما أصف ما خامرني».

قال «لست أراه فارغًا، فإن له لصدى في نفسي. أنا أيضًا كنت جاهلاً ما يضطرب به صدري. وكنت أحس دفع الدوافع إلى مجهول أو غامض يأبى أن يخرج إلى النور. وقد عرفنا الآن. وهذا هو المهم. وسأخبرها بما حدث. فما يليق ولا يعقل أن يبقى هذا مكتومًا وموقفهم منك ما تعملين وأعلم. يجب أن يسدل ستار على هذا الفصل- وإلا صار هزلاً مرًا»

فألحت عليه أن لا يقول شيئًا، وأن يدع لها تدبير الفكاك من الموقف، فإنه موقفها فأبى. فعادت تلح. وقالت إن ظهور الحقيقة يثير العداوة بينه وبين أهله، وبينهم وبين أهلها، ويخلق لغطًا هم جميعًا في غنى عنه. وقد يحمل أباها على العناد فيأبى عليها الزواج. وفي الوسع اتقاء هذا كله بالحكمة وحسن التدبير.

وبدت له الحكمة فيما تشير به. ولكنه رأى فيه ضربًا من التآمر والتواطؤ غير لائق، وذهب إلى أن الصراحة أمثل وأكرم. فوافقت على أن هذا تآمر قد تأباه المروءة. ولكنه تآمر يتقيان به ما هو شر من لوثته -يتقيان به لغطًا أليمًا لا داعي له ولا مسوغ؛ وعداوة يسهل اجتنابها، وعذابًا غليظًا قد يجره عليهما استنكاف

أبيها وما قد يغريه به من العناد، ويكسبان به أخيرًا سعادتهما.

فأصر على الإباء أنفة منه أن يسلك هذه السبيل العوجاء، وأنفة، لم يصارحها بها، من أن يكل إلى امرأة تدبير أمره. فرفعت له ذلك. ولكنها هي أيضًا أصرت على رأيها. ولما رأته لا يقتنع أنذرته أنها لا تملك إذن إلا أن تتحامل على نفسها وتضحي بها، وتتزوج حامدًا إذا طلبها. وخيرته بين الإذعان لرأيها وركوبها هذا المركب الصعب. فلم ير سبيلاً إلى غير الإذعان.

ولكنه قال لها «سأرحل في الصباح على أول قطار. فما أراني أطيق أن ألقاهم وفي قلبي هذا السر».

وأصبح الصباح فسافر من غير أن يعلم بسفره غير «عم آدم».

وبعد شهر وشهور -كأنها الأحقاب طولاً- تزوج تحية. وعاشا في «تبات ونبات» ولكنهما لم يرزقا ما يرزق الأزواج، من صبيان وبنات.

(٤)

وعـاش إبراهيـم مع تحية سـنوات، وفيًا لها بالعـين والقلب. وكان يطـوّف ويعمـل ويكـد، ويعـود إلى البيـت فيلقـي إليهـا بـما أفـاد من مـال. وكان مـا يكسـب مـن الـرزق يجيئه من هنـا وههنا وبـين بعضه والبعـض الآخـر فـترات تطول وتقـصر. ولكنـه في جملتـه -وبفضل تدبـير أمـه ثم تحيـة- واف بالحاجـة، كاف لسـتر المظهـر. وكانت أمه هـي ربـة بيتـه. وظلـت كذلـك زمنًـا بعـد زواجـه؛ فلـما آنسـت مـن تحيـة الرشـد وشـامت من سـيرتها الأخـير. ألقت إليهـا بالزمـام آمنة مطمئنـة، ولم تجشـم نفسـها حتـى عنـاء الإيحـاء والتوجيـه، ووكلـت كل شيء إلى ذكائهـا وفطنتهـا وعقلهـا وحكمتها.

وكانـت كبـيرة السـن ضعيفـة القلـب فأتيحـت لهـا الراحـة التي تعـذرت قبـل زواجه، ووسـعها أن تقول لتحيـة يومًا «الآن أسـتطيع أن أودعكـما، وأنـا سـعيدة قريـرة العـين. فإنـك كنـز ظفر بـه، ووقع عليـه، إبراهيـم -وأرجـو أن يكـون رأيـك أنـه أهـل لـه. عـلى أن في يديـك أن تجعليـه كذلـك، وكـما تحبـين. والرجـال يحبـون أن يكونوا سـادة، ولكنهـم يكونـون بـين يـدي المـرأة الحكيمـة أطفـالاً رضعًا، وأنـا أحـب أن يطـول عمـري فأسـعد بسـعادتكما، ولكـن وجـودك

أغناني عن البقاء والتلبث، وأشعرني أني كنت متعبة مرهقة، وأفقدني الباعث على التشدد، فأنا أنهد بسرعة، وليس لي إلا رجاء واحد إليك، فقد كنت لابني أمًا وصديقًا. وأخشى أن لا يهون عليها أن يفقدهما جميعًا بعد طول الألفة، فيتغير وتنكري منه ما لا عهد لك به. فلا تحملي ذلك منه على غير محمله ورديه إلى ما عرّفتك، لا إلى ما عسى أن يطوف برأسك من البواعث. وآثري معه الحسنى -في كل حال- وطول الإناة. ولا تنسى أنه إنسان مخلوق من طين، وثقي إذا فعلت ذلك أنه سيعود إليك -كما كان يعود إلي- فيفتح لك مغاليق قلبه. وقد يكفلك هذا شططًا، ولكنك حقيقة أن تحمدي المغبة إذا رضت نفسك على أن تكوني صديقة لا زوجته فقط. لا تجعليه يشعر أنه فقد أمه -أي صديقته- فإنه يتعزى عن فقد الأم ولا يتعزى عن فقد الصديقة. والذنب لي فقد أنسيته الأم لما صرت له صديقة. لقد كان يفضي إليّ بما لا تسمعه أم من بنيها أو بناتها لأنه كان يثق أني أفهم وأعذر - في حجري هذا كان يدفن وجهه ويبكي كالطفل فيتفطر قلبي. فليس أقسى ولا أوجع من بكاء رجل ... نحن النساء يا بنتي دموعنا قريبة، وإن ذلك لمن رحمة الله بنا. ولكن الرجل لا يبكي .. لم يخلق للبكاء مهما بلغ من لوعة الحزن .. فهل تدرين ماذا كنت أصنع ...؟ كان يرتد بين يدي طفلاً فأرتد أول الأمر أمًا، ولا يخجل -لا هو ولا أنا، فما يستطيع أن ينسى، ولا أستطيع أن أنسى -أنه رضع من ثديي هذين- ثم أعود فأصير له صديقًا. لقد كان الأمر أسهل عليّ لأنه رضع من ثديي، ولم يرضع منك. ولكنك تستطيعين أن تعوضي ذلك إذا استطعت أن تكوني صديقة

قبل أن تكوني زوجة. دعي الحقوق والواجبات ... تناسيها ... نحّيها، وغضي عنها، فإنها قيود لك وله .. وصدقيني فقد جربت .. لم يكن أبوه مثال الوفاء والقناعة في نظر الزوجة، فقد كان مزواجًا .. وقد شقيت به زمنًا وكدت أخسره، ولكني استعدت وفاءه وثقته وحبه واحترامه لما أنسيته أن لي حقوقًا عليه وأن عليه واجبات لي وأن بيننا هذا الحساب الذي لا ينقضي. فصرت بذلك امرأة جديدة عنده وتكشفت له جوانب لم يكن يفطن إليها أو يراها .. وإنها لفي كل امرأة. ولكن النساء اللواتي تزوج لم يبدينها له كما أبديتها ولم يقدرن على ما قدرت. فعاد لي بقلبه وعقله جميعًا. ووصيتي الأخيرة يا تحية أن تجعلي دأبك ووكدك أن تجددي نفسك له فإني أخشى فتور الألفة. لا تكوني له في يومك كما كنت في أمسك. ولا تظهري له في مباذلك أبدًا. ولا تقولي إنه زوجي ويعرفني معرفتي نفسي فما داعي التكلف؟. لا .. ينبغي أن تكوني له في كل يوم امرأة جديدة تتصدى له وتغريه وتفتنه. وإنه لعناء يا بنتي ولكنها لعنة جنسنا ولا حيلة لنا إلا أن نتكلف العناء إذا أردنا أن نحتفظ ببعولتنا .. وسامحيني يا تحية واغفري لي أني أنصح لك كأني أسيء الظن بعقلك فإنها تجربتي، ومن أنفع بها إذا لم أنفعكما؟».

فقالت تحية، وهي ترد الدمع بجهد «أخشى يا نينا -أي يا أم وكانت هكذا تدعوها- أن أكون خيبت أملك» - تشير إلى أنها لم تجئها بذرية وإلى الخوف من أن تكون أعقمت.

قالت «لا تقولي لي هذا فإنها إرادة الله. فإن تكن خيبة أمل فهي لكِ قبل أن تكون لي. وإني لأكون جاحدة فضل الله علي إذا لم

أشكره. فقد كان لي ولد فصار لي ولد وبنت. ولا أتكلف التواضع فأقول إني لا أستحق هذه النعمة. فقد أنعم عليّ بها. فلا بد أني عنده أهل لها. نعم لقد رضى الله عني حين رزقني بكِ. ولا قنوط يا بنتي من رحمة الله فاصبري تؤجري»

قالت» إنما أسقى من أجله لا من أجلي فإني راضية قريرة العين ولكن أكبر خوفي أن يثقل عليه هذا الحرمان»

قالت «لا تخافي فإني أعرف ابني لا بال له إلى هذا. همه ما يقرأ ويكتب. وما يخرج خير عنده من البنين والحفدة -أو هو عدله على الأقل- وهذا من لطف الله فلا تقلقي فإني أخاف أن يذبلك القلق، ولا تضمري الحسرة واللهفة فإنها شر ما جنى على المرأة وحياتها مع بعلها ويابنتي إن ذلك ليس في أيدينا وإنما نحن كالأرض لزراعيها ولسنا ننبت إلا ما زرعوا».

وجاء يوم آنت فيه بفراق، وكانت تحية وحدها معها في البيت فامتنع صبرها -على فرط تجلدها لهذا التوديع الذي كانت تعلم أنه لا بد آت- وانحدرت العبرات -»كاللؤلؤ الرطب»- من مدامع قرحات. واضطرمت في أحشائها نار أليمة الحرقات.

وكانت المسكينة كالمشفى على الغرق وهو لا يحسن من السباحة إلا الغوص. وكان التمزيق الذي تحسه في صدرها يجعلها -على الرغم منها- تدفع يديها ورجليها في الهواء كأنما تحاول أن تتعلق بشيء. وكانت تنفخ كأنما في جوفها بركان حام هائج. وعيناها متفتحتان جاحظتان، ولكنهما لا تكادان تبصران، وحملاقهما ثابت لا يتحير أو يتحرك، وجيدها يكاد ينخلع من

شـدة التلوي، وعروقه ناتئـة، وأوردته دارة كالوارمـة. وكان منظرها هـذا ومـا تكابـده مـن الآلام المبرحـة يقطـع مـن تحيـة نيـاط قلبهـا. فارتبكـت لحظـة ثـم عاد إليهـا الرشـد فدعـت طبيبًا ثم آخـر وودت لـو اسـتطاعت -أو أجـدى- أن تحشـد لهـا جمهـرة الأطبـاء الحـذاق. وجـاء أولهـما - زكان وثيـق الصلـة بـالأسرة- فدخـل عليهـا هاشًـا باشًـا كعادتـه، فتجلـدت وتكلفـت الابتسـام لـه، فقـال هذا أحسـن وفحصهـا وهـو يمازحها وطمأنهـا. وجاء الثاني فتشـاورا ثـم حقناها بالمورفـين واتفقـا عـلى العـلاج. وانصرف ثانيهـما وبقـي الأول حتى جـاء إبراهيـم. فارتمـت على صـدره تحية تبكـي بأربع. وقـال الطبيب إننـا نفعـل مـا نسـتطيع والله يقـضي بـما يشـاء، ولكنـي غـير يائس.

وحبسـت تحيـة نفسـها عليهـا تمرضهـا. وكان الطبيـب يعودها في اليـوم مـرة واثنتـين. واسـترجعت الأم مـن الآلام في اليومين الأولين وآذنـت الحالـة بالتماثـل وقاربت أن تشـابه أحوال الصحة. فاسـتبشر إبراهيـم وتحيـة، ولكـن الطبيـب ظـل يقـول إذا مضت لها سـبعة أيام رجـوت لهـا الـبرء. وكان مـا أخـاف أن يكـون. فانتابهـا كالاختناق، فتسـترخي إحـدى العينـين، ويتهـدل أحـد الشـدقين، ويغيـض الدم مـن الوجـه، وتصبـح الحدقـة زجاجـة. وكان هـذا ربـما طـال ربـع سـاعة. ولكن فـترات الراحـة كانت طويلـة، ثم قـصرت وتلاحقت هـذه الأزمـات عـلى قـصر مدتهـا. وضعفـت المقاومـة وزهـدت فيما وصـف لهـا مـن طعـام ودواء. فكانـت لا تقبـل مـن ذلك شـيئًا -إلا مرضـاة لابنهـا وتحية.

وكان صبـاح. فأومـأت إلى تحيـة أن تدنـو منهـا وقالـت لها همسًـا «يـا تحيـة أوصيك بأمـور. إني أعـرف أني هامة اليوم. فـلا صراخ ولا

عويـل. فإنـه أنكر ماسـك مسـمع حـي. ولا نسـاء يحتشـدون حولي، ويبكـين مخلصـات أو منافقات أو مجاملات. ولا سـواد تلبسـينه علي. ولا مأتـم يقـام. ولا جنـازة تشـيع. وإكـرام الميـت دفنه. فعجلـوا به. والله يبـارك لكـما في حياتكما»

وأمسـكت هنيهة تسـتريح ثم تبسـمت لهـا، في عينيهـا، وقبلت ما بينهـما. وفاضـت روحهـا في قبلتها، عـلى جبين تحية.

وخالـف إبراهيـم وصيـة أمـه -بكرهـه- فقـد كان يخشـى شـماتة بعـض مـن يعلم أنهـم يتنسـمون أخباره ويتمنـون له السـوء. وخاف أن يحملـوا العمـل بالوصية عـلى محمل الفقـر والعجز. فكلف نفسـه شـططًا. واحتفـل بدفـن أمـه وأقـام لهـا مأتمًـا «كنجـوم الليـل زهرًا» ولم يـذرف دمعـة واحـدة وهـم يدفنونهـا، ولم يقـل لدافنيهـا ترفقـوا بهـا وإن كان قـد هـم بذلـك، حـين رآهـم يحملونهـا بغـير احتفـال. وسـبقهم فانحـدر إلى القـبر فسـوى لهـا الـتراب بيديـه، وكاد يعفـر بـه وجهـه. وتلقـى تعزيـات المشـيعين -وهـو باسـم- وقلبـه يدمي، والدمـوع في حلقـه. ولكنـه عـلى فـرط تجلـده لم يسـتطيع البقـاء في البيـت، فقـد كان يـرى أمـه في كل مـكان، وكان كل شيء يذكـره بهـا. وانتابـه الأرق والوسـواس. وتلفـت أعصابـه حتـى صار يشـق عليـه أن ينـام وحـده على سريـره. واحتاج أن يشـعر بإنسـان آخر إلى جانبـه. وكان هـذا الاضطـراب يخجلـه، فتحامـل على نفسـه وأخفى ضعفـه. غـير أن تحيـة فطنت إلى مـا بـه. وكانت عينهـا عليـه، وقلبها معـه. فزعمـت أنهـا خائفـة فهـل يسـمح لهـا بالانتقـال إلى جانبـه في سريـره؟ ففعـل مرحبًـا مـسرورًا. ولم يفطـن إلى حيلتهـا. ووسـعه أن يغالـط نفسـه ويوهمهـا أنـه يحمـي امرأتـه ويرعاهـا ويحرسـها، وفـتر

إزعاج الهواجس، وضعف صوت الهواتف. ولكنه ظل لا يطيق البيت فتحول عنه إلى سواه وإن كان عزيزًا عليه حافلاً بالذكريات الحبيبة إليه.

وخالفت تحية الوصية أيضًا فلبست السواد. وكانت تعرف أن السواد والبياض سيان، وأن العبرة بما ينطوي عليه القلب. ولكنها خشيت سوء القالة والتأويل وإن كان لها من الشجاعة وقوة النفس ما يعينها على مخالفة العادات وإهمال التقاليد. ولكن إبراهيم كان يكره السواد ولا يطيق لونه، فانتظر حتى مضت الأربعون ثم قال لها «إننا لا نزور ولا نزاز -على الأقل الآن- فما في زيارة حزين منعةٌ ولا للناس في ذلك رغبة صادقة. فاخلعي هذا السواد فإنه يثقل على نفسي. وما أظن بك إلا أنه يثقل عليك أيضًا. إنه لون قابض يجثم على الصدر، ويشد الجلد، ويسقم القلب. وأنتِ تعرفين حبي لأمي. وأنا أعرف حبك لها. فهل تظنين أنها تطيب نفسًا -لو كانت دارية- بحالنا هذا وما نحن فيه؟».

فنضت السواد -على كره وإشفاق- ولغطت نساء بذلك فيما بينهن، ولكنها لم تجعل بالها إليهن، وإن كن يجدن الوسيلة إلى إبلاغها ما يقلن فيها. وكان عزاؤها حين يتأدى إليها هذا اللغط أن «هي تعرف. هي تعرف. لا سواها.»

وكان الانتقال إلى الحياة العادية بطيئًا بطبيعة الحال. ولكنهما عادا سيرتهما الأولى على الأيام. ولم ينسيا هذه الأم الكريمة -وأنى لهما أن يفعلا؟- ولكن حزنهما عليها تحول إلى اغتباط عجيب

بذكرها. فكانا يقضيان بعض الوقت -أحيانًا- وهما يتساقيان ذكرياتها، فينتشيان. وكانت تحية ربما توقفت وهي تلبس ثيابها استعدادًا للخروج معه إلى السينما أو لزيارة صديق أو قريب، وألقت إليه نظرة وديعة، فيها لين وحنين، فيفهم. ويذهب بها إلى قبر أمه فيقفان عليه لحظة -لا يقولان شيئًا ولا يقرآن حتى الفاتحة- ثم يعودان من حيث جاءا ويذهبان إلى حيث شاءا وقد استراحا وشعرا أنهما سراها.

وقال لها إبراهيم يومًا «هل تعرفين يا تحية أن أمي فترت إرادة الحياة في نفسها وضعف تعلقها بها لما اطمأنت إليك ووثقت أنك لي أم وزوجة وصديق في آن معًا؟»

فلم تدر أينبغي أن تسر أم تألم؟

ولكن السرور غلبها مع ذلك وقالت «لقد استراحت فقد كانت تكتم ألمها وتحاذر أن تبديه. وكنت أعرف ذلك. وأعرف أنه يسرها أن لا أظهر أني أعرف ما تكابد. لم أر أشجع منها ولا أرقى قلبًا -لو وزع حنو قلبها على الناس جميعًا لعادوا ملائكة رحمة».

ولكن إبراهيم خامره خاطر غريب جعل يقوى ويستبد بنفسه على الأيام. وكتن يدرك بعقله أن هذا من تلف أعصابه. ولكنه مع ذلك لم يستطع أن ينحّيه. ولم يفد في دفعه ما أحاطته به تحية من وسائل التسرية وأسباب التلهي. وكان منطق هذا الوسواس أعجب من الوسواس نفسه. فكان يقول لنفسه إنه كبر وأسنّ. أليست أُمه قد ماتت؟ والأمهات يمتن في كل سن، عن بنيهن،

في كل عمر. ولكن أمه هو قد ماتت وهي مقتنعة بأن به الآن غنى عنها. فما معني ذلك؟ أليس معناه أنه شب عن الطوق جدًا جدًا؟؟ ودخل مدخل الرجال الذين لا يحتاجون إلى تعهد ورعاية؟ فهو يدلف الآن إلى الشيخوخة. لقد كانت أمه تشعره في حياتها أنه ما زال حدثًا بل صبيًا صغيرًا. وكان هو يشعر بين يديها أن في وسعه -بل ما زال من حقه- أن يرتمي على صدرها ويرضع ثدييها. لا يصده عن ذلك شاربان ولحية، وإن كان يحلقها ولا يبقى عليها، فكان وجودها يفيض عليه شعورًا قويًا بالشباب والفتوة. وكان يحس أنه لن يكبر ما بقيت حية. فلما فقدها فقد هذا الشعور وأحس أنه ارتفع عن تلك السن التي كان لا يحس أنها تعلو في حياتها. كان فرعًا من أصل. فاجتُث الأصل واقتُلع. واقتطع الفرع وغرس فصار أصلاً له عروق وأطناب. وراح يشعر أنه من الأرض مباشرة وإليها نعم بقيت له تحية. وهي لا تني تبره وتسره، وتتعهده، وتحنو عليه. ولكنها تعتمد عليه أيضًا -تتكئ عليه كالعصا- تقوّي نفسها وتُصبيها بالاستمداد منه، كما كان هو يقوّى نفسه ويصبيها بالاستمداد من أمه. فصار هو لتحية ما كانت أمه له، متكأ، ومعتمدًا، ومعين قوة، وينبوع حرارة. وليس له هو أحد يمتح منه ...

وهو لم يرزق ولدًا. وليس هذا بمحزنه. ولكن أهو يا ترى عقم؟ وتمثلت له أرضان، واحدة خصيبة والأخرى جديبة. واحدة يرف نباتها ويربو ويهتز، ويوحي إلى النفس معنى القوة والنعمة والري. والأخرى خاوية موحشة توحي معنى الفناء والعبث - وتراءت لعينيه شجرتان واحدة عليها ثمرها ونوارها،

والأخرى لا ثمر عليها ولا زهر لها. وتساءل عن الشجرة اليابسة ما انتفاعها بالثمرة المضمرة التي لا تطرح؟ ثم أليس الإثمار تفتحا والعقم انسدادًا؟

ودار في نفسه ما هو أثقل وأبعد من الصحة. أحس أنه وثب فجأة من الطفولة التي أطالت أمه عهدها إلى الكهولة دفعة واحدة، وأن شبابه ذهب خطفًا، ومر كالقذيفة، فلم يتلبث ولم ينعم هو به وألفى نفسه يتساءل -وينكر من نفسه تساؤلها- ترى كيف طعم الشباب ...

وخطر له أن هذا جحود. وأن الإنسان لا يستطيع أن يدرك الحاضر إلا بعد أن يصبح ماضيًا، وأن من تضييع الحاضر والماضي جميعًا -وتقصير العمر أيضًا- أن يترك نفسه يفكر على هذا النحو وينكر شبابه، ويمحوه ويمسحه من لوح الذاكرة التي لا يحسن الإدراك والفهم إلا بها.

وانثنت خواطره إلى تحية. فحدث نفسه أن شباب المرء يشعر به المرء في سواه - على الأقل أكثر مما يشعر به في نفسه. وتساءل: كيف هذا...؟ أتراني خرفت ..؟ لا. ليس هذا من الخرف .. إن صدى شبابي في نفوس الناس .. أثره ووقعه .. إحساسهم به .. مجاوبتهم له .. هذا هو الذي يُشعر المرء بشبابه .. يعني ماذا ..؟ هل معنى هذا أن الشباب -أو الشعور به- إيحاء ..؟ وقال لنفسه. بعد إطراق طويل إنه يحسب أن الأمر كذلك إلى حد كبير .. كل شيء في هذه الدنيا يكاد يرجع في مرد أمره إلى الإيحاء .. لو اجتمع نفر واحد وألحوا عليه بالإيحاء الخلفي أو الظاهر لأقنعوه بما

شاءوا .. بأنه عاقل أو مجنون .. وشاب أو كهل، وظريف أو ثقيل ... ولا يمنع هذا أنه في الواقع غير ذلك .. نعم الشباب قوة ذاتية ولكن الشعور به رهن أيضًا بما يتلقى المرء من إيحاء الحياة ..

وكان يشعر ويدرك أن في تفكيره عوجًا - أو على الأقل يجب أن يعتقد ذلك. ولكنه لم يستطع أن يقيم العوج أو يثني خواطره ويصرفها إلى مجرى آخر. ووجد نفسه يتساءل عما توحي إليه حياته وعن نوع إيحائها أهو إيحاء بالشباب والقوة، أم بالكهولة ودلوف الشيخوخة وذهاب النعمة والغضوضة؟ - وتنهد أسفًا فليس في حياته غير تحية. وليست تحية بالامتحان الكافي أو المقنع .. واستهجن أن يجري هذا بخاطره. وعده ظلمًا لتحية، وقلة وفاء. وعالج أن يطرده ولكنه أبى إلا أن يستولى على نفسه حتى صارت المسألة عنده كيف يكون الامتحان.

وانتابه وسواس آخر جرته عليه النوراستينيا وكان قد أصيب بها في صباه وعانى تبريحها سنوات، وكان أخوف ما يخافه في هذا العهد الأول «الحمى» فكان لا يكاد يأكل شيئًا أو يتعب إلا توهم أنه يجد مسها وأنه سيحس بعد ذلك نفضها وإرعادها ثم تشتد عليه حرارتها وتدوم فيموت. وكان لا يريحه ويعفيه من هذه الأوهام إلا أن يشرب شيئًا يُسيل العرق فيهدأ ويطمئن. وكان في قرارة نفسه يعرف -كما يدرك بعقله- أن هذا كله من فعل الاعصاب وأنها أوهام في أوهام وأنه لا شيء به يشكوه ولا خوف عليه من حمى ناقص أو صالب -غير أن ما كان يعتريه كان يغلب إرادته فكان يحس هذا الخوف على حين يبقى عقله مطمئنًا. وكان ربما قعد على الطعام وهو سليم مبرّأ وفي ظنه أنه سيقش كل ما

على المائدة من شدة الرغبة فيه والشهوة له، فلا تكاد تمتلئ عينه منه حتى يرد يده عنه وينهض ويلبس الصوف -حتى في وقدة الصيف- ويلف عليه بطانية سميكة ويقول «اغلوا لي كراويا» فتتنهد أمه آسفة وتقوم إليه حتى تسرى عنه. ويا ويحه إذا رأى جنازة أو فاجأه عويل نسوة على ميت، أو صادفه رجل له وجه حانوتي، أو مر به غراب يخطف، أو وقعت عينه على بومة .. وأتعبه الأطباء ولم يجده ما كانوا يشيرون به عليه، وأحس أنه لو صدر عن رأيهم لطار عقله، فقد كانوا يأمرونه بالراحة والكف عن العمل وينصحون له باتقاء الاجهاد ويشيرون بالسكنى في مكان خلوي ساكن لا ضوضاء فيه. وكان هو يرى أن العمل تسلية وأن الراحة لا تلتمس لا بالكف عن العمل - بل بتنويعه والانتقال من شيء إلى شيء. وأن التعب يجعل نومه هادئًا عميقًا وأنه على حال لا يطيق السكون والجمود وأنه إذا كف عن العمل لم يسعه إلا أن يدير عينه في نفسه ويفكر في حاله فيزداد اضطرابًا. وكان يحدث أمه بهذا ويروي لها حواره مع الأطباء ويحاول أن يقنعها بصواب ما يذهب إليه وخطأ ما يشيرون به كأن اقتناعها بأحد الأمرين يرجح الكفة ويحسم النزاع! ففهمت أمه حقيقة الحالة وأدركت أنها هي التي بيدها علاجه. وكان رأيها أن الأطباء على حق وأن ابنها ايضًا مصيب. فقصدت إلى طبيبه زاعمة أنها هي المريضة وعادت وقد استقر رأيها على النهج الذي بدا لها انه أوفق. وكانت تعرف حب ابنها لها فأرادت أن تصرفه عن نفسه وتحول عنايته إليها. واختارت للسكنى بيتًا في ضاحية جميلة وله حديقة صغيرة، قائلة إن ضجات المدينة تحرمها الرقاد وتسلبها

الراحة، وأغرته بزراعة الأزهار والخضر، وصارت تخرج تتمشى فيرافقها من تلقاء نفسه وهي تبدي الزهد في ذلك وتدعي أنها تخشى عليه التعب. وما كان خروجها إلا من أجله لا من أجلها. وكانت تحرص على أن لا يدرك أنه هو المقصود بما تصنع وما تتكلف حتى لا يشعر أنه مريض يُعالج، وحتى تجئ الصحة التي تستفاد من هذه الحياة الجديدة بثمراتها المنشودة. ولاحظت أنه اتخذ عصا وأنه اعتاد أن يحملها معه كلما خرج ليرافقها، وكانت تراقبه خلسة فبدا لها أنه وهو يتوكأ على العصا يثني رأسه ويمشي مطرقًا متجمعًا، وخيل إليها أن هذه العصا توحي إليه شعورًا بالضعف وأنه يتخذ سمت الشيوخ الوقورين، فزعمت أن المشي يتعبها قليلا ورغبت في الاعتماد على العصا فناولها إياها فلم تدعها له بعد ذلك. وسرها أن رأته يمشي خفيفًا، وكان المشي والعمل في الحديقة مشغلة كافية، فقلت مطالعاته وطال نومه وصح بدنه وأذهلته العناية بأمه عن العناية بنفسه وأنسته معظم وساوسه فعاد إلى ما كان قد كاد يخرج عنه من حدود الصحة.

فلما ماتت عاودته الوساوس ولكن في صورة أخرى، فصار يخشى الموت بالسكتة أو الذبحة، وبتوهم أن قلبه ضعيف. أليست أمه قد أصيبت بالذبحة ..؟ ألم يكن قلها ضعفًا؟ أليس هو ابنها فهو لعله قد ورث بعض ضعفها.؟ وصار يزعجه ويؤرقه ويثير مخاوفه على نفسه أنه يسمع -حين يضع رأسه على الوسادة- دقات قلبه، فكان يؤثر النوم قاعدًا فيرص المخدرات وراه ظهره لتسنده، حتى إذا خفت صوت هذه الدقات وكاد النوم يغلبه انحدر عن المخدات برفق وحذر ونام كالعادة. وكثر تردده على

الأطباء ليقولوا له كيف حال قلبه ويبينوا له ما خطبه، فقال له صديق له منهم «يا سيدي إن قلبك سليم، وأنت رجل جسمه ليس بالضخم الهائل الانحناء فهو لا يكلف طلمبة قلبك -فما القلب إلا طلمبة- جهدًا ولا يتعبه ولا يرهقه. ولا أدعى أن لك قلب مصارع أو ملاكم أو رجل مغرّي بالرياضة البدنية، ولكنه كاف جدًا لجسمك وخليق أن يظل كافيًا زمنًا طويلاً. فلا تقلق عليه، وأعلم أن الذي بك هو تلف الأعصاب ليس إلا .. إن جسمك -وصدقني فقد درسته وأنا أعرف به منك- أقول إن جسمك عبارة عن شبكة معقدة من الأعصاب، وهي أعصاب حساسة مرهفة جدًا، وهذه الأعصاب في إطار من الجلد، تحمله عظام وقد وضع هنا قلب وهنا معدة وهنا كلية إلى آخر ذلك، وكل هذا سليم لا عيب فيه ولا مرض وإنما البلاء أعصابك هذه، فاعرف ذلك ورد كل ما تحس به وتقلق من جرائه إلى هذا واحمد الله واشكر نعمته فإن إخوانًا لك أصغر منك سنًا، وكانوا أصح منك أبدانًا، وقد أصيبوا بأمراض وبيلة، وأنت تجيئني متغير اللون مربد الوجه من الفزع وتقول لي .. قلبي مريض .. اسمع دقاته وأنا نائم .. يا أخي كل إنسان يستطيع أن يسمع دقات قلبه وهو راقد إذا جعل باله إليها، فاصنع معروفًا وأرح نفسك من هذه الوساوس وابتسم واضحك والعب وأدخل السرور على نفسك ولا تجالس من يقول لك إن الدنيا دار شقاء وإن الحياة ذميمة، فما أُعطينا الحياة لنشقى بها بل لنحياها على خير ما نستطيع وفي أسعد حالة تتيسر لنا .. ثم ما هذه الضجة بالله؟ ماذا تخاف؟ .. أو هو الموت؟ فإنا جميعًا أبناء الموت ولا مهرب لنا منه، ولو أعطيت

أقوى قلب في الدنيا لما منع ذلك أن تموت في يوم ما .. فلماذا نعنى أنفسنا بالموت طول حياتنا؟ وإنه لحال مقلوب .. في شبابك -لا تضحك فإنك ما زلت في شبابك- أقول في شبابك يسوّد الخوف من الموت عيشك، وتعلو سنك شيئًا فشيئًا وتدلف إلى الكهولة والشيخوخة فيكون من أثر هذا أن يوطّن نفسك ويروضك على المصير المحتوم، وفي الشيخوخة يشعر المرء بالبلادة كما طاف برأسه خاطر الموت -لأن الشيخوخة عبارة عن تبليد هو بمثابة الإعداد للموت- ففي صباك .. في نضارة عمرك .. في عهد القوة والفتوة واستطاعة الانتفاع بالحياة والاستمتاع بها، تنغص على نفسك هذه الحياة ونفسدها بالموت والفزع منه، ثم ينقص الشباب الذي لم تصنع به شيئًا ولم تركب به ما يُركب، وتجئ الشيخوخة -إذا مد الله في عمرك- فيفتر وقع الموت في نفسك ولا يعود له ذلك التنغيص القديم، ولكن ما الفائدة حينئذ؟ أليس هذا حالاً مقلوبًا؟ اذهب .. اذهب يا رجل واختش .. وانتفع بما لا يزال لك من شباب».

ولم تخل هذه «المحاضرة» من أثر، وصار تفكيره أن صدق الطبيب والله! ولقد أضعت شبابي بين الخوف والحذر! أنفقته في غير ما ينفق فيه. بددته تبديد سيفه أخرق .. لا في لذات ومتع بل في بلابل ووساوس وهواجس ما أنزل الله بها من سلطان .. ليت أن من الممكن الحجرَ على الشباب كالحجر على المال .. إذن لأمكن أن يحجر أحدهم -أمي مثلاً أو تحية زوجتي- على شبابي فيظل محفوظًا لي مصونًا حتى أرشد كما أكاد أرشد الآن .. حتى أفيق وأصحو من غاشية الأوهام وأستطيع أن أحسن الانتفاع

بهذا الشباب الذي يولي ولا يتمهل ... أو ليت العمر يُرفى كما يُرفى الثوب كلما بلي منه شيء .. ولكنه لا يرفى ولا سبيل إلى الحجر على الشباب وصونه من البعثرة والتبديد والإنفاق بخرق وحماقة .. فهل ضاعت الفرصة؟

وكر إلى رأس أمره من توهم الدلوف إلى الكهولة المنذرة بالعجز .. العجز عن ماذا؟ إنه يستطيع التفكير، وتفكيره أنضج وأسد وأحكم، ورأيه أقوم. فالعجز عن أي شيء إذن؟ ما هي هذه الحياة؟ أهي الفكر؟ العقل؟ إن كانت هذا فلا قيمة للشيخوخة المخوفة، ولعل بلوغها يجعل الحياة أتم وأكمل. أهي الإحساس؟ فأني أراه قد صار أعمق على الأيام. إن كل يوم يمضي يزيد ذخيرتي من الشعور والإحساس، ويتركني أقدر مما كنت على التلقي والاستجابة، لأني أزداد فهما ورحابة أفق، وحياتي تتسع وتعمق، كالماء المتحدر، تحدره يوسع مجراه ويعمقه. أهي القوة البدنية؟ إن القوة ليست مطلبًا بل وسيلة، وليست غاية بل أداة إلى غيرها. فما غيرها هذا؟ أهي القدرة على كسب الرزق؟ ما أسخف أن تكون الغاية من الحياة لقمة! أهي السعادة؟ وتذكر قول شاعر إن السعادة أشبه بعود من البرسيم معلق أمام عيني حمار. فهو لا يزال يعدو ليبلغه ولا يزداد دنوا منه ولا بعدًا. أهي القدرة على إسداء الخير إلى الجماعة؟ قد تكون هذه من غايات الإنسان المحس المدرك. بل هي ينبغي أن تكون من غاياته، ولكن ما الغاية التي ينشدها لنفسه فإن لنفسه عليه حقًا وما يستطيع أن ينسى هذه النفس أو حقها. وكاذب مغالط من يقول غير هذا .. فماذا يطلب بالقوة لنفسه؟ شيئًا من النعيم في الدنيا؟ نعيم العقل

والإحساس والجسم؟ وخطر له أنه يوشك أن يغالط نفسه، فما هذا العقل الذي يتميز من الجسم؟ وما هو هذا الإحساس الذي لا يتصل بالجسم؟ إن هذا وذاك بعض الجسم أو بعض ما يؤدي إليه تركيب الجسم وتكوينه على هذا النحو. فالمسألة أولاً وقبل كل شيء مسألة جسم. وكل ما نباهي به ونعتز، ثمرة هذا التكوين الجسماني الخاص فلا داعي للمغالطة وتقسيم الإنسان إلى جسم وعقل أو غير ذلك، فأنه لا يتجزأ. أليس كل شيء يذهب ويتعطل حين يتعطل ما يجعل الجسم كائنًا حيًا؟ لا يبقى عقل. ولا يبقى شعور. ولا يبقى أي شيء آخر حين تعدو المنية على هذا الجسم الذي نغالط أنفسنا باحتقاره. هل نقول إن العقل يبقى بآثاره؟ هذه مغالطة أخرى فما أمكن أن توجد هذه الآثار إلا لما كان الجسم موجودًا وحيًا. انتهينا إذن، والمسألة مسألة جسم .. وهذا الجسم له حقوق في السعادة الميسورة والنعيم المتاح. والعقل والشعور يشقيان إذا شقى هذا الجسم المزدرى .. وقال لنفسه لما انتهى إلى هذه النتيجة إن كل حالات الإنسان، كل ما يقوى عليه، وكل ما يكون منه ويصدر عنه، ونوعه، وصفته، وقسمته – كل ذلك رهن بحالة جسمه.

وحدث نفسه أن مغالطات الشباب لا محل لها في مثل سنه فإنه يوشك أن يخرج عن حد الشباب. وحينئذ تكون صحة الفهم بعد الأوان غصة ونقمة. ولحرى به أن يعجّل .. يعجل ..؟ يعجل بماذا؟ .. هذا هو السؤال.

وتردد في الإجابة الصريحة. فما بالسهل أن يخالف ما جرى عليه طول عمره – وأحس، وخاف، أنه صار حزمة من العادات

حتى في تفكيره .. وأسخطه هذا وأثار نقمته، وحنقه، وآلى ليفكن هذه الحزمة وليبعثرنها. فما يريد أن يكون كهذا الترام الذي لا يستطيع أن يخرج عن قضبانه ولا يصلح لشيء إذا هو خرج عنها، والأولى به أن يكون كالسيارة التي لا تتقيد بقضبان ولا تعجز عن الانثناء إلى أية ناحية والسير في أي اتجاه. وهبط قلبه إذا خطر له مفاجأة أن تحية إحدى عاداته. فهل يتحرر من هذه العادة أيضًا؟ ورأى نفسه يستعيذ بالله، وينثني فيقول إن التفكير على هذا النحو يقود إلى الشطط. وسأل نفسه -وخيل إليه وهو يفعل ذلك أنه انتزع من نفسه شخصًا آخر يضعه أمامه ويلقي عليه السؤال- هل يستطيع أن يتحمل خلو حياته من تحية؟ وقال .. الآن نريد الجواب الصريح.. وكان الجواب الذي دار في نفسه أنه لا يستطيع .. ثم قال إنه استطاع أن يحتمل حياته من غير أمه .. شق عليه ذلك أول الأمر، ولكن الإنسان رُزق الكفاية من المرونة، أي القدرة على التكيف. فهو يألف كل حال، وإن بدا في أول الأمر عسيرًا .. فهل معنى هذا أنه يقدر أن يألف خلو حياته من تحية؟ .. نعم ... وساءه هذا اللون من التفكير. فغضب وصاح بنفسه «ولكن ما الحاجة إلى اخراج تحية من دنياي؟» ثم إنه لا يشعر أن حبه لتحية قد ضعف. وإنما يشعر أن به فتورًا عنها كامرأة ليس إلا .. وليس هذا بذي قيمة، وهي عسى أن تكون مدركة لهذا، ولعل بها مثل فتوره. فإنها تتوخى أن تكون له صديقًا. وهو يحمد منها هذا. ويراه أطيب وأوفق. غير أن تحولها إلى صفة الصديقين أوجد بينهما نوعًا من الحياء. وأقام فواصل خفيّة يتطلب الأمر في بعض الأحيان تنحيتها. فهما يتكلفان جهدًا واضحًا حين يحاولان

أن يتجاوزا حد الصديقين ويعودا زوجين أي رجلاً وامرأة. وهذا عناء ... يزيده فتور الألفة .. ويبدو أحيانًا ممتعًا ولكنه على كل حال عناء .. وإذا طال الأمر على هذا النحو فأخلق بأن تكثر الحوائل بينهما لأن كل حال تتقرر بالعادة .. أفلا يمكن أن تُزال هذه الحوائل دفعة واحدة ليعودا كما كانا؟ ممكن ولا شك. ولكن ما القول في الفتور؟ ما خير أن تزال الحوائل مع بقاء هذا الفتور اللعين ؟

وصار الأمر فيما يرى معضلاً، وأعياه التماس الوسيلة لحل هذا الإشكال. وألفى نفسه يتساءل أليس على تحية -كما عليّ- أن تعالج حل العقدة؟ لماذا تتركني أنفرد وحدي دونها بمعاناة هذه المشقة والأمر مشترك بيني وبينها؟ وقال في جواب ذلك إنه هو الرجل، وإن المرأة ما زالت تنتظر أن يكون السعي من جانب الرجل ابتداء، لأنها مازالت أضعف منه وهو أقوى منها، وله السيادة والسلطان على الرغم من كل هذا التحرير الذي لم يحررها لأنه لم يكسبها إلى الآن ما ينقصها من أسباب القوة التي للرجل وقد يجيء زمن يتساويان فيه. وقد يجيء زمن تصبح فيه أقوى منه. وحينئذ لا تنتظر سعيه بل تسعى هي جهرة .. وإنها الآن لتسعى سعيها إلى ما تريد من الرجل، ولكن خفية وبخبث، وإنها لتبلغ من غايتها أكثر مما يبلغ الرجل من غاياته، بالحيلة التي تتقنها ولا يتقن الرجل مثلها، لأنه لشعوره بقوته وإربائها على قوة المرأة اعتاد ان يسير إلى غايته جهرة، ويمضي إلى ما يطلب غير متكلف هذا الضرب من المكر الذي تحسنه المرأة. وإنها لتغلبه وتسيطر عليه من حيث لا يشعر -وأحيانًا من حيث يشعر- ضعفًا منه

إذا كان ضعيفًا أو التذاذًا لرؤيتها تسيطر عليه وتتوهم أن لها هذه السيطرة فعلاً.

وعاد يقول لنفسه لا يا شيخ. والله إن المرأة المسكينة. وأطرق قليلاً ونفسه فياضة بالعطف على المرأة المظلومة، ثم وجد نفسه يثور على هذا الخاطر ويقول إن المرأة هي التي أوحت إلينا أنها ضعيفة مسكينة لتغرينا بإلقاء السلاح والكف عن الكفاح فتبلغ ما تريده، والله ما المسكين إلا الرجل المخدوع.

وضاق صدرًا بهذا كله فصاح ولكن ما دخل كل هذا في أمري وأمر تحية؟ لماذا أراني أذهب أتفلسف هذه الفلسفة العميقة كلما فكرت فيما ينبغي أن تكون عليه حياتي وكيف أنتفع بها؟ هذه أيضًا عادة. وهي أولى من سواها بالترك. فإن الذي يطول تفكيره على هذا النحو قلما يصنع شيئًا. وأنا أريد سيرة أسيرها، لا فلسفة أتفلسفها، فلنضع حدًا لهذا العبث.

ولم يضع هو الحد بإرادته -ولو ترك لها لما صنع شيئًا- وإنما تكلفت بهذا الأقدار.

الفصل الثالث

(١)

كان إبراهيم جالسًا إلى مكتبه وأمامه نافذة مفتوحة. وكان وجهه إلى النافذة ولكنه لا يرى، لفرط اشتغاله بما يجول في رأسه وذهوله به عن النظر. ثم كأنما تقشع غمام فأبصر فتاة هيفاء ممشوقة، متكئة على درابزين السلم الذي ينحدر إلى حديقة بيتها، وهي في منامة -بيجاما- من الحرير الأبيض. وكان بناء داره هو على مقربة من الطريق، والحديقة من الخلف. فترك ما كان مشغولاً به وتساءل من عسى تكون هذه الجارة؟ وقديمة هي يا ترى أم حديثة؟ إن لي هنا سنوات طويلات ومع ذلك لم تأخذ عيني إنسانًا يدخل أو يخرج من هذه الفيلا حتى لقد حسبتها مهجورة .. لم أر حتى بوابًا أو بستانيًا، ومع ذلك .. غريب هذا .. لقد تذكرت الآن فقط أن حديقتها غير مهملة .. وأثأر الفتاة بنظرة فخيل إليه أنها جميلة رشيقة، وأعجبه منها مرونة بينة على الرغم من سكون أوصالها وقلة حركتها. وراقه شعرها الذي تفرقه من الوسط وترسله على جانبي وجهها -مثل كريمة- وحدث نفسه أنها نحيفة .. نحيفة جدًا .. ولكن النحافة خير من إلحاح اللحم .. ونظرتها؟ .. كيف هي يا ترى؟ إن عينها تبدو له من هذا البعد حوراء واسعة، وفي

نظرتها لين وعذوبة .. فتنة .. وأحس من نفسه شوقًا إلى معرفتها. وضحك إذ خطر له أن هذا هو الحب من أول نظرة! ومط بوزه ساخرًا. فما ارتجت نفسه إلا مرة واحدة من قبل. وليس حبه لتحية بالفائز الثائر. وإنه لساكن جدًا، وأشبه بحب المرء لأخته. وقد نسى على كل حال مبلغ اضطرام شعوره في البدايات -إذا كان قد اضطرم- فهو لا يذكر ولا يعرف إلا أن تحية صديقته التي لا غنى به عنها.

وظل برهة طويلة هكذا ... لا يفعل شيئًا سوى أنه ينظر إلى الفتاة. والفتاة التي يتأملها قبالته متعمدة على الدرابزين. وقال لنفسه إن الجديد من الأمر يتطلب جديدًا من التصرف والتدبير. فماذا يصنع؟ لو كانت له خبرة بمثل هذه المواقف، أو سبق له بها عهد لقاس حاضره على ماضيه وأجراه في مجاريه. وغريب أن ينقضي شبابه وهو جاهل بهذه الشئون؟ ثم يشارف الكهولة ويقف على بابها ويأخذ الأبيض يختلط بالأسود، ويبدأ الزمن يرسم خطوطه فإذا هو يشتهي أن يفعل ما يفعل الشبان .. وارتفعت يده إلى وجهه متحسسة، وإلى شعر رأسه كأنما يحاول باللمس أن يعرف كيف وخط الشيب لمته. وهل هذا إيذان باندلاع نار المشيب ذات الوقود؟ وتلفت ولكن غرفة المكتب ليس بها مرآة .. وخطر له وهو يفعل ذلك أنه لا يذكر أنه عنى مرة بالنظر في المرآة.

وألقى القلم -فقد كان يكتب- واضطجع. وقال يناجي نفسه وهو يضحك ساخرًا «هل أصنع كما يصنعون في الروايات الكثيرة التي قرأتها؟ وعلى ذكر ذلك ماذا ترى أبطال هذه الروايات

يصنعـون في حـالات كهذه؟ لقـد نسـيت والله. فكأني مـا قرأتها، ولا وقعـت عينـي عليهـا. وهبني كنـت ذاكرًا فهـل يصح في دنيـا الحقيقة مـا يصـف الخيال».

واسـتطرد مـن هـذا إلى القول بـأن الروايات ليسـت .. ولا يمكن أن تكـون، خيـالاً بحتًـا، أو شـيئًا يخلقـه الإنسـان مـن لا شيء، ولا يحـور فيـه إلى أصـل مـن حقائـق الحيـاة. وأنكـر قـدرة الإنسـان على هـذا الخلـق مـن لا شيء. وذهـب إلى أن كل مـا يسـعه هـو التوليـد. وهـو أن يلفـق القصـة مـن جملـة مـا شـهد وجـرّب وسـمع، ويكوّن الشـخصيات مـن أشـتات مـا عـرف، ثـم تعمـل الفطنـة الطبيعيـة واللـب العبقـري فعلهـا بعد ذلـك. فليسـت القصص خيـالاً ولا ما تصفـه محـالاً .. وإذن يكون تقليدها ميسـورًا. أو دع كونه ميسـورًا أو غـير ميسـور وقـل إنـه لا يكون شـططًا.

ولم يـرض عـن هـذا الـرأي، فقـال: إن القصـص يعنـي فيهـا واضعهـا بترتيـب الأحـوال والمواقـف عـلى النحـو الـذي يؤثـره هو ويـراه أوفـق لغايتـه، ومـن عسـى يرتـب لي دنيـاي كما يرتـب مؤلف القصـة دنيـا أبطالـه؟.

أم أستشـير صديقًـا مجربًـا؟ ولكـن هـذا مخجـل.. ثـم إن العـبرة بنـوع اسـتجابة الفـرد لوقع الحياة في نفسـه هـو. والاسـتجابة تختلف باختـلاف الأفـراد. والذي يفعله إنسـان مـا، في موقف مـا، ليس من المحتـم -ولا مـن المعقـول- أن يفعلـه كل إنسـان في الموقـف عينـه. فالاستشـارات عبـث ولا خـير فيها ولا جـدوى منهـا إلا الفضيحة. الفضيحـة؟. نعـم أليـس فضيحـة أن تفتـح قلبـك لمخلـوق غـيرك

وتبيحه سرك وتكشف له عن ضعفك وتدع عينه ترى مقاتلك؟. ولكن هل معنى هذا أن الحب ضعف؟

وأسخطه هذا السؤال وقال إنه لا داعي له فما بلغ الأمر الحب .. أي حب يا هذا.؟ إن المسألة كلها أني أرى فتاة جميلة للمرة الأولى فمن الطبيعي أن أتعجب - وإذا كنت أشعر برغبة في معرفتها فليس هذا أيضًا بمستغرب.

وبدا له من الحزامة أن يصرف نفسه عن الفتاة. فأكب على عمله ساعة ثم نعض متثاقلاً. وحانت منه التفاتة إلى النافذة فلم ير الفتاة. فاستغرب. ثم ضحك. وقال متهكمًا أتراني كنت أتوقع أن تظل واقفة هنا إلى الأبد؟ أن تقضي حياتها كلها على رأس السلم كالتمثال.؟

وعالج أن يتشاغل في الأيام التالية ولكن الجهد الذي أحس أنه يتكلفه في هذه السبيل أقنعه بأنه معني بالفتاة، وإن ما يفعله ليس سوى مكابرة. وقال لنفسه إنه لا يرى بأسًا من الإقرار بأنه يؤثر أن يعرف الفتاة. بل أن معرفتها تكوزن أجلب لراحة نفسه. وقال يومًا لنفسه. وهو يناجيها على عادته. إن في هذا الحي بضع مئات أو بضعة آلاف من الناس لو رحلوا جميعًا لما حزنت عليهم ولا أسيت لهم، ولا استوحشت، ولا أحسست نقصًا أو خسارة، ولا أسفت على خلو الحي وخرابه، وقعودي فيه وحدي على تله. ولكني لو علمت أن هذه الفتاة جرح أصابعها أو أصابها زكام لبت كاسف البال -لا أقول مسهد القلب ولا أظن أن الدنيا تسود في عيني- ولكني كنت على التحقيق أشعر بأسف وعطف. ومع ذلك لا أعرفها.. ومن يدري؟ لعلها مزكومة .. مسكينة!. وصد

نفسه بجهد عن هذه السخافة، وأمر فنقل مكتبه إلى ركن آخر في الغرفة. ولكنه كان لا يفتأ ينهض ويدنو من النافذة ويحاول أن يرى من غير أن يظهر. فلا يبصر شيئًا. فيعود وينحط على الكرسي. ولا يستطيع أن يعود إلى العمل إلا بمشقة. واستغرب أن شبابيكها وأبوابها لا تكاد تفتح .. أو لا تفتح أبدًا فما رآها قط إلا موصده .. أو لا تخرج هذه الفتاة للنزهة أو السينما أو لزيارة؟ أو لا يزورها أحد؟ إنها لست من الطراز القديم فإن بنات الطراز القديم لا يلبسن المنامات.. وأدهشه أنها خرجت إلى الحديقة أو أطلت من رأس السلم وليس على بدنها سوى هذه المنامة فإنها ليست مما يليق أن تبرز فيه فتاة .. ولكنها صغيرة ولعلها لا تجد من يرشدها أو ينبهها. وعلى ذكر ذلك قال إنه يتكلم عنها كأنما ليس في البيت سواها وليس هذا بمقبول ... وخطرت له فكرة .. لماذا لا يزور هذا الجار؟ ولكن من المحتمل أن لا يكون في البيت رجل .. فلمن تكون الزيارة إذن؟ هل يسأل خادمًا..؟ واستحي أن يفعل. وماذا عسى أن يقول للخادم؟ وبماذا يسوغ السؤال؟ وسيبدو عليه التكلف ولا شك حين يلقي السؤال وهو يحاول أن يتظاهر بقلة الاكتراث. وفرك عينه بأصبعه وهو يدير هذا كله في نفسه. ثم أطبق جفونه وراح يحاول أن يحضر صورتها لذهنه كما بدت له على رأس السلم. فلم يجد عناءً في ذلك. فقد كانت الصورة مطبوعة على صدره. وذكر قول العقاد من قصيدة مرقصة له «ذهبي الشعر ساجي الطرف حلو اللفتات» وقال لنفسه أما أنها ذهبية الشعر فنعم. وأما سجو الطرف فأشهد أني ما رأيت أحلى من نظرتها ولا أسحر للب فكيف إذا ابتسمت

وأشرق وجهها الواضح الصبيح.؟ وأما حلاوة لفتاتها فلا شك فيها. ولكنه ينقصه أن يذوق هذه الحلاوة. وراح يقطع الغرفة الواسعة المكظوظة بالرفوف والكتب وغير ذلك. وحدثته نفسه أن يركب الحياة بما يركبها به الشاب. ثم ضحك وقال: لم يكن باقيًا إلا هذا. أمسح لها شعري بكفي. أو أعبث -على مرأى منها- بوردة أرجوانية (كتفاح خدها الأرجواني) أو أبعث إليها مع النسيم بقبلة؟ أو هو هو هو !

وقهقه وهو يتخيل نفسه فاعلاً ما يفعل الشبان والأحداث. ثم أشعل سيجارة وارتمى على مقعد وسأل نفسه أتراني أحتقر الشبان وأسخر مما يصنعون؟ من الذي عليه أن يتصدى للآخر؟ الرجل أم المرأة؟ كلاهما يفعل ذلك. فأما المرأة فتصديها مخايلة بالجمال وألوانه وبالزينة لزيادة فتنته. وبالشفوف والأفواف والأدهان والأصباغ والشعر المصفف أو المرجل. والمشية المغرية، والخطرة، وبما تعرض وما تستر إلى آخر ذلك. وأما الرجل فتصديه يكون بالإقدام لأنه هو القوي الذي عليه أن يطلب ويسعى ويخطو. فلا محل لتكلف الزراية على الشبان فانهم يصنعون ما يصنعون بوحي الفطرة والاصل الذي في الطباع. وهذا الاحتشام الذي اعتدته آفة -وليس نعمة- وما أراه -في قرارة نفسي- فضيلة .. لا لا، إنه ضعف. ولا أعني أن التوقح والتهجم فضيلة، أو حكمة، أو عمل مقبول. ولكني أعني أن المبالغة في الاحتشام والخروج به عن حده ضعف كالحياء. لأنه ينافي الطبيعة التي ينبغي أن يصدر عنها الرجل وهي طبيعية تفرض عليه السعي إلى المرأة، لا القعود حتى تتكلف المرأة السعي إليه.

وخرج عصر يوم مع تحية وإنه لواقف بالباب ينتظرها وإذا بجارته نازلة على درجات السلم وكانت في ثوب وردي اللون محبوك، مفصل على قدها تفصيلاً يجلو محاسنها كلها، ويعرض مفاتنها جميعًا. وكان نحرها يضيء -أي نعم يضيء- وثدياها الناهدان يبدوان من تحت الثوب بارزي الحلمتين ... ما أعظم فتنة هذا الجسم الغض الجديد الذي لم تبتذله السن ولم يرهله الزواج؟

وكان شعرها الوحف الأثيث اللامع الناعم مرخى. وكان الضوء المراق عليه يخيل للناظر إليه أن فيه نجومًا زاهرًا أبهى وأسنى من نجوم السماء. وكان وجهها الدقيق المعارف مشرق الديباجة -»يا ويل الرجال من هذا الفم الذي لم يعرف الأصباغ وهو مع ذلك يبدو لي كأنما غذته الورود!»- وقد لانت نظرتها ورقت. وبدا خداها كأنهما غلالتا وردة جورية. وتذكر قول الشاعر مهيار «آه على الرقة في خدودها لو أنها تسري إلى فؤادها» صحيح .. وليس من يدري كيف فؤاد هذه الفتاة الرائعة الرقيقة الخدين اللينة النظرة.. أرقيق هو يا ترى كخديها أم .. كلا .. لا يمكن أن يكون إلا رقيقًا.. ولكن لماذا؟. وأي منطف هذا؟. على كل حال لا يزال أوان السؤال بعيدًا.. بعيدًا جدًا.. وما حاجتي إلى الاطمئنان من هذه الناحية ولا صلة هناك ولا كلام ولا حتى إشارة؟ وستكون بعد ثانية على الباب وتخرج أمامي ولا تلقى إلى نظرة أو إيماءة ... وأقبلت تحية فبادرها بهذا السؤال «من تكون هذه البنت الحلوة؟» سألها عن ذلك بغير تفكير أو تحرز أو إشفاق من أن تسئ امرأته الظن! فنظرت تحية إليها ثم إليه وقالت «ألا

تعرفها؟ إنها عايدة .... تعالي يا عايدة .. هذا زوجي يسألني من تكون هذه البنت الحلوة .. لن نعرفك بعد الآن إلا بهذا الوصف .. من اليوم فصاعدًا سيكون اسمك على لساني البنت الحلوة. وقد صدق».

فخجلت عايدة واتقدت وجنتاها. واندلعت النار في وجه إبراهيم وقال لامرأته بصوت يكاد يكون همسًا:

«إنك خبيثة .. ما كان ينبغي أن تفضحيني هكذا.»

قالت «لا تخف .. فإن ثناءك ثرها ألا يسرك يا عايدة ثناءه»

فغلها الحياء والخفر. وقالت تحية «إن زوجي ذو عين فاحصة وذوق سليم، أليس كذلك؟»

فوجد إبراهيم لسانه وأراد أن يزيل أثر هذه المحادثة فقال «كل ما يشهد لي بذلك أني أخترتكِ».

والتفتت تحية إلى عايدة وسألتها: «إلى أين؟» قالت «والله مترددة بين السينما والـ....»

فقالت تحية مقاطعة «تعالي إذن معنا. لا تخجلي. فإن بعلي هذا رجل طيب. وثقي أنه أليف لا يعض»

فضحكتا وابتسم، وشكر لتحية في قلبه حكمتها ورحابة صدرها وعقلها.

وذهبوا جميعًا إلى السينما لأن عايدة ذكرتها. وشهدوا رواية فيها مهندس ناهز الأربعين يقول لفتاة صغيرة السن إن عليها أن

تخشى أمثاله من الكبار المجربين فإن لهم لحيلاً وخبرة باقتناص قلوب العذارى، وليس للشبان مثل خبراتهم أو قدرتهم على الاحتيال فهم -أي الكبار المجربون- أخطر من الشبان على الفتيات الغريرات.

ومال على عايدة وقال «هذا صحيح. لقد أخلص الرجل لها النصح»

فقالت عايدة «ألك خبرة مثله؟» فأحرجه هذا السؤال. ولم يدر كيف يجيب. لأنه لو قال إنه لا خبرة له صار في عينيها غريرًا وفقد مزية السن. وإن قال إنه ذو خبرة كان هذا اعترافًا غير لائق. فآثر أن يكتفي بنظرة، فألقها إليها كأنما يريد أن يقول «يا خبيثة» فابتسمت وثنت رأسها ناظر إلى حجرها. واستغرب هو جرأتها على هذا السؤال. وكبر في وهمه أنه ممن تخلفوا عن ركب الحياة. فلعل الجيل الجديد لا يرى في السؤال ما يعد اجتراء غير لائق.

وأبت تحية إلا أن تتعشى عايدة معهما «لتتوثق الصلة بينك وبين زوجي» كما قالت فرفعت هذه البساطة الكلفة. وأحس الجميع أنهم من أسرة واحدة، وأن معرفتهم ترجع إلى عهد بعيد. وعادت عايدة تسأل «هل صحيح ما قاله هذا المهندس في الرواية من أن الكبار أخطر على الفتيات من الشبان؟» فلم يرتح إلى هذه الكرة إلى الموضوع، وثقلت عليه. وآلى ليحرجنها كما تحرجه فقال «قولي لنا أنت أولاً ما رأيك؟» فقالت ببساطة «أنا لا أحب الشبان» ثم نظرت إليه وسألته «وما رأيك أنت؟» قال «رأيي أن الكبار يمكن أن يقال على العموم إنهم أعقل وأرشد، وأقل اندفاعًا،

وآمن على الفتيات» والتفتت تحية إليه وقالت «أليس صحيحًا أن الكبار حين يعشقون يندبون ويغرقون إلى الآذان؟» فقال «ليس هناك ضابط لهذه الأمور. ولا يمكن استخلاص قاعدة أو حكم عام. فمن الشبان المندفع، والذي يضبط نفسه ويكبحها. ومن الشيوخ أو على الأصح الكبار، الذي يفقد إرادته والذي يحتفظ بها. والدنيا تحتاج إلى كل صنوف الناس لتكون دنيا .. كلا .. ليس هناك حكم عام ولا سبيل إلى الجزم بشيء.»

وخيل إليه أن هذه الفتاة أجرأ من رأى في حياته فقد عادت تسأله «ومن أي الفريقين أنت؟ المندفع أم الحكيم؟»

فابتسم ابتسامة متكلفة لم تخف سخطه على السؤال والسائلة وقال «هذا تُسأل عنه تحية» فعادت تقول «ألا تعرف نفسك؟» قال «لو عرفت نفسي لكنت أحكم الحكماء» واغتنم الفرصة فاستطرد وقال «إن الإنسان كثيرًا ما يتوهم أنه يعرف نفسه ولكن هذا خطأ أو غرور. لأنه لا يستطيع أن يعرف كيف يكون سلوكه في المواقف التي تعرض له وأنا لم أجرب كل حالة ممكنة، حتى أستطيع أن أعرف كيف يكون سلوكي في كل موقف محتمل. ثم إن الإنسان يتغير، والذي يراه اليوم صوابًا قد يراه في غده خطأ. والذي كان يعده بالأمس فضيلة، قد يعده يوم آخر ضعفًا أو قلة حيلة، وكل إنسان في الحقيقة عبارة عن عدة أناس يجئ بعضها في أثر بعض. رأيه يتغير، وإحساسه يختلف، كما يتغير جسمه سنة بعد سنة، ويختلف مظهره على كر الأعوام. وقد يفعل المرء الشيء اليوم فإذا كان الغد فعل غيره لأن كل شيء تغير – هو والدنيا.

(٢)

ورأت تحية من حال زوجها -على الرغم من تحرزه- أنه يصغو بوده إلى عايدة، فأقلقها ما يقلق المرأة، ولكن معرفتها وخبرتها به وثقتها أنه لا يندفع ولا يتورط، ويقينها أن حدة شعوره بذاته وشدة تحفظه بكرامته، تساعده على تغليب إرادته وعقله على هواه - كل هذا طمأنها وأقنعها بأن لا خوف عليه من عايدة أو سواها، وأن الحزامة أن لا تعترض سبيله، أو تحاول أن تأخذ عليه مُتوجهه. فقد كان فيه عناد وجموح، لا يخفيهما أنه لين سلس القياد. فما قال لها قط «لا» ولكنها ما استطاعت في حياتها الطويلة معه أن تفعل شيئًا على خلاف رأيه، ولا نازعتها نفسها أن تخالفه. وذكرت قوله لها مرات عديدة، بعبارات شتى، إن الناس في ركب الحياة رفقاء إلى حين، فليس أسخف من أن يقضوا الفترة القصيرة المتاحة لهم في خلاف ونزاع، وشجار ونقار. والمثل الحكيم يقول اختر الرفيق قبل الطريق. ولست أعلم أن للمرء اختيارًا. وأنا أشك في حريته في ذلك. ولكن المثل مع ذلك يعجبني - والرفيق لا يختار ويتخذ للتنغيص والتغثية. وسواء أكان أم لم يكن للمرء اختيار، فإن الحكمة تقتضي أن يحاول الرفقاء في هذه الرحلة أن

يجعلوها مرضية على قدر ما يتسنى لهم ذلك، وإلا كانوا قليلي العقل. وما خلقت الدنيا لواحد دون واحد. ولا أعطيت الحياة لمخلوق دون مخلوق، والخلق جميعًا سواء في الحقوق والواجبات. أفليس الأولى إذن أن يتحروا التعاون ويجروا على سنة التسامح؟ ولفظ التسامح هنا في غير موضعه، وخير من ذلك أن نقول الاعتراف بحق كل امرئ في عمل ما لا يضير غيره».

وكان منحاه الخاص في التفكير، وما تعرفه بالتجربة من حرصه على احترام حق غيره، كاحترامه حق نفسه، واتقائه أن يسيء إلى أحد، وقدرته على وضع نفسه في موضع سواه ليكون أشد إنصافًا له - كان هذا هو الذي طمأنها، فأقدمت غير مترددة على توثيق صلته بعايدة وإن كانت أصبى منها وآنق حسنًا وأنضر شبابًا وأكثر رونقًا. وناهيك بقلب امرأة تحتمل الأقدام على ما قد يؤدي إلى تضحية. وكان شعور خفي في قرارة نفسها يقول لها إن زوجها سيعرف لها هذا الجميل ويحفظه، فأنها تعده شكورًا غير جحود، ومنصفًا لا يظلم ولا يغبن. وسرها من نفسها أنها قصت عليه من أخبار عايدة ما هو خليق أن يعطف قلبه عليها. وكانت في هذا حكيمة وهي لا تدري. فقد جعلت علاقته بها علاقة عطف ورحمة. وحمتها أن تكون علاقة حب وعشق - فحكت له أن أباها كان رجلاً حسن الحال، ميسور الرزق، ولكنه كان متلافًا. فلما قضى نحبه فجأة لم يترك شيئًا. وكان من حسن الحظ أن أمها استطاعت أن تحتفظ ببضعة فدادين قليلة لا تزيد على العشرة، وبنصف بيت في حي وطني لا يغل أكثر من ثلاثة جنيهات، وبهذه الدار المقابلة لدارهما. ولعايدة أخت كبرى

متزوجة، مرفهة، ولكنها تحاول أن تغري أمها أن تبيعها الأرض والعقار. وعايدة تقاوم ذلك وتجاهد أن تصرف أمها عنه، ليبقى لها شيء تعتمد عليه في حياتها. وقد أورث عايدة هذا الاضطراب تلفًا في الأعصاب وأصيبت إحدى عينيها بما كاد يذهب ببصرها، لولا لطف الله. وقد صنع لها الطبيب بعد شفائها نظارة أوصاها أن لا تنزعها، ولا تضعها عن عينها. ولكنها تخجل وتتوهم أن اتخاذ النظارة يسلكها مع العميان، فيزداد ما تتوهمه من زهد الرجال فيها، وانصرافهم عنها. وكأنما هذا لم يكن كافيًا، فاعتراها وسواس يخيل إليها أنها مريضة الصدر، وأنها ستصاب لا محالة بذات الرئة. فهي لا تزال تعرض نفسها على الأطباء، ولا تنفك كل بضعة شهور تصور صدرها بالأشعة لتطمئن، فلا تطمئن، ولا تزول الهواجس. وقد قل أكلها، وطال سهدها وتعب قلبها قليلاً، والأزمات العصبية تنتابها وتتركها مهدمة محطمة.

على أن تحية عنيت أيضًا بأن تحط زوجها بغير عايدة من الفتيات الحسان من معارفها حتى لا تصبح عايدة عادة له ولتدخل السرور على نفسه. وتضيء وجوه العيش في عينه، وتنشر البشر والبشاشة في جو حياته. غير أنه كان يؤثر عايدة على الأخريات، ويختصها بالميل والود. فلما رأت تحية ذلك كفت عن «التوسع» وتركته معها على ما يحب من الحال. وكان هو في أول الأمر يقنع بالحديث والنظر. وقلما كانت تقول شيئًا أو تزيد على السؤال، فيروح يتدفق، ويسره منها حسن إصغائها وإن كان يسخطه أنها شديدة الاحترام له. حتى لبلغ من ذلك أنها ما كانت تجرؤ أن تدعوه باسمه فكانت تدعوه «الأستاذ» وتستغنى

بذلك عن الأسماء والألقاب. وكان هو يكره ذلك ويشعر أنه يجعل بينهما جونًا يتعاظم المجتاز، أو على الأقل يقيم بينهما حدودًا من التكلف لا داعي لها، ولا خير فيها. فما كان مطلبه «الاحترام» ولا كان ينقصه أن يعرف أن له في النفوس مهابة. وإنما كان يريد -وهو يخاطبها- أن ينسى أن بينه وبينهما مسافة من العمر تزيد على عشرين عامًا.

وكان حديثهما -من ناحيتها- عبارة عن محاولة لجعله «شخصيًا» ومن ناحيته هو عبارة عن إصرار على إبقائه «نظريًا» عامًا لا يدور على شخص بعينه. فكانت هي تلقى عليه السؤال من شأنه أن يغريه بالتحدث عن نفسه، فيصرفه هو إلى العموم دون الخصوص، ويحيله أشبه بالدرس والمحاضرة. ويراها تتابعه فيجد لذة في رفعها إليه، وتقريبها منه، وترحيب أفقها وتوسيع دائرة نظرها. ويشعر أن هذا خليق أن يساعدها على تخفيف ما تعاني. وكان أشد ما يبدو له أنها تعانيه الكبت الشديد، والحرمان من كل ما عسى أن يكون فيه إرضاء للأنوثة، وتلطيف من حدة ثورتها الطبيعية، وقلة الثقة بنفسها. وكان يخشى عليها عاقبة هذا. ويرد إليه كل ما يرى من يأسها من الخير في الدنيا. وقد قالت له مرة وكان يحاول أن يغريها بالأمل «لا فائدة فأني واثقة أني سأموت قبل أن تلوح أية بارقة من الأمل فيما تصفه لي، وتمنيني به.» فقال لها «اسمعي يا عايدة. إننا أُعطينا الحياة ولم نُعطها بشرط. وقد أُعطيناها لنحياها لا لنقطع نفوسنا حسرات على أنها لا محالة زائلة -ونسى وهو يقول لها ذلك أنه هو نفسه موسوس- ولا قيمة لطول العمر أو قصره. فإن العمر لا يقاس بعدد السنين، بل

بمبلغ ما يعمره من الإحساس والفكر. ورب معمر أربت سنة على المائة وكأنه مات يوم ولد. ورب فتى في العشرين قد حفلت حياته بما يجعلها أطول في الحقيقة، وفي إحساسه هو نفسه، من عمر نوح الذي يقال إنه ناهز الألف. وأنت بنت مرهفة الحس والشعور قوية الإدراك. فأنت تعيشين في كل دقيقة أطول مما يعيش غيرك في أعوام. وأنت الآن في العشرين من عمرك الغض، ولكنك في الحقيقة أسن من امرأة في الأربعين. ثم لماذا تفكرين في الموت ..؟» وأحس وهو يسألها كأنما الخطاب موجه إلى نفسه «إن المرء يعيش ما يعيش -زمنًا طويلاً أو قصيرًا- ثم يوافيه الأجل المحتوم. وما دام على ظهر الأرض فهو حي. وهذا كل ما ينبغي أن يعينه. فإذا مات -كما لابد أن يحدث- فإنه يصبح غير دار، فيستوي حينئذ أن يكون عاش عشرين عامًا أو عمر ألفًا» فقالت «هذا صحيح، ولكن ما فائدة الحياة؟ ما هو الخير الذي نصيبه فيها؟» فقال «آه.. هذا سؤال من العبث أن نتلمس له جوابًا، فالحياة لا يسأل فيها عن الفائدة منها. وإنما علينا أن نحياها على خير وجه وأصلحه. ثم إنك أنتِ الملومة إذا كنت لا تصبين منها خيرًا .. الدنيا كلها أمامك فماذا يمنعك أن تنشدي هذا الخير الذي تسألين عنه؟ تمسكين عن التماس الخير ونشدانه والسعي إليه ثم تروحين تلومين الحياة وتسخطين على الدنيا؟ هل هذا عدل؟ تقعدين وفمك مفتوح منتظرة أن تحشوه لك الملائكة سكرًا، ثم تشكين إذا حشته الأيام ترابًا؟ لا يا سيدتي لومي نفسك.»

فسألته «ولكن ماذا تصنع فتاة مثلي؟ ما حيلتها؟»

فسألها: «ماذا تشعرين أن بك حاجة إليه وأنه ينقصك وأنك حُرمته؟ لا تجيبي .. إنما أسأل لأقول إن كل شيء يجيء في أوانه»

قالت «أو تعرف إذن ما ينقصني؟»

قال «أستطيع أن أخمن فإن الطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ولا تتفاوت، وحكمها معروف لا شك فيه، وفي وسع الإنسان دائمًا بتحويل إحساسه إلى مجار أخرى غير التي يحس أنه يتجه إليها، أن يخفف من ثقل وطأته وينتفع بهذا التحويل.. أنا مثلاً .. ولست أعني شخصي وإنما أضرب مثلاً .. أحس ضغط إحساس معين وأشعر أن إرضاءه وإراحة نفسي من ثقله عسير أو غير مرغوب فيه فأعكف على كتاب أقرأه أو أخرج فأتمشى مدة كافية، وأحول هذا الإحساس الضاغط عرقًا يتصبب فأستريح وأعود فأنام ملء جفوني».

فعادت تسأله «ولكن لماذا هذا التكلف إذا كان الإحساس طبيعيًا؟»

فقال: «عقلي يقول لي إنه لا داعي للتكلف. وإن إرضاء الإحساس الطبيعي أولى، ولا عيب فيه، ولا ضير منه. ولكن العقل ليس هو وحده المسيطر على حياتنا، فلا تحسبي أنكِ الوحيدة التي تعيش في أسر تتمردين عليه، وتسودين عيشك بالضجر منه.»

وكان أكثر ما يجتمعان في البيت، وتحية معهما تسمع وتتركهما لحظة وتعود إليهما، وقلما تشترك في حوارها. وكان يحس أن هذه الفتاة محتاجة للرياضة، وأن انتقالها من بيتها إلى بيته ساعة لا يغير

مـن حالهـا، ولا يجـدّ لهـا شـيئًا، وأن كل ما يحدثهـا به ويشرحـه لها لا جـدوى منـه، ولا أثر إلا زيادة الشـعور بالكبت، وأن المسـألة مسـألة جسـم، يجـب الترفيـه عنـه، وإراحـة أعصابـه. فقـال لتحية إنـه يرى أن تخـرج بهـا من حـين إلى حين للتنـزه. فقالـت تحية «يا عبيـط. ليس للمـرأة في المـرأة لـذة. أخرج أنـت معها» قـال «عـلى شرط أن تكوني معنـا» قالـت: «لا تكن سـخيفًا .. إن وجـودي يشـعرها بالقيد وأنت تريـد لهـا الانطـلاق وإنـك لعـلى حـق» قـال «ولكـن الانطـلاق لا يسـتدعي أن لا تكوني معنـا» قالت «أنا واثقة ولسـت خائفة. فاذهب أنـت معهـا» وأصرت فحمـل عايـدة إلى حيـث الهواء طلـق، والحرية تامـة في الجـري والنـط والضحك. وكان ربـما حمل معه طعامًـا خفيفًا ممـا أعـدت تحيـة، فكانـت عايـدة تعـود مـن هـذه الرحـلات متقـدة الوجنتـين ولكنهـا متعبة. وحـدث مـرة أن كانا يتقاذفـان كرة صغيرة يرميهـا فتلقفهـا. فدنـت منـه والكـرة في كفهـا وقلبهـا يخفـق خفقًـا شـديدًا، وعلى فمهـا ابتسـامة، وألقت نفسـها على صـدره، واراحت كفيهـا عـلى كتفيـه، فوقف برهـة لا ينطق كلمة، ولا يسـألها شـيئًا، أو يحـاول أن يتبـين حالهـا. وتركهـا عـلى صـدره، ولم يكن يسـعه إلا أن يحـس بثدييهـا، فثنـى عينـه إلى شـعرها الناعـم المرسـل، وقـد رقدت خصلـة عـلى ثوبه تحت أنفـة، ولكنـه طرد هـذه الخواطر ورفـع عينيه إلى السـماء. وأفاقـت عايـدة وصعـدت عينها إليـه وهي لا تـزال على صـدره وقالـت لـه بصـوت خفيـض كالهمـس «بُسـني يـا أسـتاذ» فتبسـم وقـد دار رأسـه ومـال عليهـا فقبـل جبينهـا فرفعـت نفسـها عنـه وقالـت: «لكأنـك أبي .. لا. لسـت أبي .. لم أعـد أطيـق صـبرًا .. أنـت حبيبـي. نعـم .. لا تفتـح فمـك هكـذا كأني رميتـك بحجـر

.. وما حيلتي؟ .. كن منصفًا .. ألقاك كل يوم وأسمع حديثك وأشعر بقربك، ولا أرى أو أسمع سواك وأحس عطفك .. بل أعلم أنك ترتاح إلى وجودي وترغب فيه، ومع ذلك أحس أنك بعيد كنجوم السماء .. ألست معذورة؟ لقد علمتني أشياء، وإنك لمسئول عني، ولا أمل لي في الحياة، ليس لي غيرك. أنت عزائي فيها».

فدنا منها وتناول كفها ومضى بها إلى حجرة كبيرة، وخلع سترته وطرحها عليه لجلوسهما وقال: «اسمعي يا عايدة. إنك عزيزة عليّ وأثيرة عندي، ولكن الحب شيء آخر. لا ينبغي أن يكون بيننا هذا. إنه يفسد كل شيء عليّ وعليك .. أنتِ فتاة صغيرة غريرة ومستقبلك كله أمامك. وأنا رجل كهل قد خلفت صباي ورائي. ثم إن لي زوجة تحبك وتأتمنك على زوجها كما تأتمني عليكِ. ثم ماذا يكون مصير الحب إذا قامت عليه علاقتنا؟ .. لا مصير إلا الاضطراب والآلام. واسمحي أن أقول إني لا أصدق أن فتاة مثلك يمكن أن تحب رجلاً مثلي. كلا. ليس هذا حبًا وإنما هو فورة إحساس. إنها حركة نفس مكبوتة ليس إلا .. نشوة عارضة طارئة تحسينها وتغلطين وتتوهمينها حبًا، كما يشرب الرجل كأسًا من خمر فيبذل وهو البخيل، ويشعر بالقوة وهو الضعيف، ويهيج وهو الساكن الرزين، ويغضب وهو الحليم الرضيّ هي نشوة لا أكثر ولا أقل. ثقي بذلك. وستفيقين منها وتعرفين حينئذ أني على صواب وتشكرين لي أني حميتك من نفسك».

فضحكت ضحكة مره وقالت: «ولكن لماذا تريد أن تحميني من نفسي وأنا لا أريد هذا الحماية؟ أليس لي حق في نعيم الحياة؟

ألست مخلوقة كغيري؟ أليس لي قلب وشعور؟ .. لماذا يجب أن أعيش محرومة مزادة عن نعم العيش ومتع الحياة ..»

قال: «لست محرومة فإن هذا من الوهم .. أنتِ تنعمين بالكثير الذي لا تحفلين به ولا تجعلين بالك إليه، والذي ترين نفسك قد حُرمته سيجيئ أوانه كما قلت لك من قبل .. كل مخلوق يطول به انتظار ما ينشد.»

قالت: «ما أملي؟ .. الزواج على ما أظن؟ .. ومن يتزوجني؟ .. ولماذا يتزوجني أحد؟ جمالي؟ مالي؟ مقامي؟ أسرتي العظيمة؟ لا يا سيدي. أني أعرف أني قصيرة العمر. وقد فتحت لي عيني فأشكرك، ولكنك مطالب الآن بأن تغمض لي عيني كما كانت أو تسمح لي بأن أحبك.»

فلاطفها ولاينها وسايرها قليلاً ليعدل بها إلى الطريق الأقوم فما ازدادت على ذلك إلا صلابة وعنادًا. وأنذرته أنها جنت وأنها إذا ظل على تمنعه ستلقي بنفسها على أول رجل تصادفه، ففزع، فقد رأى من لهجتها الجادة ما أخافه وأقنعه أنها لا تمزح، وأيقن أن هذا الجنون ثمرة الكبت الطويل، وحار ماذا يصنع، واستمهلها دقائق ليفكر. فضحكت وتهكمت وقالت: «لابد أن يكون كل شيء بالمنطق .. كل شيء لابد أن يوزن ويقاس ..» ثم قالت جادة: «الآن اقتنعت أنك لا تستطيع أن تحب امرأة. إنك آلة مفكرة لا إنسان من دم ولحم». وثارت حتى لأشفق عليها وعالجها حتى فاءت إلى السكينة.

وخطر له أنه ليس من المروءة -ولا من العدل- أن يمضي في المقاومة فإنها تكون صدمة مخوفة العاقبة. وبدا له أن من الحكمة أن يأخذها باللين ولا بأس من قبلة أو قبلات. وفي وسعه أن يسعدها بالقليل الذي لا ضير منه وفيه راحتها وسكونها. وحدث نفسه أن من حق هذه الفتاة أن تسعد قليلاً، وغالط نفسه فقال إن جهده معها سيكون جهد الطبيب المعالج ولكن ماذا يقول لتحية؟ .. يكتم؟. فبأي وجه يلقها وهو يطوي عنها هذا السر؟ يكذب؟ .. إن الكذب نقص في الرجولة وغض من المروءة .. يصارحها؟. ولكن كيف يصارحها؟ وكيف يرجو أن تطيق هذا وتصبر عليه؟. إنها واسعة الصدر كريمة النفس ولكن هذا ما توصد دونه أبواب الغفران.. وباي شيء يعتذر لها؟ يلقي التبعة على عايدة ويزعم أنها التي أغرته وأبت إلا هذا وأنها مريضة ولابد من مسايرتها؟ .. ما شاء الله! ما أكبر هذه الرجولة!. ثم إن هذا ليس بصحيح.. نعم إنها فاجأته بهذا ولكن أصح من ذلك أنه هو الذي رغب في صحبتها وهو الذي جرها إلى هذا الموقف، وكانت قبل ذلك بعيدة غير معنية به فلم يزل بها حتى صار (عادة) لها. وشعر في قرارة نفسه أن حب هذه الفتاة يسره ويغره، ومن هذا الذي لا يسره أن تحبه فتاة جميلة كهذه؟. ولكن هل هي تحبه؟.. أليست لعلها مخدوعة؟. ألا يمكن أن يكون الأمر كما وصفه لها نشوة طارئة ليس إلا؟. ولكنه هو على كل حال مصدر النشوة وباعثها.. أتراها لو كانت تعرف غيره من الرجال أكانت تخصه بهذا الحب كائنة ما كانت حقيقته؟ .. وتحية؟ .. أليست قد شجعته ويسرت له الاتصال بعايدة؟ وما معنى هذا؟ هل أريد

أن أحملها التبعة؟. هل أعد حرصها على سروري ذنبًا لها، وثقتها بي واطمئنانها إلى عقلي خطأ منها؟.

كان هذا كله وما يشبهه يدور بنفسه وهو يحنو على عايدة. ويلثم فمها وهي متعلقة برقبته كأنما تريد أن تخلعها، أو تخاف أن يطير من يديها. وأحس بحرارة الصبي في شفتيها، وحدث نفسه أن هذه الحرارة العجيبة لا يجدها -الآن- من شفتي تحية. واستهجن هذه المقارنة، وأنف أن يجعل تحية موضعًا لها ثم عاد عقله يقول له ولم لا؟. أين الزراية بتحية في هذه المقارنة؟ ولماذا هذا الغض من عايدة؟ إنها لست سوقية، ولقد قبلت تحية قبلت الحب وقبلتني مثلها قبل زواجنًا فما الفرق؟. ولكني تزوجت تحية ولست أنوي -ولا عايدة تنتظر- أن أتزوجها. هذا هو الفرق.

(٣)

وكان يتعجب لعايدة وزهدها في الزواج، ويتساءل «أتراها خاب لها أمل؟» وقد عرف من تحية أن هذه الفتاة شقية بأختها. وأدرك أن أمها ضعيفة. وأن قيادها سلس في يد بنتها الكبرى، وأنها لعلها تحب عايدة كحبها لتلك. ولكن تلك لها عليها سلطان ليس لعايدة. غير أن هذا ليس حقيقًا أن ينفر عايدة من الزواج. وإن إحساسها الجنسي لقوي. وإنه ليبدو أقوى فيها منه في الفتيات الأخريات المطمئنات.

وخطر له أن لعل قلة اطمئنانها وكثرة قلقها واضطرابها يثيران إحساسها الجنسي، أو يخيلان إليها أن إرضاءه -على نحو ما- هو علاجها مما تكابد، ولكن ماذا تكابد غير ذلك؟

وذكرت مرة ابن عم لها بلهجة واشية بالمرارة، فسألها «لم أكن أعلم أن لك ابن عم؟ فأين هو؟»

قالت «انقطعت الصلة مذ تزوج»

فسألها «لماذا يقطعها أنه تزوج؟»

فامتقع لونها. وحاولت أن تهرب من الجواب. غير أنه الح عليها، فعرف أنه كان يمنيها الزواج، ويتودد إليها، ويظهر لها الحب.

واستخلص من زلات لسانها أنها كانت فرحة بهذا الحب. وكانت ترجو أن يخرج بها من جو القلق الذي أحاطتها به أختها، إلى الاطمئنان. وكانت لهذا حريصة على رضاه. وإذا به يتخلى عنها فجأة ويتزوج غيرها، فوقعت النبوة، وحلت الجفوة، وكانت هذه القطيعة.

وسألها إبراهيم «أصدقيني يا عايدة ... هل قبلك؟»

قالت «وأي بأس في هذا؟ إنه ابن عمي..»

قال «نعم، ولكن بالي ليس إلى البأس أو سواه. إنما اسأل عن الواقع، وسأشرح لك باعثي على السؤال بعد أن أسمع جوابك»

قالت «نعم»

قال «بس؟»

فأطرقت شيئًا ثم رفعت رأسها وقالت «إنك تعرف كيف تكون الفتاة حين تنضج وتستيقظ أنوثتها. ثم إني كنت حريصة على رضاه، لأني كنت أحب أن أسعده في حياتي. وكان ينوي أن يتزوجني. فسايرته إلى حد»

قال «إلى أي حد؟»

قالت «لم يسرف في الطلب..»

قال «ولو كان أسرف؟»

قالت بغير تردد «ما أظنني كنت أضن عليه بما يريد إذا كان في ذلك سعادته».

وكانا يتمشيان في الجزيرة. فاقترح أن يركبا زورقًا في النيل. وكان الوقت عصرًا. فقضيا ساعة أو بعض ساعة يسبح بهما الزورق على الماء في رفق. لا يتكلمان ولا يسمعان إلا وقع المجدافين إذ يخبط الملاح بهما الماء. وكان إبراهيم ثابت الحملاق ينظر إلى حيث تلقى الأرض والماء بالسماء عند الأفق، وعايدة تتلفت منه إلى حيث ينظر، وتجيل عينها في هذا الشاطئ وذاك، ولا تنبس بحرف. وكأنما عجزت عن احتمال هذا الصمت الطويل الثقيل فصاحت فجأة «أي نزهة هذه؟»

فرد إبراهيم عينه إليها. وتبسم -بجهد- وقال:

«معذرة. لقد كنت أفكر فيكِ. والآن يحسن أن نرجع فإن عندي كلامًا طويلاً أريد أن أحدثك به»

ولم يتركا الزورق لما عادا إلى البر. ورجا إبراهيم من الملاح أن يقعد بحيث يراهما ولا يسمعهما. فلما فعل قال إبراهيم:

«الآن سأقص عليك قصة.

«حكى أن فتاة مات أبوها وهي تلميذة في السنة الأولى من مدرسة الثانوية. وكان متلافًا فلم يخلف لها مالاً. ولولا بعض مال لأمها لافتقرت بعد غنى. ولكن مال أمها لم يمنع أن تعاني الفتاة الضيق بعد السعة. وكانت تنظر إلى مستقبلها مشفقة واجفة للقلب. فقد كانت ترجو في حياة أبيها أن تستوفي حظها كاملاً من

التعليم. فالآن لا أمل في أكثر من التعليم الثانوي. وقد تعجز عن إتمامه. وكانت ترجو أن تجد زوجًا صالحًا. فأما وقد مات أبوها فمن ذا عسى أن يرغب فيها؟ إن شبان هذا الزمان يسألون عن مال الفتاة وجاه أسرتها قبل أن يسألوا عن الفتاة وأدبها وخلقها وجمالها .. وزاد الطين بلة أن أختها الكبرى المتزوجة الحسنة الحال طمعت في مال أمها وسعت للاستئثار به دون هذه الفتاة. وأبى سوء الحظ لفتاتنا إلا أن تصاب إحدى عينيها بما كاد يذهب ببصرها. واحتاجت بعد علاج طويل، وشفاء كان ميئوسًا منه، أن تضع على عينها نظارة كانت تأنف وتستحي أن تضعها، فتخالف وصية الطبيب، نفورًا من تشويه النظارة لحسن الوجه، ولأنها قد توهم من يبصرها أنها عمياء. وهكذا في وهمها أنها ليست ممن يرغب الشبان فيهن. فلا هي غنية، ولا أسرتها -بعد وفاة أبيها- ذات جاه، ولا هي جميلة. وفوق هذا كله يأمرها الطبيب أن تشوه وجهها بنظارة! فملأ قلبها الخوفُ. وخلا من الثقة بالنفس -الخوف من مستقبل يسوّده طمعُ الأخت، وضعف الأم، وقلة الثقة المتولدة من اجتماع كل ما ذكرت. فماذا بقى لها؟ لم يبق إلا أنها أنثى- أنثى قد تُشتهي لأنوثتها وصباها وغضاضة بدنها، وجدة بشرتها التي لم تبتذل، ولكنها لا تُحب لذاتها، ولا تطلب لمزية أخرى فيها.

«واضطرت، كما توقعت، أن تنقطع عن المدرسة، لأن مواصلة الإكباب على الدرس كانت خليقة أن تؤذي عينها التي شفيت ولما تكد. فزاد هذا في خوفها الباطن وقلةَ الثقة التي استحوذت على نفسها.

«وفي هـذا الوقـت جـاء ابن عـم كان خليقًـا بها -لولا مـا صارت إليـه مـن سـواء الحالـة النفسـية- أن تفطـن إلى أنـه أولى بنفورهـا منه بإقبالهـا. ولكنهـا كانـت ظمـأى إلى الحـب والعطـف، متلهفـة عـلى الاسـتقرار والاطمئنـان. وكانـت تتوهـم ان الوسـيلة عـلى ذلك .إلى الأمـن والـري والراحـة- هـي المطاوعـةُ وإسـلاسُ العنـان. كانـت تطيـع أمهـا وتتوخـى مرضاتهـا لتمنـع أن تخطـف الأخـتُ حقهـا. وكانـت تتزلـف إلى أختهـا لتعطـف عليهـا، فتكـف عـما تسـعى لـه مـن هـذا الخطـف. والأن وقـد جـاء ابـن العم يظهـر الحـب، ويُلوح بالـزواج والأمـن والراحـة مـن هـذه المزعجـات، فـما عليهـا إلا أن تجيبـه إلى مـا يُهيـب بهـا إليـه لتسـتبقي رغبتـه فيهـا. ولما كانـت قـد وقـع في روعهـا أنهـا ليسـت إلا أنثـى تُشـتهى لأنوثتهـا، ولا تُحـب لذاتهـا، فسـبيلها إلى مـا تنشـد هـي أن تجعـل أنوثتهـا متاعًـا لـه مخافة أن تفقـد حبـه. ولـو أسرف في الطلـب، وأغـرق في طلـب المتعـة، لما أحجمـت عـن التلبيـة. وكانت تتوهم أنها بهذا تسـعده، وأن سـعادته هـي كل مبتغاهـا، وأنهـا مسـتعدة للتضحية في سـبيل ذلـك. وكانت تحـدث نفسـها أن أنوثتهـا اسـتيقظت، فهـي تجاوبـه هـذا، وتجـد من قبلاتـه وضماتـه وقربـه مثـل مـا يجـد. ولكـن الأمـر لم يكـن كذلك. وإنـما كانـت خائفـة قليلـة الثقة بنفسـها. وكان هـذا هو الـذي يغريها بالمسـايرة والمطاوعـة. بـل بلـغ مـن خوفهـا وضعفها أنها صـارت لا تقتـصر عـلى المسـايرة، بـل تتجاوزهـا إلى المجاوبة. وكانـت تجهل أن الـزواج الصالـح إنـما يكـون بي كفؤيـن لا بـين سـيد وجاريـة، وأنها لم تكـن تحبـه، ولكنهـا تخشـى فقـده، وأن الحـب الـذي يكـون كلـه تضحيـة مـن جانـب واحـد، ليـس حبًـا، بـل عبوديـة لا خـير فيهـا

للجنس الإنساني، وليس الحب أن تهب ولا توهب، بل أن تُعطي وتأخذ.

«وجفاها ابن عمها وملها، ونباها وتخلى عنها، وبنى بغيرها، أو لعله أساء الظن بها، ولم يحمد سيرتها معه، وأغلب الظن أنه كان نذلاً. فلما اعتاض منها سواها، صارت أقلَّ ثقةً بنفسها، وأضعف، وأعظم خوفًا من المستقبل.

«ولقيت كهلاً ذا زوجة، وآنست منه ودًا، فقالت أمنحه من نفسي ما يحب، لأنها لا تزال تعتقد أنها أنثى تُشتهى، ولا تُحب لذاتها أو لمزية لها. ولو عرفت نفسها معرفتَها لأدركت أنها لا تحتاج إلى البذل، وإنما تحتاج إلى الثقة بالنفس، وتفتقر إلى اطمئنان القلب وانتفاء الخوف، ولعرفت أن حدة الإحساس الجنسي هي الزيّ الي اتخذه الضعف والخوف. وفي الوسع تلطيف هذه الحدة، وكبح هذا الجماح، فإن الإحساس الجنسي ليس مستعصيًا على الضبط، ولو راضت فتاتنا نفسها على السكون إلى الصداقة والعطف والقناعة بالمودة التي تكون بين الرجلين، ولا يندر أن تكون بي رجل وامرأة، ووثقت بنفسها، ونفت عنها هذه المخاوف التي تتلف أعصابها، وتدفع إحساسها في مجرى غير صالح ولا مأمون، لو فعلت ذلك لاستراحت، ونعمت. والآن ما رأيك في هذه القصة.؟»

فلم تجب. وكانت قد أصغت، ولم تحاول أن تقاطع.

فقال «يحسن أن تفكري فيها، فإنها قصة حقيقية، ولا عمل فيها للخيال.»

وعـاد إلى بيتـه في تلـك الليلـة وهـو مطـرق، ولكنـه غير سـاهم، فقالـت له تحيـة «مالـك؟».

قال «آه لو كنت درستُ الطب، كما كنت أبغى ...»

قالت «ما هي الحكاية؟»

قـال «أظننـي أصلـح أن أكـون طبيبًـا نفسـانيًا ... هـل تظنـين أني كنـت أُرزق التوفيـق؟»

قالت: «لا أزال انتظر جواب سؤالي»

فلما قص عليها القصة قالت «لعل وعسى» ولم تزد.

وخطـر لـه وهو يـأوي إلى فراشـه أنه ليس خـيرًا من عايـدة حالاً، وأنـه لعله هـو أولى بما قـال لها.

(٤)

ولكـن عايـدة لم تقتنـع. ولم يشـفيها العـلاج النفسـاني الـذي رجا إبراهيـم وتحية أن يشـفيها ممـا بها، فتعقـدت الأمـور في حياته، وصار يحـس أن المتع اليسـيرة لا تُنـال إلا بأضعاف أضعافها مـن الآلام ومما يحـاذر -فهو حـب زوجتـه حبًا هادئًـا، ويكبرهـا، ويطيب بها نفسًـا، ولا يطيـق أن يتصـور أنـه قـد يفقـد -في يـوم مـا- حبهـا واحترامها، وإن كانـت وطـأة الفتـور الـذي عـراه معهـا قـد ثقلـت عـلى كاهـل صـبره. وقـد وجـد في عايـدة الصبـي والجـدة؛ ولكـن عايـدة فتـاة غريـرة مكبوتـة ضعيفة البنيـة، وهنانتها، وخائفة وجلـة، ولا يتزعزع يقينهـا بـأن عمرها عمـر الـورود؛ فـما كادت تلتقي به حتـى انطلقت تريـد أن تعـدو بغـير عنـان وتحـاول وتطلـب وأن تعتـصر وتختزل في القليـل الباقـي لهـا مـن العمـر، فيما تعتقـد، كل مـا يخطر عـلى بالها أن تسـتفيده مـن متـع الحيـاة ولـذاذات العيـش. وهـو يجاهـد أن يكبـح هـذا الجـماح، ويردهـا إلى القصـد والاعتـدال، ولا يسـلس في يـده قيادُهـا إلا بعناء شـديد ومشـقة عظيمـة. وكان يقول لها فيـما يقول إن مـن الجهـل أن تـسرفي في إنفاق حياتـك على هـذا النحو، فتقـول إنها لا تنفـق وإنـما تسـتفيد وتكسـب فيقـول لهـا «كلا. وإنـك لكالرجـل

الـذي يريـد أن يـذوق الخمـر ويجـرب الخفيـف مـن نَشـوتها فـيروح يعـب فيها حتـى تطير في رأسـه، ويُدَارَ بـه، ويفتر ويسـترخي، ويفقد الإحسـاس بـما هـو فيـه، فلا يخـرج بغـير هـذا الأذى. وكان خـيرًا له لـو قنـع بالدبيـب الهـين والتمـشي اللـين، فيبقـى لـه وعيـه ويظـل مـدركًا لمـا أفاد مـن سرور، شـاعرًا بما أكسـبته مـن انتعـاش. ثم إنك تزعمـين أنـه لا أمـل لك في طـول العمر. أفـلا ترين إذن أنـك تنفقين مـن رأس مالـك بلا حسـاب؟ ولو حرصـت عليه لطال اسـتمتاعك بـه .. ثـم إنـك جاهلة جهـلاً آخر ذلـك أن أمتع ما يسـتفاد مـن نعيم الحيـاة هـو ذكـراه. نعم الذكـرى أمتع مـن النعيم نفسـه سـاعةَ الفوز بـه ومواقعتـه. فـإن المـرء يكـون مسـتغربًا فيـه فـلا يسـتطيع أن يحيط بصـورة ومعانيـه ومختلـف مـا ظفـر به مـن وجوهـه ومتعدد ما شـاع في نفسـه منـه. وإنما يتيـسر ذلك بعـد انقضائه وعنـد ادكاره في هدوء. مثـال ذلـك أنـك تظمئـين فتشربـين. ولا شـك أنـكِ تجديـن لـذة وأنـتِ ترتشـفين المـاء عـلى ظمـأ، ولكـن ألـذ مـن ذلـك أن تتذكري مـا كان مـن ظمئك، ومـا كان مـن حلاوة المـاء في لسـانك وحلقك، وطيـب انحـداره بـاردًا إلى جوفـك الحار، وحسـن ما شـعرت به من الارتـواء بعـد الحـر والأوام، وكيـف كنت قبـل ذلك تجمعـين ريقك تحـت لسـانك، لتلبـي بـه لثاتـك، وكيـف كان الكـوب الـذي رفعته بالمـاء إلى شـفتيك الجافتـين، إلى آخر ذلـك. ولا سـبيل إلى إدراك هذا كلـه وجمع صـوره وإحضارهـا إلى الذهـن، وتمثلهـا، إلا بعد حصول الـشرب والارتـواء، حـين يجد العقل فسـحة فيكـر راجعًـا إلى ما كان ممـا عانـى وما أفـاد. أما قبـل ذلـك وعند الـشرب فهو مشـغول بحر العطـش، والحاجـة إلى إطفائه، وبتنـاول الماء لإطفاء الحرقـة الأليمة.

وهكـذا في كل أمـر آخـر فـإن متعـة تفوزيـن بهـا في خمـس دقائـق قصـيرات لا تشـعرين في أثنائهـا بـكل مـا تشـعرين بـه فيـما بعد حين تذكريـن مـا كنـت فيـه. والذكـرى هي التـي تغريـك بالمعـاودة. فإذا أنـتِ رحـتِ تنهبـين اللذات نهبًـا بكلتـا يديكِ كـما تريديـن أن تفعلي كنـتِ كذلـك السـكران الـذي ضربـت لـكِ مثلـه والـذي لم يورثـه فـرط عبـه في الخمـر إلا أذاها».

وكان مخلصًـا في إشـفاقه عليهـا مـن هـذا الجمـوح. وكان يـدرك عذرهـا ويمهـده لهـا مـن شـبابها وغرارتهـا وطـول كبتهـا وسـوء أحوالهـا، وهـذا الاعتقـاد الثقيل الـذي لا يزايلها بأنها قصـيرة العمر. ولكنـه كان مقتنعًـا بـأن شـططها خليق أن يزيـد عمرها قـصرًا وكان يـرى أن ليس من حقه أن يسـايرها، وأن الأولى والأرشـد أن يقاومها ويضـع لهـا اللجـم ويروضها فتكسـب ولا تخسر، وتعتـاد ذلك على الأيـام. ولكنـه كان يراهـا في أيام كثـيرة ذابلة ثقيلة الجفون مسـترخية الهـدب متغـيرة اللون، فخطـر له أن لعلهـا فتحت لنفسـها بابًا نفذت منـه إلى مـا صدهـا عنه، وأنهـا لم تقتنع بما أبـدأ وأعاد فيه مـن النصح، وإنـما أظهـرت الإذعـان لمـا رأت مـن إصراره عـلى خطتـه وإبائـه أن يجـاوز معهـا حـد القصـد، وأضمرت التمـرد وآثـرت اللجاجـة فيما بينهـا وبـين نفسـها. ولا حيلة لـه في هـذا ولا سـبيل إلى شيء يصنعه.

وكانـت تحيـة لا تبدي خـلاف ما ألف منهـا وعهـد. ولم يكن هذا المظهـر يخدعـه. وكان يشـق عليـه أن يجمح بهـا الخيال فتتوهـم الأمر أكـبر مما هـو الواقـع والحقيقة. فـما كان به حـب عايدة، ولعلـه عاجز عـن هـذا الحـب المسـتغرق الآخـذ بالكليتـين وإنـما كان مـا ينطـوي عليـه لعايـدة مزيجًـا مـن العطـف والمـودة والفـرح بصباهـا وأثـر

الشباب في نفسه. على أن الحقيقة -وإن كانت يسيرة هينة وليس فيها ما يغير من حاله مع زوجته- لم تكن هذه الحقيقة مع ذلك مما يمكن أن يكون موضع بحث وجدل بينهما. فكان مضطرًا أن يصبر على تركها تكبر في وهمها الحبة حتى تصبح عندها قبة. وكان هذا يشق عليه، ولكنه لم تكن له فيه أيضًا حيلة، وقد همت تحية مرات بأن تفتح الموضوع ثم أحجمت. وآثرت أن تستعيد ما توهمت أنها فقدته من حب زوجها بالصبر والحكمة والإيثار. وهمت مرات أخرى أن تستأذنه في قضاء وقت مع أبيها في البلدة. ولكنها ردت نفسها عن ذلك لأنه أشبه بأن يكون خطوة لا تخلو من صفة الحسم، ثم لأنها بذلك تترك الميدان لمن تزاحمها عليه في ظنها، فتكون هذه بداية الهزيمة المخوفة. وكانت إلى هذا مترددة في الجزم، ولو استطاعت أن تجزم لاستراحت، فما زال صحيحًا أن اليأس إحدى الراحتين. فقد كانت ترى حال عايدة فلا يخامرها شك في أن الأمر بلغ مداه، ثم تراها مضعضعة وكأنها مشفية على التلف، فيعصر قلبها العطفُ والمرثية. فقد كانت تعرف أن قلبها ليس بالقوي وأن همومها غير هنية وأن أختها علة بلائها، وكانت تنظر إلى إبراهيم فترى المعهود من ضبطه لنفسه، ولا يبدو لها من نظرته إلى عايدة حين تراهما معًا ما يريب أو يثير القلق. وكل ما كانت تلاحظه أنه بادئ الأنس بها. وليس الأنس ما تكره له وتأبى عليه. ولقد حاولت هي أن توفر له أسبابه. وكانت هذه المظاهر المتناقضة المتعارضة لا تسمح لها بالاستقرار على رأي والانتهاء إلى حكم. وكان هذا عذابًا لها ولكنها كانت تحمد الله عليه أحيانًا وتحدث نفسها أن اليقين خليق أن يذهب بلبها.

وظل هذا الحال عامًا وبعض عام. وكانت عايدة تزداد نحافة وهزالاً وذبولاً، وصارت عيناها أوسع، وقل لحم خديها ونتأت عظام وجنتيها. وذهب شيئًا فشيئًا ذلك البهاء والحسن والمالئ للعين، ورونق الورد الريان على ديباجة محياها المشرق الوضاء. وأصيبت بالدوستاريا وتحاملت على نفسها وأهملت، فكادت تيبس من الهزال، وذبلت الشفتان الرقيقتان واتخذت الأحمر لهما وللخدين لتستر ما عراهما من إدبار النظرة. وصار لإبراهيم معها كالممرضة. ورق لها قلب تحية فأرخت الحبل لبعلها وألقته له وقد وسعها أن تكون كريمة. فكان إبراهيم يحملها في مركبة أو سيارة -فما عادت تقوى على المشي الطويل المجهد- ويحاول أن يرفه عنها ويعيد إليها البشر والنعمة والري بالهواء النقي والطعام المنتقى يحمله معه لها ويشاركها فيه ليشجعها وهي لا تتناول إلا بقدر. وكان يرى زهدها هذا في الطعام فيخشى عليها فقر الدم مع ضعفها البادي. وكان هذا رأي الأطباء أيضًا، ولكنها هي لم تكن تحفل هذا أو تباليه، وكانت تقول له كلما ألح عليها أن تعني بنفسها، وراح يبين لها أن العناية سهلة وأسبابها قريبة وغناءها مكفول «ما الفائدة؟ ثم إني لست آسفة .. والفضل لك. ألم اقل لك إني قصيرة العمر؟ فأنت ترى أني كنت صادقة، وإني لأحس من نفسي وأعرف ما لا يحس سواي أو يعرف -لا الطبيب ولا أنت- ولولاك لمت وما كنت قد حييت، ولكنك أحسنت إليّ، وجُدت علي بالحياة قبل أن يوافى الأجل».

فلم يكن بجد ما يجيب به، وإن كان لا يقصّر فيما يعتقد أنه خليق أن يبعث في نفسها الأمل، ويقوي الرغبة في الحياة، ويوقظ

إرادتها -عبثًا فما كان يبدو منها ما يدل على أنها تريد البقاء.

واتفق بعد ذلك أن انقلب ماعون فيه ماء مغلي على رجل أمها. فقامت عايدة على خدمتها، وانقطعت لها وكفت عن الخروج للقاء إبراهيم. وأبت عليه زيارتها كما أبتها على تحية. وقيل برئت، ولكنه كان برءًا على بغي. فقد بقي في الأصبع شيء من النغل، فاحتيج إلى الجراح لبتره. ثم صحت ورجعت إليها القوة، ولكن عايدة انهارت، فقد ابت أن يشاركها في السهر على أمها أحد -ولا أختها- وانفردت بذلك ليلاً نهارًا. وكانت نفقة العلاج باهظة والمورد شحيح فقترت على نفسها. وكانت لا تتخذ طاهيًا أو طاهية، وشغلت بأمها عن الطبخ فكانت تكتفي بالكسرة من الخبز وبجبن أو زيتون أو نحو ذلك. ولا تتكلف الطهو إلا لأمها فهد ذلك كيانها، ولم تكد أمها تشفى وتنهض حتى خرج بها التعب وسوء التغذية عن كل حد للصحة، فدنقت وبراها المرض. ثم ثقلت وأثبتت فصارت لا تبرح الفراش. وكانت إليه كل يوم بكتاب قصاصة من كراسة تقطعها وتخط عليها كلمات الشوق، وتتقي أن تقول فيها ما عسى أن يسوء وقعه في نفس تحية إذا وقعت في يدها أو فتحتها. وكانت لا تزال تأبى الزيارة. فكان لا يعلم شيئًا عن حقيقة حالها. أما تحية فكانت تزور أمها وتعرف منها ما صار إليه هذا الحال، غير أنها كتمته عن زوجها. وفي ضحى يوم من الأيام بعثت عايدة إليه برسالة شفوية مع خادمة صغيرة فحواها أنها تطلب منه أن يشتري لها تفاحًا ولوزًا محمصًا -فاستغرب الطلب. وحدث به تحية. فلم تكن أحسن فهمًا له أو أقدر على تأويله. ولكنه قضى

لها حاجتها ووجهها إليها مع الخادم. وكانت تحية تريد أن تحملها إليها لعلها تستطيع أن تقف على سر هذا الطلب ولكن إبراهيم أبى ذلك. وعاد الخادم يقول إن الست الكبيرة -الأم- أخذت منه التفاح واللوز وقالت وعلى خديها عبراتها «لوز إيه وتفاح إيه يا بني ... ده حالها حال .. الأمر لله» ولم يكد يتلقى هذه الرواية حتى أقبلت الخادمة الصغيرة التي تقول إن ستها الصغيرة تطلب إبراهيم؛ فنظر إلى امرأته فأومأت إليه برأسها أن اذهب بسرعة.

ودخل على عايدة في غرفة نومها. وكانت راقدة في سريرها على ظهرها والملاءة البيضاء عليها. فخيل إليه أنه ينظر إلى جثة. فقد كان وجهها أصفر وعيناها مغمضتين ويداها ممدودتين إلى جانبيها. وكانت أنفاسها مضطربة. وكانت شفتاها تتحركان بتمتمة خفيفة، لا تبلغ أن تكون صوتًا مسموعًا. فقعد على كرسي وقد كبر في ظنه أنه ما بقي منها إلا شفى. ودار رأسه وهو ينظر إليها، ويتعجب لهذا الوجه الذي كان ينضح بالدم الحار، ويرف على صفحتيه ماء الحياة، وتؤنق فيه نضرة الصبي، كيف ذبل ويبس واربدّ، وحلت به الكمدة في عامين اثنين ليس إلا ..؟ وهاجت حرقاته، واضطرم سخطه على الدنيا وقسمة الحظوظ فيها. وكاد غيظه، قبل حزنه، يبكيه، لولا أنه جامد العين بعيد العبرة جفاها، يحس بها تتردد في صدره وحلقه، ولا تترقرق أو تنحدر من جفنه. ولبث عشر دقائق ناظرًا إليها لا هو يقول شيئًا، ولا هي تفيق، ثم نهض وقد أحس بالعجز عن احتمال ذلك. وتعجب وهو خارج، للمرأة وقدرتها على الصبر على ما لا صبر للرجل عليه .. أهي بلادة فيها ونقص في الإحساس أو

الإدراك أو الخيال؟ أم هي غريزة الأمومة تجعل المرأة تفيض حنانًا، ويستغرقها حنانها فيطغى على كل إحساس آخر.؟ من يدري؟..

وقال لتحية «لست فاهمًا شيئًا .. كيف أمكن أن يحدث هذا»

قالت «لكأني بك لا يعنيك إلا أن تفهم كيف ولماذا؟ مسكينة»

قال «لا تظني أن قلبي غير موجع، فإنه موجع. ولكني أريد أن أفهم ... هذه فتاة لم أر أول ما رأيتها شبابًا أكثر من شبابها ريًا ونعيمًا ونضرة. لم يكن يبدو عليها أن بها مرضًا دفينًا. كلا .. كانت مظاهر الصحة مجتمعة. ولست أعلم أنها رقيقة الحال، فإن عند أمها فوق الكفاية لاثنين. وقد كانت دائمًا حسنة الثياب. وكنت أرى معها أمثر مما تحتاج إليه لنفقتها. وليس بأمها بخل. فكيف أصابها هذا الذوي السريع؟ وما علته؟. نعم كانت مكبوتة ولكن الكبت قد يتلف الأعصاب، أو يورث مرضًا غير مستعص. أو حتى يجن .. ولكن هل يمكن أن يقتل على هذا النحو وبهذه السرعة إذا كان يقتل؟. وأعرف أنها كانت شقية بأختها.. فقد حدثتني أنت بذلك. ولكن أين الإنسان الذي تصفو حياته ولا تعكرها الهموم أو تخلو من المنغصات؟ وشقاؤها بأختها كانت علته أنها منهومة لا تشبع، وأنها تطمع في مال أمها ولا تبالي حرمان أختها. ولكن الأم لم تستجب للبنت الطامعة، ولم تطاوعها ولم تضيع على بنتها الأخرى شيئًا. فشقاؤها بأختها كان يلطفه ويخففه الواقع، وهو أنه لم يحدث ما تخاف. ثم إني أراني قادرًا على التوفيق بين هذه المتناقصات. كانت عايدة تعتقد أنها قصيرة العمر وأن أجلها لن يطول حتى تنعم بالزواج. ومع ذلك كانت

شـقية – لأن أختهـا تطمـع في مـال أمها وتحـاول أن تغتصبـه، وتحرم عايـدة منـه، فعايـدة قلقـة عـلى مسـتقبلها. ثـم لمـاذا كانـت لا تأكل؟ لمـاذا أهملـت نفسـها إلى هذا الحـد الوبيـل؟. إنه أشـبه بالانتحـار فيما يبـدو لي .. لم تكـن غبيـة أو ضعيفـة الفهـم أو جاهلـة أو عاجـزة عن تبـين مـا لا بد أن يورثهـا هذا الإهمـال. أم كانت تهمـل أن تأكل لأنها لا تشـتهي الطعـام؟ لمـاذا؟ إن هـذه الأمـور تحيرني».

فلـم تقـل تحية شـيئًا لأنهـا كانت تعـرف أن زوجها يحـس «بعقله» أي يحول كل إحسـاس إلى فكـرة، ويروح يعرضها عـلى عينيه ويتأمل وجوههـا. وخواطـرُه هـي الصـور التـي تتخذهـا إحساسـاته وكثيرًا مـا تتحـول الفكرة عنده إلى إحسـاس. فهـذا يتسرب في ذلـك. وذاك يعـود فيتـسرب في هذا. ولا نهايـة لهذا التحـول عنده.

وقضـت عايـدة نحبهـا دون أن تفيـق. أو لعلهـا أفاقـت وما درى بهـا أحـد .. ومـن يدري؟

ووجـم إبراهيـم لمـا جـاءه نعيهـا. فقالـت له تحيـة وهـي تربت له عـلى كتفـه «اسـمع. إني لم أكلمك في هـذا قط، ولكني أقـول لك الآن إني آسـفة .. آسـفة مـن أجلهـا. والمـوت حسـم، فاطـو أنـت أيضًـا الصفحة.»

قـال «ولكنهـا لم تكـن صفحـة .. لا ليسـت صفحـة في حيـاتي ... هنـا خطـؤك. إنهـا كانـت كتابًا كامـلاً. ولكنـه خُطف من يـدي، وأنا مازلـت أجيـل عينـي في صفحاتـه الأولى .. أوه أظن أني أقـول كلامًا سـخيفًا .. لم يعـد في رأسي عقـل. كل مـا أشـعر بـه أو أدريـه أنـه لم يكـن ثـم مـن بأس لـو بقيـت هـذه المسـكينة .. هـل عندنـا شيء من

الـشراب؟ هذا المـوت ثقيـل .. أكاد أرتـاب في حكمة الحيـاة والموت .. في كل شيء .. لا ينبغـي أن أكـف عـن التفكـير في أي شيء في هـذا اليوم ..»

ففهمـت تحية وعـذرت. وكانـت تعرف تلـف أعصابه ومـا عانى في سـنوات طويـلات من عذاب النوراسـتينيا.

ومـا أكثـر مـا تفهـم وتعـذر المـرأة الطيبـة المخلصـة الرحيمـة – ولعلهـا أجمـل وأروع مـا في الدنيـا.

(٥)

أحس إبراهيم -في الشهور القليلة الأولى التي تلت وفاة عايدة- أنه تغير، وأن حياته خلت من بعض ما كانت تجمل به وتطيب، وإن كانت هذه الفتاة المسكينة لم تستطيع أن تملأ حياته .. وكان هو ربما أحس أنه لم يعرفها معرفتها. وأنها مرت به تخطف ولا تتلبث.

وصار يلزم بيته ويعتكف فيه، معظم الوقت، ولا يخرج إلا الحاجة ملحة. وكانت تحية تدعه لخواطره ولا تتطفل عليه إلا أن يدعوها أو ينشد مجلسها فتكون معه ساكنة وادعة، متكلفة متجملة. وكان يمهد لها العذر ولا يلوم. فما احتملت امرأة مثل ما احتملت تحية منه. ولا تجاوزت بنت لحواء عن مثل ما تجاوزت عنه، وإن كان الذي كبر في ظنها أوهامًا .. ولكنه كان مع ذلك يحس أن ليس له صديق، وأنه فقد الصديق، وأنه فقد الصديق يوم فقد أمه. وكان يقول لنفسه إن ألف ألف من أنصاف الصداقات خير منها صداقة واحدة تامة. وكل إنسان منا عام قائم بذاته. والذي يستطيع أن يدير عينه في حياة الإنسان آخر ويتبينها على حقيقتها قد استطاع أن يرى ويعرف عالمًا جديدًا. ولم تكن

تحيـة تتجهـم أو تقـصر في لقائـه بـما تعـرف أنه يحـب، ولكنهـا كانت سـاكنة، وكان هـذا لا يشـجع عـلى التبسـط أو المصارحـة والتفاهم. ومـا أكثـر مـا تعجـب في خلواتـه الطويلـة بنفسـه لقـدرة المـرأة عـلى إشـقاء الرجـل وتعذيبـه مـن غـير أن تنطـق بكلمـة جافيـة أو تفعـل شـيئًا ينطـوي عـلى القسـوة! وكان ربما خطر لـه أن قوة المـرأة مهولة، وصوتهـا فظيعة، وسـطوتها لا يسـتخف بهـا عاقل؛ وأنها لهـذا خطرة ومسـتبدة، وأن ودهـا مـن أجـل ذلك لـه قيمتـه -وعطفهـا جدير أن يُطلب وينشـد.

عـلى أنـه لم يسـخط ولم يتذمـر - فقـد كان يؤثـر الإنصـاف عـلى صعوبتـه ومشـقة التكلـف فيـه. فـكان يحـدث نفسـه أنـه هـو الـذي جنـى هـذا، وأن عليـه أن يمهل تحية -أو يسـتمهلها- حتـى ترى منه مـا يعيـد إليهـا البشاشـة والطلاقـة والخفـة والنشـاط، ولا بـد لذلك مـن عـود الثقـة وحصـول الاطمئنـان. ولم يسـعه إلا أن يبتسـم، إذ خطـر لـه أن الـزواج يشـبه لبـس الحـذاء. والأعـزب كالـذي اعتـاد الحفـى. فـإذا لبـس حـذاء شـعر بالضيـق والكـرب. والـزوج الـذي يهمـل زوجتـه زمنًـا مـا، يكـون كالـذي تـرك حـذاء وتحذّى سـواه. فـإذا عـاد إلى الأول أتعبـه وأحـس أنـه ناشـف، لا يلـين لقدمـه، أو أن رأسـه المسـتدق أضيـق ممـا ينبغـي، أو أن لسـانه قـد تلـوى، أو أن جانبيـه قـد تقبضـا، أو أنه يُزم زمـا محكـمًا. والمواظبة والصـبر لا غنى عنهـما حتـى يلـين الحـذاء ويعـود مريحًا كـما كان.

وذكـر بهـذا المثـل الحـذاء الصينـي الـذي يقـال إن المـرأة تصـب قدمهـا في قالـب منـه. فقـال لنفسـه إن هـذا هـو مثـال اطـراد الحيـاة عـلى نسـق واحـد لا يتغير. وليسـت الحيـاة -أو لا ينبغـي أن تكون-

كذلك. وإنما الحياة -كما يقول سبنسر- محاولة مستمرة لتنسيق العلاقات الخارجية والداخلية أو التوفيق بين النفس وغيرها فإذا كان كل ما أفادني التحصيل والتجربة لا يعنني على التوفيق بين نفسي وبين الحياة فأنا إذن لا خير فيّ ولا أمل. فالصبرَ الصبرَ يا هذا.

وأراد أن يسرها ويبرها، فإن الصبر وحده لا يكفي، ولا مفر من مجهود يبذله لتعود فتسكن إليه وتثق بأنه عاد إليها، كله لا بجانب من نفسه. وذكر أنها كانت قالت له لما اتخذ هذا البيت مسكنًا إن ساكن الضواحي القصية لا يستغنى عن سيارة، فسألها يومئذ «هل تشتهين أن تكون لك سيارة؟» فكان ردها «واي امرأة لا تشتهي ذلك؟ ولكنه بذخ لا أحسبه يدخل في طوقنا فلا تعجل» فسكت، ونسي، إلى أن كان ما كان مما أسلفنا عليه القول - فاغتنم فرصة مزاد تباع فيه مقتنيات انجليزي أزمع العودة إلى وطنه. وكان بين المعروضات سيارة متينة البناء سليمة المحرك إلا أنها حائلة اللون، غير ذات رونق. فاشتراها بمبلغ زهيد ستين جنيهًا ليس إلا. وبعث بها إلى من طلاها وأعاد إليها جمال الشكل وبهاء المنظر. وأعدها -ومعها سائقها- أمام الباب في ساعة معينة. فعل هذا كله دون أن يخبر زوجته. وفي مأموله أن يفاجئها بما يعتقد أنه يسرها. ودعاها إلى الخروج، وفي عينيه بريق يكاد يفضحه، فما كان يحسن التكلف. فنظرت إلى وجهه مستغربة، وخرجت طائعة. فلما رأت السيارة وقفت والتفتت إليه وسألته «ما هذا..؟» قال «أتعجبكِ؟» قالت «إنها جميلة. ولكني لا أفهم» قال «إنها لكِ» قالت «لي أنا؟ متى اشتريتها؟ ولماذا لم تخبرني؟» قال «لو أخبرتكِ

لما كانت هناك مفاجأة». فعبست وقالت «ولكن هذا إسراف» وغالبت نفسها فتبسمت وفتحت الباب ودخلت. ولما انطلقت بهما السيارة قالت له «لو لا خوفي عليك لقلت لك تعلم قيادتها، لنقتصد على الأقل أجرة السائق» قال: «لا تخافي عليّ. سأتعلم وأعلمكِ أيضًا فما اشتريتها إلا لكِ»

وصمتا برهة قالت بعدها «لا تظن أني غير شاكرة فإني شاكرة. ولكن الثمن الذي ذهب فيها، والتكاليف، وأجر السائق! أليست هذه مجازفة؟»

قال» ربما. ولكن الذي لا يجازف لا ينال شيئًا» وتمتم «وفازا باللذة الجسور».

وسرت تحية، فما كان يسعها إلا أن تُسر بالتفاتته هذه. وخيل لها أنها بداية لعود العصفور إلى عشه، لا بجسمه، فما كان فارقة، بل بقلبه وروحه. ولكنها على هذا لم تكن تبدو سعيدة كما كان يرجو أن يراها. وبدا له أن الحزامة أن يصارحها، فما يطيق أو يستطيع أن يظل معها هكذا- متكلفًا متظاهرًا بالرضي، وأن يدعها تتعمل وتتكلف هي أيضًا، ولعل خواطرها سود حالكة. وما ثم خير في ترك الأمور تستفحل وتتفاقم وفى الوسع منعها من ذلك. وقد لا تجدي المصارحة، ولكنها على التحقيق لن تزيد الحال سوءًا.

واغتنم الفرصة ذات ليلة، وهما يشربان الشاي وحدهما قبيل النوم -وكانت تلك عادتهما- فقال لها أنه يراها متغيرة منذ زمن وإنه جاهد ليردها إلى سابق العهد بها، ولكنه لا يري أنه أفلح. فما هي الحكاية؟ فحاولت أن تهرب من الموضوع، وزعمت أن

النعـاس يغالبهـا، ويـكاد يثنـي رأسـها عـلى صدرهـا، وأن للـكلام وقتًـا آخـر، إذا كان لابـد مـن ذلـك، فألـح وأصر. فقالـت لـه أنها لا تسـتغرب أن تكـون تغـيرت، فإنـه هـو أيضًـا قـد تغـير. ولعـل مـرد الحالـين إلى أمـر واحـد. فسـألها « هـل تعنـين عايـدة؟» قالـت: « لا أحـب أن أذكرهـا بغـير الخـير. وإني لأرثـي لهـا وأتوجع لما حـاق بها وصـارت إليـه. ولكنـي لا أكتمـك أن حكايتهـا معـك قـد أورثتنـي برغمـي هـذا الـذي تنكـره مـن حـالي. وثـق أني لا أسيء بـك الظن، ولكنـي امرأتـك، ولا أكـون أنثـي إذا لم يصبنـي مـا أصابنـي.»

قـال: « لقـد كنـت أراهـا كل يـوم تقريبًـا، وكنـت تعرفـين ذلك، وكنـت أنبئـك أنـا إذا لم تعـرفي، وكنـت أحرص عـلى هـذا لتطمئني. عـلى أني أقـول لـك إني أؤثـر المـرأة التـي لهـا عقـل رجـل، لا لأنهـا تكـون أحـلى أو أفتـن، بـل لأني أراني عاجـزًا عـن فهمهـا إذا لم تكـن كذلك.»

قالت: وهي تبتسم» بل أحلى منها عقل امرأة وزينة امرأة»

قـال: «هـذا صحيـح، وليسـت المـرأة امـرأة إلا بذلـك، ولكـن الأخـرى التـي يكـون لها عقـل رجـل، تجذبني لأنها شـاذة، ونـادرة. وأقـول لـك إني أحمـد عهـد عايـدة ولا أزال أذكـره شـاكرًا. ولكـن الطريـق الـذي سرنـا فيـه لم يفـض بنـا إلى مـا يدعـو إلى هـذا منـك»

قالت: « كان يمكن».

قـال: « ربـما، جائـز، ولكنـه لم يكـن. أفمن أجـل أن أمرًا مـا، كان يمكـن أن يقـع، تعذبـين نفسـك وتعذبينني هذا العـذاب؟ «

قالت: « ألست معذورة..؟»

قال: « نعم. ولكن هذا الاحتمال موجودًا أبدًا، ولا يحتاج إلى عايدة على الخصوص ليمكن أن يكون مادام الأمر كله أمر إمكان، وجواز، واحتمال.»

فأحست الخوف. فقد كانت هذه أول مرة يبسط لها فيها الأمر على هذا النحو الواضح، وشعرت أن لا سبيل إلى أمن أو اطمئنان ما دام هذا جائزًا ومحتملاً في أي وقت، ولكنها غالبت نفسها بابتسام كأنما تمزح: «إني أعتقد أنك من الرجال الذين يمكن أن يحبوا أية امرأة بشرط أن يكون لها من المفاتن الكفاية.»

وكان من الجلي -من نظرتها وابتسامتها ولهجتها- أنها تمزح، ولا تقول هذا جادة. أو لعها كانت جادة، ولكنها آثرت أن تبطن كلامها بالمزاح.

ولم يغضب، ولم يسؤه هذا، بل قال وقد أنتوى أن يذهب في المصارحة -ما دام قد بدأ -إلى النهاية» إنك مخطئة خطأين كبيرين- الأول قولك إني مستعد أن أحب أية امرأة إذا كان لها من الجمال القدر الكافي للإغراء أو استثارة الإعجاب - والحقيقة أني مستعد أن أحب كل امرأة ولو كانت دميمة، فإن للدمامة فتنتها أيضًا، والبراعة في تكوينها جديرة بالإعجاب، والمرأة الدميمة المزهود فيها خليقة بالرحمة. ألم تسمعي قول ابن المعتز: « وأرحم القبح فأهواه؟». وخطؤك الثاني ظنك إني بدع في الرجال. فأصغى إلى جيدًا .. إن الرجل الذي يقدر على الحب هو الذي يحب المرأة أولاً -الجنس كله. النساء جميعًا ثم بعد ذلك يحب

امـرأة معينـة. وإنـه ليحسـن بـكل امـرأة أن تعـرف هـذه الحقيقـة الأوليـة لأنهـا حيويـة. إنك تخطئين حين تتوهمـين أن رجـلاً لا تعنيه النسـاء. يسـتطيع أن يحبـك ويفهمـك ويقـدرك. لا يـا سـتي ليـس إلى هـذا السـبيل. فـإن الانتقـال يكـون مـن العمـوم إلى الخصـوص. وأنـت أيضًـا لا تسـتطيعين أن تمقتـي «الرجـل» وتحبـي رجـلاً. إن الـذي يعـرف كيـف يحـب امـرأة -هـو الـذي يحـب المـرأة- أو فكرة المـرأة - والأمر سـيان. فـإذا كنت تطلبين الشـاذ والاسـتثناء فاعلمي أن الشـذوذ في هـذا يفـضي إلى شـذوذ آخـر لا تصلـح بـه حيـاة المرأة الطبيعيـة التـي لا تعـاني شـذوذًا في طبيعتهـا».

فبـدا عليهـا الرعـب، ولكنـه لم يرحمهـا وألـح عليهـا فقـال» إنكِ تريديـن أن تفـوزي بلـذات الحـب ونعيمـه مـن رجل محـدود، ضيق الأفـق والنفـس، أعمـي العـين والقلـب، فلـماذا تزوجتنـي إذن؟ تطلبـين الـدفء مـن رجـل بـارد مقـرور النفـس! تشـتهين نطـرة الحـب المثيرة مـن عـين كالزجـاج لا معنـي فيهـا ولا تعبير لهـا، لأن مـن لا يـري ولا يحـس ولا يسـتطيع أن يعـبر. تريديـن أن يخفـق لك قلـب بعلـك بالحـب والحنان وهـو لا يخفـق إلا لمنظر الحمام المحشـو، والبطاطـس في الصينيـة، إذا كان يخفـق حتـى لهـذا ... لمـاذا خلـق الله هـذه الدنيـا ومـا حفلت بـه من جمال؟ مـا خيرها لنـا إذا كنا سـنعمي عنهـا؟ هـل تذكريـن الجبـن اللذيـذ الـذي أكلنـا منـه ظهـر اليوم؟»

وكان الانتقـال مفاجئًـا، ولا صلـة لـه بـما هـو فيـه. وكنهـا ألفت منـه هـذه الوثبـات، فتبسـمت وقالـت» نعم. مالـه؟» .

قال: «لقد كان هذا جبنًا طيبًا. وكان طعمه لذيذًا. وهو صالح نافع أيضًا .. ولكن إذا تركناه زمنًا كافيًا، فإن شيئًا غريبًا ممتعًا يحدث له. تدب فيه حشرة طفيلية نسميها الدودة، وتتكاثر الديدان، وتجعله كالإسفنج .. من أين جاء الدود؟ إنه لم يجيء من الخارج. وهو طفيلي، وعلامة فساد وانحلال .. أنتجه الفساد الذي دب في الجبن. وكذلك النفس لا تفسد وتتعفن بشيء يجيء من الخارج. بل يكون ما يظهر فيها من الخوالج السود القبيحة نتيجة الفساد الذي اعتراها من الباطن»

واضطجع في كرسيه وغام وجهه وهو يقول» يخيل إلى، أن من الممكن أن نكون نحن الآدميين، وغيرنا من صور الحياة، علامات فساد وانحلال. وعسى أن نكون ظهرنا في هذه الدنيا كما يظهر الدود في الجبن أو المش، ومن يدري؟ .. لعلنا حشرات طفيلية يغص بها كيان ضخم، فهي تعيث فيه .. كيان ظل موجودًا أكثر مما ينبغي .. ففسد .. وصار جديرًا بأن يرمي أو يمحي.»

فشق عليها أن يسبح هذه السبحة، ورق له قلبها، فقد أيقنت أنه هو أيضًا يتعذب، وأنه يتألم لنفسه ولها - لنفسه على الأكثر لأنه فقد ما يطيب به نفسًا، ولكن الذي فقد، هو الذي أحب منها. فصاحت «إبراهيم .. أرجو .. أرجو أن لا تتكلم هكذا.»

فصاح بها هو أيضًا «لماذا؟ لماذا تطبقين جفونك وتحجبين عقلك؟ لست أمية ولا أنت عمياء، ولا أنت بليدة. ألا تعرفين أن أنظر إلى الجمال والإعجاب به. بل حبه، كقراءة الشعر يجعل الإنسان أعرق في الإنسانية؟ ألا تعرفين أن الرجل البليد كالسفينة

التي تسير بغير بوصلة؟ ألا تدركين أن الفطنة إلى الجمال في مظاهرة المتنوعة يعينك حتى على حسن الاختيار، حتى حين تشترين حذاء أو تفصلين ثوبًا؟ ... أهملى ما في الدنيا من مباهج العيش، وفتن الحياة، وحلاوة الحسن، وروعة الجلال، وانظري كيف تصير الدنيا والناس؟ بهائم في مرعى، لا تدرك حتى أن ما ترعاه أخضر. لا ترفع عينها مرة إلى السماء، لأنها لا تدري أن فوقها سماء .. إن الإنسان إنما صار إنسانًا لأنه رفع عينه، وأجالها، وأحس وأدرك .. ماذا جري لك ...؟ أتبغين الموت في الحياة؟ أتريدين أن أكون مخلوقًا ذا بعدين اثنين في عالم ليس فيه حتى ولا أشباح؟ ..»

فقالت بلهجة وديعة «إني لم أعد أدري ماذا أنا حتى أعرف ماذا أريد»

قال «ولست مع ذلك بالغبية، ولو كنت، لأقصرت. فما يلام النبات من أجل أنه نبات .. وإنك لذكية، وفيك فكاهة، وذهنك سريع، وحيويتك دافقة .. ولكنك تنفقين كل ذلك عبثًا، تبعثرينه سدى .. تضيعينه في غيره سخيفة .. لقد تعبت ونشف ريقي فاسقني شيئًا»

فأشارت إلى إبريق الشاي، فأشار إليها أن لا، فجاءته بقدح صبت فيه قليلاً من الويسكي. وهمت أن تشعشعه بالماء، فهز رأسه. وتناول القدح، وقلبه على فمه، فاكتوي حلقه، وقطب، ونهض واتجه إلى الباب في صمت. فلحقت به ووضعت راحتها على كتفه، وقالت بلهجة هي أعذب وأرق ما صافح سمعه في سنوات «آسفه .... مسكين .... اعذرني وسامحني ...»

وارتمي على سريره في تلك الليلة وهو يقول لنفسه «ألا أنها لمعذورة، وتالله لأنا الذي جنيت هذا كله .. فما أقدر الانسان على الثرثرة والمغالطة»

وأدركه النوم وهو يحاور نفسه ويسألها «أتراني كنت أغالطها؟ أكنت أتفلسف عليها لأرد عنها ما يسوئها، ويثقل عليها، ولأدفع عنها ما يعذبها كما يفتح أحدنا الشمسية ويرفعها فوق رأسه ليتقي الشمس أو المطر؟ وهل ينفي هذا أن الشمس عظيمة الوقدة أو أن المطر يهطل؟»

ودخل في عالم آخر قبل أن يجيب أو يعرف الجواب -عالم ملؤه السكينة التي لا تخلو مع ذلك من مغالطة الأحلام

الفصل الرابع

(١)

ثم كانت «ميمي»

وهي طراز آخر من الأنوثة. لا تشابه تحية، ولا تشاكل عايدة، شبابها ريان، وجسمها بض في نصاعة لون، ووجهها كأنما يترقرق فيه ماء الحياة من نضرة النعمة، رشوف، عبقة، لبقة، لينة في منطقها وعملها، ناعمة في ملمسها، مطواع، لا كبر بها ولا تكلف، تتجمع أنوثتها في عينيها الدعجاوين، وتنطق منهما حين تبتسم فتضيقان. لا تعرف قولة «لا» ولا تحسن أن تقول «نعم» ولكنها تحسن أن تفعلها. أبرز صفاتها البساطة والقناعة. فهي تأخذ الأمور مأخذًا سهلا وتتناولها من قريب، وتقنع بالميسور، ولا تعني نفسها بما كان خليقًا أن يكون من خير أو شر. وتنظر إلى ما يسوء من جهته التي تجعله أضوأ أو أخف أو أهون وكانت صادقة لا تكذب، لأنها ما عرفت ولا أحست حاجة تدعوها إلى الكتمان أو مجانبة الحق. ولم تكن غريرة ولكنها لم تكن مجربة، فهي تدرك مطالب أنوثتها ولكن ما اعتادت - أو ما فطرت عليه- من تلقي الحياة بالرضي والتسليم والتهوين، يمنعها أن تلج بها رغبة، ويحميها أن يجمح بها مشتهي أو يشقيها حرمان أو يذلها

للرجل أنها مفتقرة إليه. ولم تكن بها جفوة أو جمود، ولكنها كانت ساكنة متزنة، إذا جاعت صبرت ولم تتلهف، وإذا شبعت شكرت، ولم تر أن تصيح من فوق المآذن بشكرها وسرورها، ولم يبطرها أو يغرها إحساسها بالشبع والرضي. وكانت دائمة البشاشة والتهلل، لا تستطيع أن تقطب حتى حين يغضبها أو يؤلمها شيء. وكانت لبسة صناعًا تحسن انتقاء الألوان وتؤثرها بسيطة، ولا تحبها زاهية أو مختلطة أو كثيرة الوشي والتفويف - وكانت تبدو كأنها لا تدرك أن لها من المحاسن ما يصبى الرجل إليها، ويفتنه بها. فكان يحاول على سبيل التجربة أن يثير فيها هذا الادراك الذي خيل غليه أنه ناقص، فيروح يصف لها مواطن الحسن في تكوينها وفى طباعها، فتبتسم أو تضحك. ولكنها تبدو كأنها لا تصدق. وكانت ربما قالت له حين يلح عليها بهذا الكلام كأنما يدعوها على الإعجاب بنفسها «إذا رسمت صورة جميلة فهل يكون للصورة فضل في جمالها؟» فكان يقول لها «اسمعى. إن لكل انسان حظه الموفور من الغرور، ولست أدري -ولا أنا أستطيع أن أتصور- كيف يمكن أن يطيق الإنسان الحياة لو فقد الغرور، والغرور فيما يري الناس رذيلة، ولكني أراه نعمة، أو على الأقل القدر الكافي منه لإطاقة العيش. وأنت كغيرك لا بد أن يكون لك شعور بنفسك. والا كنت كالحيوان الأعجم الذاهل عن نفسه وعن الدنيا. والإنسان يصاحب الحيوان ويبادله قدرًا من الود والاحساس - ولكن لا لذة له في مصاحبة انسان مثله إذا كان معدوم الإحساس بنفسه. وأحسبك تتكلفين هذا الذهول، وإنه لتواضع أو أدب منك جميل. ولكن الإفراط في تكلفه يخرج بك عن

حـد الطبيعـة القويمـة التـي لا تعترف بهـذا التجاهـل التـام للنفس»

فتقـول «ولكني كـما تقول مغـرورة، وحظـي من الغـرور أوفر مما تظـن. ولكـن هذا لا يدعـو إلى الأثقال عـلى الناس».

فيقـول «إذا قلـت لـك بلهجـة المؤمـن بـما يقـول، المخلـص فيـه، إنـك دميمـة أفلا يسـوئك هـذا؟»

فتقـول «نعـم. ولكنـك لسـت النـاس جميعًـا، والـذي تـراه أنـت قبيحًـا قـد يـراه غـيرك جميـلاً أو حميـدًا»

فيـسره منهـا هـذا الأسـلوب في تنـاول الأمـور والنظـر إليهـا من أكثـر مـن وجـه واحـد لتسـهل بـه وتهون.

فيعـود فيقـول لهـا «وقياسًـا على هذا يـسرك أن تسـمعي من رجل أنـك جميلة»

فتقـول «طبعًـا. ويزيـد في سروري أن يفيـض ذلـك، ويبـدئ ويعيـد، حتـى ولـو لم يكـن مخلصًـا»

فيقول «إذن لماذا تبدين كل هذه الدهشة حين أذكر مفاتنك؟»

فتضحك وتقول «لأستزيدك ولأغريك بالتكرير والتأكيد»

ولم يسـتطع أن يثـير فيهـا الإعجـاب «الظـاه» بنفسـها، ولكـن إلحاحـه عليهـا بالثنـاء عـلى ما يحمـد مـن مزاياهـا وصفاتهـا المحببة، أثمـر شـيئًا آخـر هـو حرصهـا عـلى دوام تميزهـا بهـذه الصفـات، وضنهـا بهـا أن تحتجـب أو تفـتر. وهـذا فعـل الإيحـاء الخفـي اللبـق سـبيله مع المـرأة، يصبها بـه في القالب الـذي هو أشـهي إليه وأحب.

وقد حذق ذلك حتى لقد قالت عنه تحية مرة «إني لا أستطيع أن أقاومه أو أغالبه، لأنه يستولى على، كالنوم، بلا ضجة أو عنف أو رجة، بل من غير أن أشعر، وبعد أن يقهرني يدعني للطبيعة، ولا يحاول التظاهر بصولته وقدرته. ومن يدري؟ لعله لو كان اشتغل بالتنويم المغناطيسي لكان أبرع فيه من « طهرا بك» الذي يفعل العجائب ويأتي بما يشبه السحر». وكانت هذه مبالغة من امرأته. ولعله يسرها أن تبدي جانب الضعف والخضوع ليلقي سلاحه ويطمئن ويحسب نفسه قد أمن، فتعود فتكر عليه وهو غافل. ومن مأمنه يؤتي الحذر.

وبفضل الإيحاء صارت ميمي مطواعًا له، حريصة على مرضاته، بما استقر في نفسها أنه مزيتها التي تحببها إليه. ولم تكن تعرف رجلا غيره معرفة تستحق الذكر، أو يمكن أن يكون لها أثر في نفسها أو سيرتها - إلا صادقًا قريبها.

ولكن صادقًا شاب يفزعها بما يحمل عليها به من فورة الشباب، فيغريها بالتوقي والتحرز، ويدفعها إلى النفور، ولم يكن الحب منه هو الذي يبعثها على الاحتماء منه، فليس الحب بمزهود فيه، وإنه لمنية قلبها وهوي نفسها، ولقد كانت في سريرتها مزهوة بحبه، ولكنها كانت تري صادقًا كالعباب الطاغي المربد المُزبد. فتشعر بالخوف على نفسها من الغرق فيه. وتحس أنه خليق أن يحملها على متنه الصاخب، ويرميها على صخرة تتحطم عليها. على حين كان إبراهيم يبدو لها كالغدير الصافي المترقرق في روضة أنف حالية بالزهر - لا يخيف، ولا يروع، ولا يقلق أو يزعج، بل يبعث فيها الأنس، ويشيع فيها السكينة، ويحلو التمشي على حفافيه،

والتنعم بمنظره وبنضرة ما حواليه. وإنه لسهل أن تغرق في مائة الرقراق، كما يمكن أن تغرق في العباب الخضم الراغى الطاغي، ولكنها إذا غرقت فيه، تغرق وهي حالمة ناعمة مطمئنه، واثقة من السلامة، بل منساقة إليه وراضية بالغرق فيه. فهنا اطمئنان، قد يكون كاذبًا ولكنه يغري بالمطاوعة والمسايرة والانسياق، مع الاستحلاء والاستمتاع، وهناك خوف من الضيعة، وإشفاق من مصير جارف، لا تملك لنفسها حياله مقاومة أو مدافعة. ومن أجل هذا كانت تنفر من صادق، وتقبل على إبراهيم، وزاد إقبالها أنها كانت تري وجوهًا شتي، ومعاني عدة، وتنعم بصور من المتع هي ثمرة التجربة والخبرة والفهم وصحة الإدراك وسعة الأفق. على حين لم يكن عند صادق إلا حبه المضطرم، واللون واحد والصورة لا تتغير، والمعاني لا تتعدد، والحلاوات المرتقبة أو المتخيلة لا تتفاوت طعومها، فهي خليقة أن تُمل وتُسأم.

وكان إبراهيم يحرص على تنويع أحوالها معه، بل لقد كان يتقي أن يكون كلامه على وتيرة واحدة، أو نسق لا يتغير، وكان يخشى أن تقول لنفسها «إني أعرف ماذا سيقول لي حين يلقاني، وبأي كلام سيبدأ حديثه» وكان لهذا يتحرى أن يخلف ظنها، فيلقاها كل مرة بجديد من القول والاستقبال والاقتراح والمتعة، وكان هذا لا يخلو من مشقة وعسر، ولكنه كان يهون الأمر على نفسه بقوله «إن من الجمود الذي ينبغي أن يتقيه الإنسان أن يجري في حياته مجري واحد. والحروف في كل لغة -إلا الصينية على ما يقال وأمثالها، إذا كان لها أمثال- محدودة العدد - سبعة وعشرون تنقص أو تزيد واحدًا أو أثنين. وانظر ماذا يتألف منها من الكلمات؟ عشرات

الآلاف في كل لغة .. وانظر ماذا تؤدي من المعاني؟ شيء لا يأخذه حصر. وكل هذا مستطاع ببضعة حروف قليلة لا تزيد على الثلاثين .. فإذا كان هذا مستطاعًا في اللغة التي نتخذها للتفاهم والبيان، فلماذا لا يكون مستطاعًا في غيرها؟ في كل شيء؟ إن قلة الاستطاعة كسل، أو نقص في الخيال، أو القدرة على الابتكار، نقص على كل حال .. ولن تكون الحياة كاملة بذلك. ولن يكون الإنسان قد أحسن الانتفاع بحياته إذا لم يستطع أن يجد لها كل يوم جديدًا»

وكان يجد لذة في هذا العناء، بل لذات -لذة السعي والاجتهاد، ولذة النجاح حين ينجح، ولذة الرضي الذي يحسه من ميمي. ولكن ضميره كان ربما نغص عليه عيشه وأفسد هذه اللذات جميعًا. فقد كان بعد أن يودع ميمي، ويكر راجعًا إلى البيت، يحاسب نفسه ويقول لها ولماذا لا أجتهد مثل هذا الاجتهاد مع تحية؟؟ أليست جديرة أن أتعب في سبيلها كما أتعب في سبيل ميمي أو سبيل نفسي معها؟ ولعلها، لو فعلتُ، تكون أسعد، وأكون أنا معها أسعد- ولا أحتاج حينئذ إلى ميمي أو سواها» ثم ينقلب مدافعًا عن نفسه فيقول «ولكنها سعدت باجتهادي معها سنوات حتى تعبت ومللت .. ثم لماذا لا تجتهد هي أيضًا بعض الاجتهاد؟ .. لماذا أحمل أنا العبء وحدي كله حتى أنوء به؟ لقد كان كل الاجتهاد من جانبي، وكان كل عملها أن تنعم بما أسرها به، وكانت كل مجاوبتها إظهار الشكر والرضى»

ثم يعود فيقول لنفسه «ألست أنت الرجل؟ أتعد صبرها عليك وأنت منصرف عنها فتورًا منها، وزهادة في تكلف مرضاتك؟ وهي إنما تبغي أن تفسح لك في الوقت حتى تراجع نفسك فترجع

إليها. إنها تنتظر متجلدة، فماذا يكون الحال، إذا ملت الانتظار والصبر، ودفعها اليأس منك إلى مثل ما دفعك الملل إليه؟ كن منصفًا. إنها تصبر على مضض، ولا تنشد عزاء أو تسلية، ولا تفكر إلا فيك، ولا تتطلع إلا إليك، ولا تحلم إلا بعودك، ولا تسعد إلا بذلك، وأنت تروح تقطف الأزهار اليانعة، وتنعم بشمها ومنظرها، وتنساها إلى أن تؤوب إلى بيتك، فتدخله كأنك داخل سجنًا أو فندقًا، تقوم فيه هذه المرأة الصابرة التقية على خدمتك فيه، ولا تسألك أين كنت ولا ماذا فعلت .. ثم تجيء وتحملها وزر ما أنت صانع. لا يا صاحبي .. ليس هذا من العدل في شيء»

وكان العجز عن اقناع نفسه بأنه على حق، وأنه لا يفعل ما يسوء، هو الذي ينغص عليه ما يفوز به من ميمي من الأنس والروح والريحان.

وكانت ميمي -وهذه إحدى مزاياها- تخفف عنه بعض هذا التنغيص بصحة إدراكها لواجبه لتحية، فكانت لا تطالبه بأكثر من منزلة الصديقة ولا تتطلع إلى ما فوقها ولا تكتم شكرها -بسلوكها إذا لم يكن بلسانها- لهذه المنزلة عنده. وكانت تأبى أن يتكرر لقاؤه لها في الأسبوع الواحد أكثر من مرة. وتقول له إن حق امرأته أولى بالرعاية. وكانت مخلصة في هذا لا تحاول به أن تزيد اجتذابه إليها. فكان يقول لها «إن حق تحية أمانة في عنقي أنا لا في عنقك. ولست مسئولة عنها ولا عنى فكفى عن هذا» فتقول له «كلا .. بل أنا أخشى أن يعتري صداقتنا ما ينغصها أو يجعلها تكليفًا شاقًا إذا أنت لم تحسن حالك مع تحية. فعالج هذا فإنه خير لك ولى».

فيقـول: «إذا حسـن الحـال عـلى نحـو مـا تبغين فـإن الأمـر خليق أن يفسـد بينـي وبينك»

فتقـول «لا يفسـد .. لأنهـا صداقـة تظل منشـودة لما تنطـوي عليه مـن تحـرر مما يربطنـي ويربطـك وما عسـى أن يثقل عـلى أو عليك في المسـتقبل، وثق أنـى أعرف مـا أقول».

فيقول معترفًا «المصيبة والبلاء أنى مقتنع أنك على صواب»

ويـروح يفكـر في ميمـي وحكمـة هـذا الطبـع النـادر. ويحمد الله لأنـه وقاهـا الغـيرة المرذولة التـي تفسـد حياة الرجـل والمـرأة جميعًا.

وكانـت ميمـي هـي التـي أبـت عليـه أن يسـتخدم سـيارته في نزهاتهـا. وقالـت لـه «إنـك اشـتريتها وأهديتهـا إلى تحيـة. فليس من اللائـق أن تعـود فتسـلبها إياهـا وتتنـزه بهـا معـي. لا .. إني لا أسـيغ هـذا .. فـدع السـيارة فـما بنـا حاجـة إليهـا».

وكان إبراهيـم قـد حـرص في هـذه المـرة أن يكتـم صلتـه بميمـي عـن تحيـة حتـى لا تتعـذب كـما تعذبـت مـن جـراء صلتـه بعايـدة. وكان الكتـمان يثقـل عليـه. ولكنـه رآه أدعـي لراحتهـا وراحتـه، وأرشـد عـلى العمـوم. وكانـت ميمي تـزور تحيـة غبا وتطيـل فترات الغيـاب، وتتحـري أن تكـون الزيـارة في وقت تعلـم أن إبراهيم ليس فيـه في البيـت، ولم يكـن هـذا بالعسـير فقـد كانـت تطلعه عـلى نياتها فيعتمـد الخـروج قبـل أن تـأتي.

واتفـق يومًـا أن كان إبراهيـم ذاهبًـا مـع تحيـة لقضـاء حاجـة مـن حاجـات البيـت التـي لا تنتهـي. وكانـا في السـيارة. فوقفـا عـلى بـاب بقـال كبـير. وإذا بميمي وصـادق خارجـان مـن دكان يحملان

لفافتين كبيرتين، فتبادلوا التحيات المألوفة. ودعت تحية ميمي إلى الانتظار ريثما تشتري ما تريد ثم تحملها معها لتخفف عنها هذا الحمل، فقبلت وذهبوا جميعًا إلى بيت ميمي. ورضي ابراهيم وتحية أن يبقيا قليلا للقهوة أو الشاي ولم يدر حديث يستحق الرواية. ولكن صادقًا كان لا يكف عن لحظان إبراهيم وزوجته ولا يكاد يحول عينه عنهما - فلما انصرفا قال لميمي:

«صديقك هذا .. أثق به وأرتاب في آن معًا .. هيئته .. كلامه .. لهجته الرزينة الهادئة .. إشاراته القليلة، بل النادرة، سكونه. كل ذلك يحملني على الاطمئنان. ولكن عينيه .. نظراتهما تحيرني. تشكني أحيانًا كأنما تريد أن تنفذ إلى ما تحت جلدي، وتغمض وتغيم أحيانًا أخري، حتى لأحسبه ذاهلا عن الدنيا وما فيها، فما يعنيه من الخلق شيء .. هل هو يحب زوجته؟»

فقالت «طبعًا يحبها .. ما هذا الكلام الفارغ؟»

فهز رأسه وقال «ربما .. لعلك أدري .. ولكن ما أدراك؟»

فقالت «أما أنه لسؤال عجيب ..»

فسألها «أتعرفينه هو أو امرأته..؟ أعني أيهما صديقك؟»

قالت «كلاهما»

قال «ولكني أراك حفية به هو على الخصوص»

قالت «إنه الرجل، ثم إنه رجل .. رجل محترم .. ما هذه الأسئلة البايخة؟»

قال متهكمًا «بايخة .. ربما .. الحق معك .. لكن ليتني أعرف سر تأثيره في نفسك»

قالت «وما شأنك أنت بهذا أو غيره»

قال «شأني أني أحبك .. ألا تعرفين هذا؟ ألم أخبرك به؟ تالله ما أعظم تقصيري.»

قالت «عدنا .. ألم أخبرك أنا أيضًا أن الذي حملني على احتمالك هو إبراهيم الذي تستريب به الآن؟»

فلم يزد على أن قال «شكرًا له. ولك على تذكيري».

ونهض يتمشى في الغرفة، ولا يتكلم. ثم اتجه إلى الباب وقال « نك ثمرة لا يطيب لي أن يقطفها لي أحد ويناولني إياها على طبق .. لا .... سأقطفها أنا بيدي متي استطعت، بل متى أردت فاعرفي ذلك. واحبيني أو ابغضيني .. سيان.»

فاستوقفته وكان يهم بالخروج. وقالت له ويدها على كتفه «صادق ... ألم نتفق أن نكون صديقين؟ قل إنك سكنت .. فإن هذه الثورات ترعبني .. وثق بإبراهيم .. ثق أنه يفهمك أحسن مما تفهم نفسك .. ولا يضمر لك إلا الخير».

قال «طيب هدأت .. ولكني مع ذلك سأقطف الثمرة .. في أوانها .. متى نضجت للقطف»

فآثرت ملاينته وقالت «متى نضجت ... متى نضجت»

ومضي وتركها قلقة. تشعر أن وراء ما قال ما كانت تود أن تعرفه لتطمئن وتأخذ حذرها. وودت لو كان معها إبراهيم في هذه الساعة ليمسح على قلبها ويرد إليها سكينة نفسها.

(٢)

وأقبل العيد. فأصبح الناس مفطرين بسنة الله الرضية، بعد أن صاموا رمضان بالبر، وكانت عادة إبراهيم -منذ ماتت أمه- أن يقضي العيد -كل عيد- مع تحية عند أبيها في البلدة، لا طلبًا للسكون، ولا رغبة في التملى لجمال الريف، فما كان بيته بالصاخب، ولا الضاحية غير جميلة. ولكنه كان يثقل عليه أن يري بيته في العيد وليست فيه أمه. وكانت تحية هي التي فطنت إلى هذا، فاقترحت أن يزورا القبر ثم يرحلا إلى البلدة، فصارت هذه عادة مرعية. وكان يود لو قضي يوما من العيد مع ميمي، ولكنها هي أيضًا كانت تهم بالسفر إلى أبيها فقال لها «تعالى إذن معنا فإنا ذاهبون بالسيارة فنقطع الطريق إلى دمنهور على مهل وهناك نفترق على أن نلتقي مرة أخري في الإياب». فأبت. وقالت «إن تحية خليقة أن تستغرب هذا وليس يحسن أن نثير هواجسها فحسبها ما عانت» وكانت ميمي تعرف قصة عايدة فقد حدثها بها .

وعرف صادق أن ميمي مزمعة سفرًا إلى أبيها. فاقترح عليها أن يذهب بها بالسيارة -سيارة أبيه- إلى الإسكندرية. وهناك

يقضيان النهار كله ثم يكران راجعين إلى دمنهور، فترددت ميمي فما كانت لها ثقة بهذا الفتي المقلق.

فسألها «أتخشينني يا ميمي؟»

ولم تستطع أن تبدو له مترددة، ولا أن يجيء جوابها أسرع مما ينبغي فيكون أدل على الخشية، فتمهلت هنيهة، وسترت ما تنطوي عليه بنظرة فاحصة ألقتها إليه، وطيف ابتسامة ساخرة على شفتيها. ثم قالت «أتظن جادًا أني أخشاك»

فقال وهو يروح ويجيء وعينه إلى الأرض «إنك فتاة عجيبة. وما أدري والله ماذا أظن، ولكنك لا تخشينني، وهذا جلى فلا ترفضي إذن .. تصوري يومًا كاملاً تقضيه في الهواء الطلق .. سأذهب بك إلى أجمل ناحية في الرمل، وسأكون خادمك، بل عبدك. ولا أكون معك إلا على الحال الذي ترضين .... لا لا لا .. لا تنظري إلى هكذا .. كوني امرأة حقيقية مرة واحدة في العمر .. على الأقل معي ...»

فصاحت به «صادق»

قال «ليس هناك أي سبب يمنع أن تذهبي معي .. وسأعني بك وأسهر على راحتك .. لماذا تحرمين نفسك هذه المتع البريئة؟»

ففكرت فيما كان إبراهيم قال لها وأشار به عليها، من إيلائه الثقة التي يضن بها عليه الناس، وأهله خاصة. وقالت «وماذا أعددت في رأسك لي من هذه المتع؟»

قال «إن كل ما رسمته رهن بموافقتك، نذهب من الطريق الصحراوي. ونستريح عند محطة (شل) ثم نستأنف السير فنقطع

الطريق كله في ثلاث ساعات ونصف ساعة، فإذا قمنا من هنا في الساعة الرابعة صباحًا استطعنا أن نبلغ الإسكندرية في الثامنة على الأكثر، ويبقى أمامنا النهار كله نرتع ونلعب إلى الخامسة مساءً. وتكفي ساعة واحدة للوصول إلى دمنهور».

قالت «وإلى أين نويت أن تأخذني في الرمل؟»

قال «لو أخبرتك بكل ما أعددت لك في رأسي لضاعت مزية الرحلة .. انتظري حتى يجيء كل شيء في أوانه، لتكون المتعة مضاعفة. على أني أستطيع أن أقول لك الآن إني أنوي أن ألقي اليك بالزمام لتفعلي ما تشائين».

قالت «ولكن الرابعة صباحًا»

قال «كما تشائين .. لتكن الخامسة .. ما عليك إلا أن تأمري فإني من الساعة خادمك المطيع».

وكان في صوته وهو يقول ذلك نبرة سرور صبيانية.

وبلغا أول الطريق الصحراوي، وهما صامتان. فأما صادق فكان كأنما أسدل على وجهه نقابًا كثيفًا. وكانت هي ربما أقلقها أنها تري نفسها عاجزة عن استشفاف خواطره أو التفطن إلى ما عسى أن يكون دائرًا في نفسه. ولكنها هي أيضًا كانت تحس بفتور عن الحديث وزهد فيه. وكانت تريد أن تستمتع بالبكرة المطاولة والحركة السريعة، ولم تكن تخشي السرعة، فقد كانت تعرف أن صادقًا جريء ولكنه حريص. وليست هذه أول مرة حملها في السيارة. وخطر لها أن هذا أقل ما ينبغي أن يحسنه شاب عاطل

ميسر الرزق، وانشنت خواطرها إلى إبراهيم فذكرت أنه هو أيضًا سيكون على الطريق بعد قليل، وابتسمت وقد تذكرت أنه لن يتخلى عن القيادة لزوجته، وإن كان يشهد لها بأنها أقدر عليها، لا لأنه يجد فيها لذة، بل لأنه يري أن الرجل يجب أن يكون في يديه الزمام في كل حال، حتى في مثل هذا الأمر الصغير لا ينزل عما يعتقد أن الرجولة تفرضه عليه، وشعرت وهي تفكر في إبراهيم أنه لا يخلو من غموض، نعم يقص عليها أخبارًا شتي، ويكاشفها بما يفعل أو يترك، ولكنه يأبي أن يجعل تحية زوجته موضع لغط بينهما .وكثيرًا ما تعجز عن فهمه، فقد قالت له مرة وقد خالجها خوف غامض «ألا تشعر بندم حين تفكر فيما نحن فيه؟» فنظر إليها مقطبًا وأطرق قليلاً حتى لخشيت أن يقول لها إنه نادم. ثم رفع رأسه إليها وحدجها بنظرة قوية وقال «لماذا تسألين؟ لا. لست نادمًا إذا كان يعنيك أن تعلمي»

فأحست حين سمعت منه ذلك أنه يوبخها، ولكنه قال بعد ذلك «لا لست نادمًا. إن الندم لا ينطوي على إخلاص صادق»

فاستغربت قوله، وسألته عما يعني، فقال «إنه يا فتاتي الساذجة أشبه بالأسف على توسيخ ثوب جميل، هذا هو الندم، الرجل يريح نفسه من ثقل ضغطه باللغط به. والمرأة تريح نفسها منه بالبكاء. كلاهما يهرب مما ينبغي أن يستتبعه الندم الصادق بدلا من أن يعمق شعوره به. فإذا سمعت من يقول لك إنه نادم فاعلمي أنه بلسانه يحاول أن يوجد متنفسًا لما يضيق صدره به، أو يدافع بلسانه عن نفسه. لا .. لا محل للفظ الندم .. فإنه أكذوبة. فإما التوبة النصوح. وإما المضي على الوجه بغير تلفت .. أما أن

تكـون عـين في الجنـة وعـين في النـار، فأنـا عـلى الأقـل لا يطيـب لي هذا».

ولم تسـتطع ميمـي أن تتبـين معنـي هـذا مقرونًـا إلى سـلوكه معها ومـع زوجتـه وألفـت نفسـها تتسـاءل «هـل هـو ينطـوي لي عـلى حـب؟» ولم تسـتطع أن تهتـدي إلى الجـواب، فـإن إبراهيـم لا يلهـج بالحـب، ولا يجـري بـه لسـانه إلا نـادرًا -وقد سـألته مرة عـن الحب ورغبـت أن تسـمع منـه كلامًا فسـألها «أي حـب تعنين» -قـال هذا، كأنـما هنـاك دكان فيـه ألـف صنف مـن الحب- ثم أمسـك وقـال لها بعـد قليـل «لا تكـوني حمقـاء .. إذا كنـت راضيـة عـما أنـت فيـه فـلا تفسـديه بـأن تطلبي أن تسـمعي كلامًا فارغًـا حلوًا، فلا تسـمعي إلا كلامًـا يفسـد عليـك حـلاوة مـا تنعمـين به. ثـم إيـاك والغـيرة فإنها بـلاء. وفسـحة العيش أقصر مـن أن نضيعهـا أو نضيع دقيقـة واحدة منهـا فيـما تجره الغـيرة السـخيفة مـن عنـاء وبلاء».

فـأرادت أن تبـين لـه أن سـؤالها لم يكـن مصـدره الغـيرة. فـأبي أن يسـمع وقال «اسـمعي. أنـت لا تغارين من أحـد فيما يتعلـق بي، وأنا لا أغـار مـن أحد فيـما يتعلق بـك. هـذه سـبيل الراحة والوسـيلة إلى صفـو الـود بيننا»

وكان هـذا أول درس تلقتـه عنـه، ولم تفهمـه كل الفهـم، ولكنهـا أذعنـت. وخطـر لها والسـيارة تخطـف في طريق الصحراء أن سـلوكه مـع زوجتـه لا بـد أن يكـون مختلفًـا، وأحسـت وهـي تفكـر في هـذا أن يـد صـادق قـد صارت عـلى يدهـا فالتفتـت كالمذعورة وسـحبت يدهـا. فضحـك بـل قهقـه وقـال: «ألا ترين أنـك تخشـينني؟ والحق

معـك فـإني وحـش .. أحيانًـا .. ولكـن من الخـير أن يواجه الإنسـان الوحـش لا أن يفـر منـه .. عـلى أنـك رضتـه يـا ميمـي .. أتذكريـن؟ لقـد قبلـت هـذا الوحـش مـرة. وكانت هـذه القبلـة أعظم ما فـاز به في حياته».

وكان يلتفـت إليهـا وهو يقـول ذلك. ولكـن نظرته كانـت وديعة لينـة كأنـما يريـد أن يطمئنهـا ويـصرف عنهـا الخـوف فقالـت «لقـد ظللـت بعدهـا أتسـاءل أتـراني لم أخطـئ حـين قبلـت الوحش؟»

قـال «إذن كفـي عـن التسـاؤل. فقد صارعـن هذا الوحـش الذي في نفـسي بعدهـا ولا أقـول إني صرعتـه، ولكنـي أعـرف الآن أن في وسـعي أن أواجهـه. وهـذا كلـه بفضـل قبلـة واحـدة قصيرة.»

فتنهـدت وشـعرت أن هـذا الـكلام لا يقـرر الثقـة مـع ذلـك في نفسـها ولا ينفـي القلـق. وألفـت نفسـها تتلهـف عـلى الطمأنينـة التـي تجدهـا حـين تكـون مـع إبراهيـم. ولكنهـا ردت نفسـها عـن الاسترسـال في هـذه الخواطـر وقالـت «إذا كانـت قبلتي قـد صنعت هـذا فلسـت آسـفه عليهـا.»

فرمـي إليهـا ابتسـامة عوجـاء، وقـال «أظنـك سـتجعلينني رجلاً طيبًا إن شـاء الله»

قالت «إنما أريد أن تكون كخير ما تستطيع»

قـال «أحسـب أنـك رسـمت لي الصـورة التـي تريديـن أن أكـون مثلها »

وضحك ثم قال «مما يدعو إلى الأسف أن الصورة التي في رأسك ليست إلا أسطورة .. جميلة بلا شك. ولكنها من نسج خيالك البديع»

وبلغا محطة شل فترجلا وذهبا يعدوان إلى المقاعد ويصفقان للخادم فمال صادق نحوها وقال:

«ما قولك في قضاء النهار هنا بدلاً من الإسكندرية؟»

فخفق قلبها مرتاعًا، فإن المكان موحش، وليس صادق بالرفيق المأمون. وليس ثم أحد فيما تري إلا الخدم. ولكنها تجلدت وقالت «أتعبت؟» قال «لا وإنما أود أن تعرفي أن ههنا مطعمًا وفندقًا فإذا شئت بقينا .. بل بتنا أيضًا وإلا فإلى الإسكندرية .. لماذا يجمح بكِ سوء الظن؟»

فتشهدت. وجاءت القهوة فشرباها. ونهض صادق ليتزود لسيارته من البنزين والزيت، وغاب قليلاً ثم عاد بوجه كاسف وقال «يظهر أن المحرك به بعض التلف .. أظنه يسيرًا. وقد تركت عاملاً يعالج أن يصلحه .. لا تخافي .. سنصل إلى الإسكندرية ولكن بعد الوقت الذي قدرناه .. هذا كل ما في الأمر.»

فعاودها الخوف وقالت «وإذا تلف في الطريق مرة أخري؟»

فلم يطمئنها بل زادها قلقًا فقال «يكون الله في عوننا.»

قالت «ماذا تعني؟»

قال «ليس في الطريق محطة أخري ولست أتوقع أن يحدث تلف آخر. ولكن إذا حدث فإنه لا يكون في وسعنا أكثر من أن ننتظر نجدة أحد المسافرين إذا كان يستطيع النجدة».

قالت «فإذا لم يستطع»

قال «نبيت في السيارة. أو يحملنا أحد المسافرين معه إلى القاهرة أو الإسكندرية».

فنهضت تتمشي وهي تقول «كان ينبغي أن أتوقع هذا»

فلم يرحمها وقال «ألا ترين أن الأفضل والأسلم أن نبقي هنا؟»

قالت «بل نعود إلى القاهرة .. ماذا يقول أبى؟ ماذا تقول أمي؟ ماذا ..؟» فأشار إليها أن كفي وقال «أظن أننا سنتشنج»

قالت «أنا لا أتشنج أبدًا»

قال «هذا بشير خير .. إذن كوني عاقلة وتقبلي ما يكون بالحلم والصبر .. ليس لي فيما حدث حيلة ثم إنه لا يحوج إلى كل هذا»

ولكن نصف النهار انقضي والسيارة تأبي أن تصلح. فدعاها إلى الغداء. ولكنها رفضت أن تتناول شيئًا. ولم يبق لها هم إلا أن تعود إلى القاهرة. وكانت لا تفتأ تصيح به «ما هذا التلف المفاجئ الذي أصابها؟ إني لا أصدق .. لقد وصلنا إلى هنا وهي على خير حال .. فلا بد أن تكون قد صنعت شيئًا أتلفها عمدًا. إن السيارات لا تفسد هكذا فجأة بلا مناسبة. ثم إنها جديدة. فغير معقول أن تفسد بهذه السرعة. وفجأة. بعد أن كانت تسير كالجواد الأصيل.»

قال «إن الرجل يبحث عن العلة»

قالت «ومتي ينتهي؟»

فهز كتفيه وقال «علمي علمك. فإني لا أحسن إلا القيادة»

قالت «أنا لا أعتقد أن السيارة أصابها شيء»

قال «سلي العامل»

قالت «أشكرك .. وماذا يمنع مثلك أن يرشوه ليكذب؟»

قال «اسمعي. أوسعيني سوء ظن. فإن هذا لا يعنيني. ولست أول مخلوق فعل ذلك. كل الدنيا تعدني مخلوقًا لا خير فيه. لا بأس: زيديهم واحدًا. ولكني لم أصنع هذا الذي ترمينني به. صدقي أو لا تصدقي. سيان .. لقد حاولت أن أكون طيبًا كما تريدين .. سنة كاملة وأنا أعالج وأجتهد أن أعيش بالفضيلة والخير كما دعونني .. طلبًا لمرضاتك. لا لأني شرير. فلست بذاك وليس من الشر أن أحبك. بل لأنك ترين أن تغيري ما بي. لا أدري لماذا. فأنا أروض نفسي على السلوك الذي هو أحب إليك. ثم ماذا كانت النتيجة؟ أنك ما زلت على رأي الناس جميعًا في .. وأقول لك الحق إني مللت هذه الفضيلة. كما تتصورينها .. الفضيلة التي تأبي أن يكون الإنسان كما خلقه الله. أي عيب في أن أحبك؟ أي رذيلة في هذا؟»

وسكت وراح يتمشى ثم التفت إليها وقال «لقد كففت عن هذه المحاولة وأرحت نفسي من عناء باطل»

فزوت ما بين عينيها، وقالت وهي ترجو أن تتألفه بالكلام اللين «لقد كنت أرجو أن تنتهي إلى غير هذا»

فقال «كيف يمكن..؟ عام كامل وأنا أحيا حياة الأولياء الصالحين. تصوري هذا في سني .. ثم ماذا؟ لا أراني أدني إليك أو أحب مما كنت .. لا يا ستي .. إني شاب وهذه الخطوات

البطيئة لا تطاق .. ولست أستطيع أن أظل هكذا إلى ما نهاية»

قالت وهي لا تزال تحاول التسكين «ومن الذي يستطيع أن يعرف أين أو متي تكون النهاية أو ماذا قسم الله لنا؟»

قال «آه هذا كلام خليق بإبراهيم وأظنه مما لقنك .. لا يا ستي مرة أخري. إني أعرف ما أريد وأعرف الطريق إليه. الطريق الذي يبلغ لا الذي يقصي»

وقعد على كرسي بعيدًا وساد الصمت برهة. وهي تفكر فيما قال وفى دلالته التي لا تخفي ثم قالت» ليت هذا العامل يسرع»

فنهض وأشار إليها أن تتبعه ومضي بها إلى حيث السيارة والعامل فقال لها إنه اهتدي إلى العلة وهي في الأسلاك. وسيعالجها بأسرع ما يستطيع. فمضيا عنه وراحا يتمشيان وقد اطمأنت قليلا وجري في بالها أنه يستوي أن تذهب إلى الإسكندرية أو القاهرة فإنها تستطيع بعد ذلك أن تتخلص من صاحبها. وإنما العقدة في الطريق والله المسئول أن يلطف بها.

وكانا يسيران في صمت ثم تلفت صادق فلم ير أحدًا فانثني إلى ميمي يقول فجأة «عل مللت الانتظار؟ إذن لا انتظار بعد ذلك»

فأحست بمثل لسع النار من أنفاسه علو وجهها. وقبل أن تتبين ما هو صانع، كان فمه على فمها، وراح يقبلها كما لم يقبلها أحد في حياتها، وكانت تنتفض وترتعد، ولكنها عاجزة عن التخلص من عناقه، وكان تطويق ذراعيه لها يؤلمها

وصاحت به وقد رفع فمه «هلل جننت؟ دعني»

قال»نعم جننت» وأهوي عليها مرة أخري بفمه المضطرم. وعادت وهي تحس بلسع النار من فرعها إلى قدمها. وحاولت عبثا أن تقاومه فقد كان كالوحش الضاري. ثم أمسك فجأة وخلاها، وتراجع خطوة، وهو يقول «أتظنين أنك تستطيعين أن تقصيني إلى ما لا نهاية؟ إذن فاعلمي أن هذا يزيدني جنونًا. ولماذا تقاومين ما كتب الله كما تقولين؟ لقد بذلت من المقاومة ما فيه الكفاية ولقد انهزمت أخيرًا .. حولي وجهك عني إذا شئت. سيان. لقد ظللت أنتظر أن تسنح لي مثل هذه الفرصة. وقد شاءت إرادة الله أن تسنح فأنا أغتنمها. لقد كنت إلى الآن كأنك فوق منصة عالية تلقين منها الأوامر إلى. أما بعد الآن، أما اليوم فأنت امرأة ليس إلا»

فكادت تيأس. ولكنها أحست ومض أمل خافت بأن النجاة ليست مستحيلة - وكان احساسها بالغريزة وحدها لا بالعقل، كما يحس الحيوان المطارد. وكانت تعلم أنها معه هنا كأنها في قلب غابة تحترق. ولكنها مع ذلك لم تفقد الأمل وأيقظ الفزع نفسها فقالت «ومع ذلك تقول إنك تحبني»

فصاح بها: «إيه؟ أتجرئين على الشك في هذا؟ هل تريدين امتحاني؟ أتريدين أن أقدم لك الدليل؟»

قالت «نعم»

فأخلي سبيلها وقال «والآن ماذا؟»

فكادت أن تسقط بعد أن فك إسارها بغتة. وخطر لها أنه ما أطلق سراحها إلا ليسخر منها. وخيل إليها أنها تنظر في عيني نمر. ولكنها تشددت وقالت «والآن يجب أن نتفاهم»

فضحك ملء شدقيه وقال: «نتفاهم؟ ألم تفهمي أن مثلي حين يريد شيئًا يأخذه ولا ينتظر أن يعطاه؟»

فاعتدلت في وقفتها وقالت له بلهجة كلها كبر: «أو تظنني من اللواتي يؤخذن؟ أو تحسبني ملكك؟ إذا كنت تظن ذلك أو تتوهمه فإنه ينقصك أن تعرفني. ولا أنا مع الأسف كنت أعرفك»

فقال «نعم أعتقد أنك ملكي، وأنك لي. ويجب أن تعترفي لي بأني كنت صبورًا جدًا»

قالت «كلا. إنك تبني على أساس من الرمل، ولخير لك أن تدرك خطأك بسرعة. لقد عاملتك كما ينبغي أن يعامل القريب وزدت فعددتك صديقًا. وتوهمت أن من الممكن أن أثق بك. ولكني لن أرتكب هذا الغلط مرة أخري»

قال «ولماذا تقولين لي هذا الآن كأنه يمكن أن يغير شيئًا؟»

ولم يزد منها قربًا أو بعدًا، ولكنها أحست أنه متربص للوثبة وقالت: «نعم يغير أشياء»

قال «هذا وهم منك، وإنك لتخدعين نفسك، ولكنك لا تخدعينني لقد نفذ صبري، فأنا آخذ عنوة ما لا يؤخذ صبرًا»

قالت ساخرة» وتسمي هذا حبًا؟»

قـال «سـميه ما شـئت فلسـت فيلسـوفًا كصاحبك. كل مـا أعرفه أني أنـوي أن أجعـل مـن هـذا التمثـال امـرأة مـن لحـم ودم. إني لم أسـتطع أن أصعـد إلى الـذروة التـي تقعديـن فوقهـا، فعليـم أن تنزلي إلى حضيـضي ليتمكـن أن تكـوني آدميـة حيـة»

وسمعا العامل يناديهما من بعيد فارتدا إليه.

(٣)

وكانت ميمي وهي راجعة مع صادق إلى حيث العامل والسيارة تدير عينها في الصحراء المتقاذفة، وفي الشمس التي أخذت تميل، وتطيل الظلال، وفى هذا القريب الذي تخشي أن تعصف بها ثورة نفسه، وهياج حرقاته، وما تعلم ويعلم من قلة النصير، وفيما يحسن أن تصنع لتخرج من هذا المأزق بغير ضجة، وتؤنب نفسها على مطاوعتها له وثقتها به، ولا تبخل باللوم على إبراهيم لأنه هو الذي أغراها بالاطمئنان إلى هذا الفتي الأحمق ودعاها إلى إيلائه الثقة التي تبينت الآن أنه لا يستحقها، ومع ذلك كانت تتمني لو تسير لها أن تتصل بإبراهيم لتستشيره.

وسمعت صادقًا يقول لها لصوت امتزجت فيه الرقة بالعنف: «ماذا جري؟ إنك كنت تحبينني»

وسمعت نفسها تقول وكأن الصوت غير صوتها «أنا ما أحببتك قط. إنما كنت لك صديقًا»

فقال «كنت؟ هل تعنين أنك تبغضينني الآن؟»

قالت «لا .. ليس لك في قلبي حتى ولا البغض»

فقال وهو يضحك ولا يفهم «لا بغض، ولا حب. فماذا إذن؟»

قالت» الاحتقار ليس إلا»

وعضت لسانها نادمة وأدركت أنها زلت. وخشيت أن يزيده هذا حماقة وطيشًا. وراح رأسها يدور وأحست الأرض غير مستقرة أو ثابتة، وأزعجها أن تحتاج الاتكاء على صادق، فتشددت وتماسكت بجهد، واستغربت من نفسها أنها تذكرت في هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات المخيفة، يوم دخلت على التلميذات وحدها أول مرة وفى يسراها دفتران واحد للأسماء والآخر لتحضير الدروس، وكانت قد أعدت درسها بعناية وكتبته بخط واضح جميل، ووضعت تحت العناوين خطوطًا حمراء، وتوقعت أن بهر التلميذات بالوقار والسمت وحسن الإلقاء والبيان، وإذا بالتلميذات يقف بعضهن -أقلهن- وهن جميعًا يتلاغطن، ورؤوسهن متدانية، وأصابعهن مشيرة إليها. ومنهن من وضعن أيديهن على أفواههن ليكتمن الضحك، ومنهن اللواتي ضحكن غير متحرزات أو عابئات. وهي واقفة لا تدري ماذا تصنع لتفيء بهن إلى الصمت والسكون. وما يجب أن يتلقين به معلمتهن من التوقير. وظلت هكذا لا تقول أو تفعل شيئًا ولا تحرك يدها بإشارة، ثم أفتر ثغرها بكرهها عن ابتسامة خيل إليها فيما بعد أنها ابتسامة السخر من نفسها أو اليأس من قدرتها على السيطرة على هؤلاء التلميذات .. وإذا بهن يبادلنها ابتسامًا بابتسام، ويرخين أيديهن، ويقفن معتدلات القدود. فأشارت إليهن أن أقعدن فقد أشفقت أن تنطق فيشي صوتها باضطرابها. وسلس لها الأمر بعد ذلك، ولم تعان مشقة معهن.

وخطر لها -وهذه الصورة ماثلة لعينيها- أن لعل إبراهيم على صواب، وعسى أن يكون رأيه ونهجه أسد. وقد تكون الحسنى أرشد وأحق أن تبلغها أمنها

وبلغا السيارة، وجرب صادق محركها، وحمد ما صنع العامل، وأنقده أجره وسخا فيه، ودعا ميمي إلى الركوب. فقالت وهي تبتسم «ألا تري أن الأحزم أن نتزود للطريق»

ورأي ابتسامتها، ونظر إليها مليًا، كأنما يتفرس، ثم وثب إلى الأرض وتركها تتمشى حول السيارة ثم عاد بسجاير وطعام. وكان في السيارة (ترمس) صغير وآخر كبير فأراق ما فيها من ماء وذهب إلى المقصف وعاد بعد برهة وقد ملأ الصغير قهوة، والكبير ماءً مثلوجًا. وأشار إليها أن أركبي ففعلت بلا سؤال، فأدار المحرك مرة أخري وخرج بالسيارة من نطاق المحطة حتى بلغ الطريق المعبد. فوقف وسألها إلى أين؟ فأبدت قلة اكتراث وقالت «كما تشاء» فانطلق في طريق الإسكندرية.

وأحست بالجوع ففكت إحدى اللفافتين وأخرجت منها أربعة سندوتشات وجعلت تأكل وتطعمه، وتنفض عن ثيابه ما يتساقط من الفتات، وهو بادي الرضي والسرور، وإذا بالسيارة كأنما يقف محركها ثم يعود إلى العمل من تلقاء نفسه. وكان لهذا العارض رجة خفيفة شعرا بها، ولكنها لم تتكرر إلا بعد عشرة كيلو مترات أو نحو ذلك. وبدا على صادق القلق ولا سيما بعد أن أحس هذا العارض مرة ثالثة بعد مسافة قصيرة. فأراد أن يسرع ولكن السيارة كانت كأنما لا تستطيع أن تمضي بأسرع مما تفعل،

وقطعا على هذا الحال، ومن غير أن ينبسا ببنت شفة أكثر من سبعين كيلو مترًا وإذا بالسيارة يخرج منها صوت كالحشرجة ثم يقف المحرك. وعبثًا حاول صادق أن يديره مرة أخري، وقد ظل يجاهد حتى تصبب منه العرق.

فقالت ميمي «يحسن أن تستريح» وتكلفت أن تهون الأمر فقالت مازحة «من يدري .. لعل بالسيارة أيضًا حاجة إلى الراحة..»

فصاح «كلام فارغ .. هذا العامل حمار ولا يستحق مليمًا واحد مما أخذ .. ولعله أتلفها وهو يحسب أنه أصلحها.»

قالت «لا فائد من هذا الكلام الآن.»

قال «ولكن ماذا نصنع الآن؟ لو كنا بقينا في المحطة لأمكن أن نجد لنا حيلة .. وكنا نستطيع أن نبيت إلى أن تأتينا نجدة. أما الآن فهل نبيت في الصحراء؟»

قالت»ولماذا؟ ألا يمكن أن تمر بنا سيارة فتحملنا؟»

قال «ونترك سيارتنا؟ مستحيل. هذا تخريف.»

قالت «للضرورة أحكام».

فعاد يقول «مستحيل»

قالت «ابق إذا مع السيارة العزيزة أما أنا..؟

قال «ها .. أهو ذاك ..؟ تظنين أنك نجوت مني؟ سترين أنك مخطئة. فما لك من نجاة وقد وقعت في يدي»

قالت ساخرة «وقوع العصفور في فم الأفعوان؟»

قال «تمامًا .. الآن فهمت سر اللطف والظرف ..» وهز رأسه ودس يده في جيبه وأخرج رأس مسدس وقال «أتعرفين هذا؟ هل رأيت مثله في حياتك؟ هل تعرفين ماذا يصنع الناس به؟»

فاصفر وجهها وارتجفت شفتاها وهي تقول «لقد كان ينقصني أن أعرف إنك ندل ووغد»

فقال وأعاد المسدس إلى مكانه وكان فارغًا غير محشو. ولكنها لم تكن تعرف هذا «أنا كل هذا وزيادة. وليس يعنيني أن يسوء رأيك في وإنما يعنيني أن أنال مأربي. ولا تحسبي أني سأقتلك .. كلا .. إني أحتفظ بك لنفسي وأدخرك لمتع كثيرة سأفوز بها منك. برضاك أو بكرهك. سيان ..»

قالت «لن تقتلني ولن تقتل نفسك طبعًا لأنك تدخرني لمتعتك. فلماذا تحمله إذن؟»

قال «لأقتل به من علمك كرهي»

فضحكت ولكنها كفت فجأة وقد خطر لها أن لعل المعني إبراهيم وصاحت وقد ارتفعت يدها إلى جانبها: لا لا لا لا.

فدنا منها ورماها بنظرة فيها من الغضب والغيرة معان. وقال «تحبينه؟»

فرفعت رأسها وحدجته بنظرة المتحدي «وما شأنك إن كنت أحبه أو لا أحبه؟».

قال «يا للجبانة .. لا تجرئين حتى على الاعتراف بحبه .. وإذا كنت لا تحبينه فلماذا تفضلين رجلاً على رجل؟»

فصاحت «يا سافل .. كيف تجرؤ على هذا الكلام؟»

قال «أتحسبين أني لا أعرف أنك تخرجين معه. فهل تريدين أن تزعمي أنكما تخرجان للصلاة والتعبد؟»

فلم تجبه أنفه ومضت عنه إلى سلم السيارة فقعدت عليه وتناولت سيجارة أشعلتها. ولم يكن التدخين عادة لها ولكنها كانت تجد فيه راحة وتفيد منه سكينه.

ودنا منها وأشرف عليها وقال «هذا أحسن .. نعم فكري بهدوء في هذا - أعني أني أنا أولي منه بك»

فانتفضت قائمة ولطمته على وجهه ثم انحطت على السلم وكادت تسقط على الأرض مغشيًا عليها، فما كانت تشعر أن فيها ذرة من القوة لو لا أنه انطلق يقهقه كالمجنون فرد هذا إليها رشدها فرفعت رأسها إليه وحملقت في وجهه فانحني عليها وقال «هذه اللطمة إقرار منك بأنك فهمت ما أعني أتم فهم وأدقه. ألست أولي منه؟ اعترفي بهذا أيضًا. اعترفي بيدك إذا كنت لا تجدين لسانك. هذا خدي ألطميه مرة أخري».

فكادت تبكي من الغيظ والشعور بالعجز. ولكنها ردت الدموع مخافة أن تشي بما هي فيه. وودت لو مرت في هذه اللحظة سيارة لتصيح بمن فيها مستنجدة ولكن الشمس كانت تنحدر والأفق يلتقي بالصحراء، والطريق يذهب شمالاً وجنوبًا كالنهر،

ولا يبدو شيء مقبلاً من هنا أو هنا، وأحست بالحاجة إلى تمزيق وجه صادق بأظافرها أو تمزيق ثيابها هي وخطر لها أنه قد يروقه -فإنه حيوان- أن يري المحجوب من مفاتنها. فلم تمزق ثيابها ولكنها ضمتها على صدرها. ولم تفت صادق هذه الحركة فسألها «هل تشعرين ببرد؟»

قالت «نعم» بصوت خيل إليها أنه خارج من جوف الأرض لشدة خفوته وضعفه فخلع سترته وأراد أن يلقيها على ظهرها فانتزعتها من يده ورمتها على الأرض وداستها بقدمها. وسرها أنها مرغت في التراب شيئًا له وتمنت لو كان هذا وجهه. ولكن صادقا لم يعبأ بهذا شيئًا وقال وهو يقعد على الأرض فوق السترة «أشكرك .. إن السترة أوثر من الرمل، ثم إن الرمل لا يوسخ شيئًا وهذه مزية الصحراء. وبعد قليل يدخل علينا الليل ويلفنا في شملته .. وليل الصراء يارد يا مولاتي .. وستضطرين أن تلوذي بالسيارة وستحتاجين إلى قربي للدفء .. أي نعم .. الخيرة في الواقع .. لا بد أن الله أراد هذا، وإلا فلماذا تعطلت سيارة جديدة كهذه في قلب الصحراء، وما أشتاها الوالد المحترم إلا منذ أربعة شهور ليس إلا؟ وفى أربعة شهور لا تخرب السيارة الجديدة. هي مشيئة الله يا مولاتي»

فألفت نفسها تقول «أليس حتى لأبيك احترام عندك؟»

فقال «وهل من قلة الاحترام أن أدعوه الوالد المحترم؟ سبحان الله العظيم وتالله ما أظلمك» فلم تجب. وبعد برهة عاد يقول «معذرة يا ستنا ميمي ... سؤال لا يليق ولكن أظن الموقف

يوحي به .. أتري لو كان إبراهيم مكاني وكانت سيارته هي التي تعطلت بك معه. أكان يسوئكما أن تتاح لكما هذه الفرصة؟»

فوضعت رجلاً على رجل وأشاحت عنه بوجهها. ومضي هو في تعذيبها فقال «إن له سيارة لا بأس بها ولكنه يتركها للزوجة المسكينة .. يضحك بها عليها .. يلهيها بها .. ويخرج معك في تاكسي أو مركبة خيل .. هذا الرجل لا سافل ولا نذل .. ولا وغد ولا شيء مما تفضلت به على من النعوت الجميلة. وأنا السافل أنا النذل .. ليس لي زوجة وإنما لي قريبة أحبها ومن حقي أن أحبها ... وهي أيضًا ليس لها زوج .. ومن واجبها أن تتوقع أن يرغب فيها من كان مثلها .. لا امرأة له .. ليس في هذا ما يستغرب .. لأنه هو الطبيعي .. ولكن الطبيعي ليس هو الطبيعي في نظر المدموازيل ميمي .ز لأن المدموازيل ميمي تري أنها تهب نفسها لرجل له زوجة وتضن بنفسها على رجل ليست له زوجة .. ويصبر هذا المحروم بغير حق .. ويطول صبره حتى ينفد .. ولكل شيء آخر. وبعد أن ينفد صبره تستغرب المدموازيل ميمي أنه لم يبق له صبر وتقول له أنه نذل. نذل لماذا؟ لأنه يحبها بحقه .. يحبها كما تعرف فما كتمها حبه .. ولو كانت تقبلت حبه لما أحتاج أن يلجأ إلى الوسيلة التي يشير بها اليأس ولكنها أيأسته .. أيأسته حتى لم يعد في وسعه أن يصدقها إذا قالت وأقسمت إنها تتقبل حبه لأن هذا لن يكون منها إلا محاولة للإفلات من يده. كوني منصفة وقولي إن هذا الرجل معذور»

فثارت به تلعنه وتقول له فيما تقول «وماذا تظنني؟ سلعة .. كتابًا على رف؟ أحببت من تشاء. ولكن أليس لي رأي في نفسي؟»

فقال بتهكم «تري ماذا أعجبك من إبراهيم هذا؟ سفسطته وثرثرته؟ فلسفته العجز؟ ماذا بالله؟ لا بد أن يكون شيء أعجبك؟»

وفى هذه اللحظة أقبلت سيارة تخطف فنهضت وجعلت تشير إليها ولكنها مرت ولم تتلبس. وكان صادق قد التفت أيضًا إلى السيارة وأشفق أن تقف فلما مضت تبسم وقال «لا فائدة يا قريبتي العزيزة .. وطني نفسك على التسليم لقضاء الله»

وارتمت ميمي على السلم مرة أخري وقد بدأ اليأس يخامرها. وماذا يكون مصيرها إذا ظلت كل سيارة تقبل وتمر خطفًا ولا تقف؟ وسيجيئ الليل كما أنذرها فتختفي في ظلامه الإشارة. وقد لا يسمع صوتها أحد ممن في السيارات إذا صاحت مستنجدة. ومن يدري فقد يخطر لهذا المجنون أن يكمم فمها ويقيدها ..

وقال صادق «اسمحي لي .. أعني أني أرجو أن تنهضي عن السلم فاني أريد أن أجر السيارة عن الطريق مسافة متر أو مترين لتكون ونكون فيها في مأمن من الحوادث. ألا توافقين؟»

فنهضت وهي تقول: «وماذا يهم؟» وتمنت أن يصدمها صادم فيكون هذا مخرجًا لهذا.

وأقبل صادق على السيارة يدفعها ويحولها عن الطريق إلى الأرض الرملية على حين وقفت تتلفت يائسة فما كانت تري شيئًا. وانحدرت الدموع بكرهها فكفكفتها. وكان صادق مشغولاً بالسيارة وتحويلها - يدير العجلات ثم يروح يدفعها من الأمام وهكذا حين أقبلت سيارة صغيرة لم ترها ميمي إلا وهي

عـلى مسـافة قصـيرة فاندفعت إلى وسـط الطريـق ورفعت كلتـا يديها وراحـت تشـير إشـارة الوقـوف وتنظر عن عـرض إلى صـادق وكان ظهـره إليهـا فهـو لا يـري. وخطر لهـا أن السـيارة الآتية قد تدوسـها إذا ظلـت واقفـة في طريقهـا هكـذا. ولكنهـا كانـت لا تبـالي أو تعبـأ شـيئًا بـما عسـى أن يصيبهـا بل لقـد تمنت أن تـداس. فإن هـذا منجي عـلى كل حال. غير أن السـيارة لم تدسـها بـل وقفت عـلى مترين منها ونـزل منها انجليزي رفع القبعة. وسـألها هل يسـتطيع أن يسـاعدها.

وإذا بهـا تسـقط عـلى الأرض مغشـيًا عليهـا. وأدركهـا الرجـل وحملهـا عـلى يديه ونظـر إلى صادق وسـيارته ورأي مـا يصنع، فمضي بميمـي إلى سـيارته هو ووضع رجله على السـلم وأراح جسـم ميمي عـلى فخـذه وفتح البـاب وترفق بهـا وهو يضعهـا على المقعـد الخلفي ثـم شرع يحاول إنعاشـها وردهـا إلى الدنيا.

وتنبـه صـادق إلى مـا هو حاصل فترك السـيارة وأقبـل على الرجل فقـال لـه هـذا «والآن يـا صاحبي يحسـن بـك أن تركـب معنـا أيضًا. دع السـيارة إلى الصبـاح وفى الإسـكندرية تسـتطيع أن تجـد من تبعث بـه ليصلحها.»

فهـم صادق بـكلام، ولكنـه كان لا يحسـن الإنجليزيـة، وكان إلى هـذا يحـس أنـه لا فائـدة مـن المكابـرة، فقـد خـرج الأمـر مـن يديه. وأراد شـيئًا وأراد الله خلافـه. فعـاد إلى السـيارة وحمـل ما فيهـا ونقله إلى سـيارة هـذا الإنجليـزي المتطفـل الـذي جـاء في وقـت الحاجة إلى غيابه.

وفتحت ميمي عينها فتشهدت واعتدلت على المقعد ومالت قليلاً إلى الأمام ولمست كتف الرجل وقالت له لما أدار إليها وجهه قليلاً: «أشكرك» فابتسم الرجل وهز رأسه ولم يزد.

ثم كأنما تذكرت شيئًا فاعتدلت مرة أخري والتفتت إلى صادق وقالت له: «هات هذا المسدس»

فلم يسعه إلا أن يخرجه ويناولها إياه. وهم أن يقول إنه فارغ. ولكنها فتحت النافذة وقذفت به على الرمل، وقالت لصادق وهي تغلق الزجاج:

«ابحث عنه حين تعود لتأخذ السيارة»

فقرض صادق أسنانه ولم يقل شيئًا.

(٤)

لم يحمد إبراهيم من ميمي أنها قصت عليه ما كان من صادق معها في رحلتها المضطربة. فما فيها ما يخف على اللسان جريه أو على الأذن سماعه وإن كانت قد انتهت بخير على ما روت، ولم يشك في صدقها، ولكنه كان وهو يصغي إليها يحس كأنها تصكه بالحجارة، وكان امرأ يكره المشاكل والتعقيد والضجات ولا يحب وجع الرأس والقلب. وزاد امتعاضه أنه شعر أن ميمي تحمله تبعة بغير حق. وكان قد عاد من رحلته مع تحية إلى بلدة أبيها مسرورًا راضيًا، شرحت صدره مناظر الريف وبساطة أهله وحفاوة صهره، وإقباله عليه ومساناته له، فأضمر أن يسر تحية ويبرها، وكان يتكلف ذلك في أول الأمر ثم ألفي نفسه محمولاً على متن التيار كالممثل الذي وافقه دوره فاستغرقه حتى نسي أنه يمثل. وكانت تحية تري إقباله عليها ورغبته فيها وتحريه ما يسرها فتحمله على محمل الحرص على إخفاء الفتور الذي عراها، عن أبيها قومها، وكان هذا مبتغاها أيضًا فسايرته متكلفة مثله ثم شامت منه الإخلاص، وآنست صدق السريرة، فهتف قلبها، وازدهاها الفرح وأولته من نفسها ما كان بعد العهد به قد

فترهـا عنـه، فصـارا كاللذيـن خرجـا للتنزه وجـاء كل منهـما بطعامه فتـآكلا في موضـع واحـد، وعـادا إلى القاهـرة ومـا يذكران أنهـما فازا بمثل هـذه السـعادة.

ولـو أن إبراهيـم سـئل عـن احساسـه لمـا التقـي بميمي بعـد هذه الأوبـة المرضية لما اسـتطاع أن يبـين. فقد كان مغتبطًا بهـذا الصفو بعد الكـدر. وكان لا يفكـر إلا في طيبـه ولا يعنـي إلا باسـتدامته. وكانت حـلاوة مـا سـقته تحيـة مـن حبهـا المتين قـد بغضـت إليـه المخادعـة والغـش. ولم يخطـر لـه أن ينقـض عهـد ميمـي، ولكنـه أحـس أنه لا يسـتطيع أن يعطيهـا باللسـان مـا ليـس في القلـب. وانتـوي أن يرتـد بهـا رويـدًا رويـدًا إلى حـد مـن الصداقـة يرضيانـه ولا ينكـره عليهما منكـر. وكان يـدرك أن هـذا ليـس ممـا يهـون، ولكنـه تـوكل عـلى الله وآلي أن يمـضي في هـذا النهـج الـذي بدا له أنـه أحكم ما يسـتطيع أن يأخـذ فيـه. وكان يقول لنفسـه وهـو في طريقـه إلى ميمي إنـه لم يملها وإنهـا لا تمـل ولكنه فـاز بطيبات زهدتـه في الطلب. وكان كالشـبعان الـذي أكل حتـى هنـيء، فهـو لا يسـتطيع أن ينظـر بعينيـه إلى طعام، وإنـه مـن يدري؟ لعـل الصداقـة التـي يرجـو أن يقيم عـلى حدودها علاقتـه بميمـي تكـون أمتع لهما جميعًـا. ولميمي مسـتقبلها وسـتتزوج يومًـا مـا وليـس هـو بالـذي يسـتطيع أن يغنيها عـن الـزواج، وأنه لا سـنه ولا حالـه تسـمحان باسـتقامة الأمور علـة الأيام مـع ميمي مع سـنها وحالهـا. ولكـن هـل تقتنـع المـرأة بالصداقـة؟ أو هـل تسـمح لهـا طبيعتهـا أن لا تخلطهـا بالحـب والجنـس؟ وخـشي أن لا تسـتطيع المـرأة ذلـك مع الرجـل كما يسـتطيعه الرجـلان .. فإن قطـب الرحي في حيـاة المـرأة هـو الغريـزة النوعيـة، ولا حيلـة لهـا في هـذا ولا لـوم

عليها فيه، فانه الذي تقضي به طبيعة خلقها والوظيفة التي كلفتها ووكلت إليها، ولكنه مع ذلك رجا ان يجد من عقل ميمي وحكمة طبعها عونا له، ولماذا لا يحضها على الزواج ويزينه لها؟ ولكن أين أو من أين يجيئها بهذا الزوج الصالح؟ وتالله ما أثقل أن يكلف نفسه عناء هذا السعي أو حتى أن يفكر فيه ..

ولقيته ميمي بهذه القصة فاستهجن موضوعها واستنكر ما انطوي عليه تحديثه بها من إشعاره أن هناك تبعة ولو ضمنية خفيفة يحملها. ولم يعبأ شيئًا بتهديد هذا الفتي. وإن كان لا يخفي عليه ما عسى أن يجر إليه طيش الشباب وحنق الحب الفائر المُحلأ عما يطفئ الغلة وينقع الظمأ. ولكنه لم يجعل باله إلى هذا، وبدا له أن العقدة كلها تحل إذا هو حل عقدته. وكان همه كله في هذه الآونة أن يشعر أن كل ما يفعل أو يترك لا يمكن أن يكون فيه ما يكتم عن تحية أو ما يعد خيانة لثقتها به وائتمانها له. وإن لميمي عليه لحقًا أيضًا. ولكن حقها يجيء بعد حق تحية ما في هذا شك - أو هكذا يجب أن يكون الأمر.

وقال لميمي بعد أن أصغي إلى القصة، إن صادقًا هذا قريبك، وهو شاب، ثم إنه يحبك، وليس في هذا ما يعيب أو يستنكر، وإنه ليثني عليك حين يقول إنه يحبك، والحب مجهوده فهو الحقيق أن يتيه به عليك. نعم أنت الباعث، ولكن الطبيعة هي الباعث الحقيقي، وما أنت إلا أداة وإنها لأداة قوية ثمينة ولكنها أداة ليس إلا، وأنت كالزهرة على عودها، ولا تستوي زهرة في صحراء لا يراها فيها أو يحسها مخلوق، وأخري حيث يراها الناس ويحمدون منظرها وطيب مشمها، فأنت حقيقة بأن تفرحي بحب

هـذا الفتـي، والـذي بـدا لـك مـن جنونه هـو من فـورة هـذا الحب، وعنـف عصفه بنفسـه، فأنت أولي بـأن تزيدي سرورًا لا أن تسـخطي وتنفـري. ومـا أراك أحسـنت إلى نفسـك بجحـود فضلـه، نعـم فـإن حبـه مـن مصلـه عليـك. ولـو ثقـل عـلى نفسـك هـذا المعنـي فانـه الحقيقـة، ومـا أراك أنصفتـه أو أنصفـت عقلـك، فأيـن كان عقلـك حـين اسـتثرته وهجتـه وأغريتـه بهـذه الحماقة؟

قالـت متعجبـة «ومـاذا كنـت تريـد منـي أن أصنـع؟ أتـراني كتابًا عـلى رف مـن شـاء أن يمـد يـده ويتناوله فلـه ذاك؟»

قـال «ليـس الأمر كـما تتصوريـن، لا أنت كتـاب ولا هـو يريد أن يغتصبـك. واسـمحي لي أن أقـول لك إنـك عمياء».

قالت «عمياء..؟ ماذا تعني؟»

قال «أعني أنك تحبينه وأنت لا تدرين».

فضحكت

قـال «لـك أن تضحكـي ولكنـك سـتعرفين أني صـادق الفراسـة حـين تسـتطيعين وأنـت سـاكنه النفـس أن تديـري عينيـك في قلبـك وتتبينـي مـا فيه»

قالت «كله إلا هذا»

قـال «والحقيقـة أيضًـا أن الـذي يسـتر حبـك عـن عينـك هـو خوفـك وفزعـك مـن حبـه الطاغـي العـاتي»

قالت «أما إني أخافه وأفزع منه فصحيح وأما أني أحبه فلا»

قال «هذا أكبر ظنك .. إذن قولي واصدقيني»

قالت «إنك تعلم أني لا أكتمك شيئًا»

قال «ليتك تفعلين أحيانًا»

قالت «لماذا؟»

قال «لتزيد فتنتك .. ليس مما يطيب للمرء في كل حال أن تكون المرأة كالصفحة المرفوعة لعينه وكل ما فيها مسطور بالخط الكبير»

فنظرت إليه كأنما تحاول أن تستشف المعنى من هيئته لا من ألفاظه ولكنها لم تقل شيئًا ولعلها لم تستطع أن تستوضح شيئًا. ومضي هو في كلامه فقال:

«ألا تحسين أنك تتمنين لو كان يلقاك هادئًا غير فاتر»

قالت «هذا أشهي إلى كل نفس فما لأحد لذة في هذه الثورات المزعجة»

قال «ليس إلى كل نفس، ولا إلى نفسك أنت. وإنه ليسرك -في قرارة نفسك- أن حرقاته تهيج من فرط حبه لك. ولكن عنصر الفزع يستر هذا السرور، ولو كنت تشعرين بالأمن. أو بأن لك حيلة أو أن زمامك لا يوشك أن ينتزع من يدك لبدا لك السرور المحجوب. وأنه ليسرك أيضًا أن ينتزع الزمام من يدك. ولكن الأوان لم يأن، لأنك لم تفطني إلى حبك له فأنت لا تزالين تقاومين الشعور الخفي بأنك يوشك أن تغلبي على أمرك وتلقي السلاح وتفتحي زراعيك»

قالت «هذه خيالات .. إن خيالك يجمح بك»

قال «كلا .. ليست هذه خيالات وإنما هي حقائق أراها ماثلة كما أراك - وستعلمين بعد حين أني على صواب»

قالت «لماذا تتكلم كأني لست إلا كتابًا تبدي فيه رأيك؟»

ففطن إلى مرادها وأغضي عنه وقال مجيبًا «لأن في وسعي أن أنتزع من نفسي شخصًا آخر أي أن أتجرد وأدرسه كأنه إنسان غيري على قد ما يتيسر هذا لإنسان»

قالت «ولكني أحس كأنك لا يعنيك مصيري»

قال «لو كان لا يعنيني لما حاولت أن أفتح لك عينيك. إني أبغي لك السعادة وأدلك عليها»

قالت بلهجة التهكم «السعادة مع هذا الفتي؟»

قال «نعم مع هذا الفتي. إن عقلك يقول لك إنه فتي عاطل. وأنت فتاة تكدحين لكسب رزقك، ويقول لك عقلك وما عودك التدريس من احترام نفسك إنه لا يليق بك أن يستولي على قلبك فتي عاطل. أو أن يعرف عنك أنك قد تدلهت بمثله. ولكن قلبك يحن إليه بل يتفطر لهفة. هل تستطيعين أن تذكري لي ماذا كان شعورك الحقيقي لما تناولك بين ذراعيه كرهًا، وأهوي عليك بالقبل الحرار، وأنت تحاولين أن تتفلتي من عناقه العنيف؟»

قالت وقد اتقدت وجنتاها «هذا سهل. لم يكن لي شعور غير الاشمئزاز والنقمة، ولو استطعت أن أمزق له جلدة وجهه لفعلت»

قال «لا شك، لا شك. ولو شعرت بغير ذلك لما كنت ميمي التي أعرفها بل لما كنت امرأة لها قيمة، ولكن ألم تشعري أن دمك قد صار أسرع في عروقك؟ ألم تحسي بمثل الدوار الخفيف الذي يجعل الأعضاء تسترخي؟ فكري .. أديري عينيك في قلبك»

قالت «نعم. ولكن هذا كان من الغيظ والضعف»

قال «ومن شيء آخر. ولو عنف بك هذا العنف في بيتك وأمك في غرفة أخري بحيث تسمع إذا نوديت لاختلف الحال .. كان الاشمئزاز يبقي ولكنه كان خليقًا أن لا يبلغ مبلغًا يحجب الشعور باستطابة القبلات أو يمنع الرغبة في المجاوبة أن تظهر ولو آثرتِ أن تقاوميها .. ولكن عامل الخوف في الصحراء الموحشة تغلب»

قالت «ماذا تريد أن تقول؟»

قال «أريد أن أقول إنك تحبينه يا فتاتي. أصدقي نفسك فإن هذا يكون أعون لك في موقفك»

قالت «موقفي؟ ما هو موقفي؟ إنه لم يتغير»

قال «سيتغير .. لا تعجلي .. هذا الفتي يحبك وأنت تحبينه فواجهي الأمر من هذه الناحية فإنه أجدي عليك.»

قالت «يخيل إلى أنك تريد أن تتخلص مني .. قل هذا بصراحة إذا كنت تعنيه وتضمره»

قال «لا .. لا خلاص لي ولا رغبة لي في خلاص .. ولا خلاص لك مني إلا بإرادتك. إنما أريد أن أوجهك الوجهة القويمة التي تصلح بها حياتك»

قالت بضعف «ولكني لا أحبه .. ثم إنه عاطل»

قال «ما دمنا قد دخلنا في أسباب عدم الحب فقد اعترفنا بأن الحب هناك»

قالت «إني لم أعترف»

قال «بل اعترفت .. وعلى أني لا أطلب اعترافك لأني أعرف..»

قالت «أما إنك لغريب اليوم .. ماذا جري؟»

قال «الذي جري هو أنك تحبين هذا الفتي .. ألا تذكرين أني أوصيتك بمحاسنته؟»

قالت «أكان هذا هو السبب؟»

قال «تقولين إن هذا الفتي عاطل. وإنه لكذلك. وفي يدك أنت كما قلت لك من قبل أن تصلحي من أمره .. أن تجعلي منه شيئًا له قيمة في الحياة. إن كونه يحبك فرصة لك .. وجهيه .. بثي في نفسه الثقة والاطمئنان .. أطعميه في حبك واحترامك .. إنه الآن حائر ضال لا يهتدي. حبه المزدرى يغريه بالاستحواذ عليك بالقوة .. يريد أن يعلمك احترامه بالوسيلة الطبيعية الساذجة.. بالقوة .. وسيلة أهل الكهوف من أجدادنا الأقدمين.. ولكنه إذا آنس منك الاستعداد لاحترامه إذا التمسه من طريق آخر فلا أحسبه يتردد في اكتسابه من الطريق الذي تصفين وتؤثرين. طاوعيني وأطعمه في احترامك فإن به حاجة إليك. يكفي أنه قريبك فله عليك هذا الحق .. حق التوجيه الصالح».

قالت «هذا واجب أبويه قبل أن يكون واجبي»

قال «بل هو واجبك الآن. أنظري إليه على أنه محبك المفتون بك لا أنه ابن أبويه .. وكابري إذا شئت في حبك له، فما هذا بالذي يقدم أو يؤخر. وسترين حين يهدأ وتهدئين أن الأمر كما أصف، وأني أستحق منك قبلة الشك»

قالت برقة «أتراني أضن عليك بالقبلة حتى تؤدي ثمنها؟»

قال «إنما أريدها في أوانها قبلة شكر .. قبلة شكر تستطيعين أن تمنحيني إياها على عينه وبرضاه .. قبلة يشاركك هو في معني الشكر الذي يبعث على منحها.»

فأطرقت كالمفكرة ثم رفعت رأسها وقالت «أتعلم ماذا؟ لكأني بك تغريني به .. لا أدري .. ولكن هذا ما يبدو لي .. لعلي مخطئة فاعذرني»

قال «لست أغريك به فما بك حاجة إلى الإغراء. وعلى أني لو كنت أغريك به لما كنت إلا حكيمًا»

فابتسمت وقالت «دع الحب وقل لأي شيء يصلح هذا الفتي؟»

قال «لماذا لا يوليه أبوه شئون زراعته؟ إنه قوي وذكي وخفيف كالثعلب وآفته أنه لا يعمل شيئًا.. لو كان مغري بالألعاب الرياضية أو ذا عمل يشغله زمنًا لما أمكن أن تبلغ ثورته هذا الحد الذي يفزعك ويحجب عنك إيثارك له»

قالت متهكمة «لقد كانت المحاضرة يا سيدي الأستاذ مدهشة. وأظن أننا نستحق شيئًا من الراحة بعدها. فهل تسمح بأن أدق الجرس؟»

قال «كان في وسعك أن تدقيه من اللحظة الأولي. ومعذرة إذا كان موضوع المحاضرة يا تلميذتي النجيبة قد ثقل عليك .. ولكنك تعرفين الأساتذة .. ثرثارين .. لا يكاد المرء يفتح لهم بابًا حتى ينطلقوا كالقنبلة .. ما علينا ولنخرج إلى فضاء الله بعد هذه الجلسة المتعبة»

ونهضا وذهبا يتمشيان.

ولبثا هنيهة لا يتكلمان. وهو يفكر فيما قال لها وكان مؤمنًا بصحة نظرته وصدق فراسته، وراضيًا عن نفسه لأنه فتح لها عينها، وبدا له أن هذا خير حل، وأنه المخرج المأمون من ورطته. وهي تفكر فيما سمعت ولا تكاد تصدق ولا تريد أن تسلم. ثم التفتت إليه فجأة وقالت «ولكني لا أحبه .. إنما أحب ...»

وأمسكت. فقال ولم يلتفت إليها «لا تخدعي نفسك .. كلا لست تحبين أحد سواه - نعم أعرف أنك لا تنطوين لي على كره. بل أستطيع أن أزعم أنك تحبينني ولكنه حب من طراز آخر. هو تعلق بمن أيقظ شعورك وأزخر تيارًا كان راكدًا وأفادك بعض النعيم بشبابك.. تعلق بمن أعدك لما أنت حقيقة به من نعيم الحياة .. ثم تفوزين بالنعيم المذخور لك فتشعرين أن الغدير يصب في نهر عظيم أو أن النهر يصب في بحر. وللنهر جماله. وللغدير حسنه وطيبه. ولكن البحر أروع وأجل، وأعظم استغراقا للنفس. وتلقينني وألقاك فتتساقى التذكر فنكون كأننا تساقينا خمرًا كما يقول الشريف، ونحمد ما كان ونشكر الله عليه وتظل ذكريات هذا العهد الحميد رباطًا وثيقًا.. أليس هذا أجمل؟»

فوضعت أصابعها على ذراعه وقالت «مالك تتكلم كأن هذا وداع؟»

قـال «هـو وداع .. ليـس بالمعني الذي يسـبق إلى الذهـن .. كلا .. ولكنـي أنظـر إلى غـد فـأراك زوجـة صـادق .. وأراك راضيـة ناعمة قريـرة العـين .. وأراني فرحًـا بـك وبسـعادتك مغتبطًـا بـأني يسرتهـا لـك وأعفيتك مـن مشـقات التخبط حتـى تناليها فيكون هـذا حينئذ وداعًـا.. توديعًـا لعهدنا الخـاص ...»

فوقفـت وقالـت «لسـت أصـدق .. كلا .. لا أصـدق .. مـا لـك تقذفنـي هكـذا؟ .. ألا تمهلني حتـى أتدبر؟ إن رأسي يـدور وأعصابي كالخيـوط التـي اختلطـت وتعقـدت ولـولا أنـك أنـت لمـا أمكن أن يحـدث لي ذلك»

قال «وهذا أول يوم أراك فيه غير دائمة الابتسام»

قالت «هذا فعلك»

قـال «تبسـمي .. تبسـمي.. آه، هـذا أحسـن .. والآن تعـالي نأكل لقمـة فـإني أتضور»

وكانـا في الجيـزة فمضي بها إلى مطعـم إلى النيل وطلب لها ولنفسـه حمامًـا مشـويًا وزجاجـة مـن البـيرة، طـب لهـا قليـلاً في كـوب وقال «هـذا نخب سـعادتك»

قالـت وهـي ترفـع الكـوب «نعـم، ولكـن معـك .. لمـاذا تريد أن تحرمنـي سـعادتي هـذه؟ إني قانعـة بهـا ولا أتطلع إلى سـواها»

قال «ستتطلعين حين تعرفين نفسك»

قالـت «لا فائـدة .. إنـك عنيد .. وليـس هذا عهدي بـك، ولكني لا أدري مـاذا جـري لـك .. ولا أري لي حيلـة فيحسـن أن أقـصر .. ولكنـي واثقـة أنك سـتعود في الأسـبوع الآتي كـما كنت»

قال «وأنا واثق أنك ستهتدين إلى نفسك هذا الأسبوع»

فقالت «كيف يمكن؟.. ألو أقل لك؟»

قال «نعم. ولكنك لم تقولي غير ما أعرف .. وسترين أنى أعرف بك من نفسك»

فأمسكت

ولما هما بالافتراق في يومها دنت منه وقالت «إنك لم تقبلني اليوم»

قال «قول لك الحق إني شعرت أن ليس لي هذا الحق»

فلم تسوؤها قسوته وقالت «ولكنه حقي أنا ولست أنزل عنه»

فضحك وقال «لا يضيع حق وراءه مطالب ملحاح»

وقبلها قبلة من يحس أنه سيحرم مثلها. ولم يفتها هذا الطعم الجديد. ولكنها لم تقل شيئًا

ولما عاد في تلك الليلة إلى بيته قال لتحية «هل تعرفين أن ميمي ستتزوج صادقًا قريبها؟»

فقالت «متى؟ من قال؟ لماذا لم أعلم من قبل لأفكر في هدية؟»

قال «هو هو ..! على مهلك .. إني أنا الذي يقول ذلك .. وليس يعلمه سواي حتى ولا صادق»

قالت «لست فاهمة»

قال «ستفهمين .. وسترين .. كل شيء في أوانه .. أتحسبين أن المرأة وحدها هي التي تحسن تدبير هذه الأمور؟»

فدهشت، وكادت ترتاب، وهمت بسؤال. ولكن وجهه طمأنها.

(٥)

ولكن الأمر لم يكن من السهولة بالمكان الذي يتصوره المرء من حديث إبراهيم مع صاحبته. فقد جمح به الخيال. فراح يتكلم كأنما كشق له عن الغيب. وكان امرءًا تستغرقه اللحظة التي هو فيها ما دام فيها، ويفتنه المعني الذي يخطر له فيسترسل فيه ويصفيه ويذهله سحر ذلك أو حلاوته عما عداه. وكان لهذا يبدو لعارفيه كأنه أكثر من إنسان واحد. فهو في سيرته رجل عملي حازم سريع البت، يتناول الأمور من حيث هي أقرب ويمضي إلى غايته من أوجز الطرق وأسلسها. وإذا اعترضته الموانع تدبرها وفهمها وقاس قوتها إلى ما يتقاضاه تخطيها أو تذليلها من جهد. فإذا أيقن [غير مقروء] أو إذا رأي أن الأمر يستحق العناء، أقدم مصممًا وإلا تحول، غير آسف، إلى ما هو أولي وأرشد. فما كان أبغض إليه من بعثرة الجهد [غير مقروء] القوة في غير طائل، وتكلف ما هو عبث أو محال استحياء من [غير مقروء] انهزم أو ضعف. ويعرف من يعرفونه أنه رجل عاطفة ووجدان، [غير مقروء] وأعصاب كالأوتار المشدودة. ولكنهم كثيرًا ما كان [غير مقروء] عقله مسيطر على عاطفته وأن زمام نفسه لا يفلت من

إرادتـه وإن العواطـف تتحـول عنـده إلى فكرة، فهي غـذاء لعقله، كما يتحـول الطعـام قـوة في بدنه وقد اعتـاد أن يراجـع نفسـه ويدير عينه في كل مـا في نفسـه مـن خوالـج. وما مـن عاطفـة تسـتطيع أن تحتفظ بقـوة العصـف مـع هـذا «الاجـترار» المتواصـل. وكان إذا قـرأ، أو كتـب، يغيـب عن الدنيـا وما فيهـا ومن فيهـا، ولا يعود له إحسـاس إلا بـما يعالـج فيبـدو للناظـر رجل خيـال لا يعـرف الدنيـا ولا تعنيه حقائـق الحيـاة. لفـرط انصرافه عـن ذلك كله، وتمـام اسـتيلاء ما هو فيـه عليـه. وكان يكره الضجـات وينفر من الأصـوات العالية. وكان خافـت الصوت يحوج السـامع إلى حسـن الإصغاء وإرهـاف الأذن. ولم يكـن هـذا عـن ضعـف. بـل لأنـه كان يسـمع صوتـه يـدوي من جوانـب رأسـه مـن الباطن. فـلا يـزال يخفضه ويهـوي بطبقتـه حتى تفـتر هـذه الأصـداء الباطنية وينقطـع إزعاجهـا. وأعانه عـلى رياضة نفسـه عـلى خفـوت الصوت أنـه يـري أن الحديث لـه لذتـه وامتاعه، ولزومـه أيضًـا ولكنـه جهـد معظمـه ضائـع في الهـواء وذاهـب مـع الريـاح الأربـع. فـلا داعـي لتكليـف النفس فوق مـا يقتضينـه الأمر مـن جهد وأحجـي أن يدخر المـرء كل ما يسـتطيع ادخاره مـن قوته، وأن لا ينفقـه في باطـل لا خـير فيـه. وكان لهـذا عـلى كونـه ثرثـارة، يطـول صمتـه أحيانًا حتـى يثقل عـلى جليسـه. وكان إذا مرض أطبق فمه واسـتغني بالإشـارة عـن اللسـان، وأبي أن يعـوده أو يدخل عليه أحـد، حتـى لا يتكلـف جهد الـكلام أو الإصغـاء، وليحتفـظ بجهد نفسـه كلـه لمغالبـة الوعـك. ومـع ذلـك كان يتفق وهـو في بيتـه ومع زوجتـه وبـين ضيوفـه أن يغيـب عنهـم جميعًـا، وينطـوي عـلى نفسـه فـلا يعود يسـمع مـا يقـال، أو يحفـل ضجة الحديـث فكأنـه في خلوة

تامة، أو كأنه في غيبوبة، لولا أن الوعي لم يفارقه. وكانت تحية تعرف فيه هذه القدرة -وما كان يسعها إلا أن تعرفها- وكانت ربما مازحت ضيوفها وراهنتهم على أن ليس في وسع أكبر ضجة أن ترده إلى الدنيا إذا غاب بنفسه عنها. فكانت تفتح «الرادي» ولا تزال ترفع طبقة الصوت شيئًا فشيئًا، حتى يبلغ أقصي قوته وهو كأنه دمية، أو ليس من بني الإنسان أو أصم أو مذهوب بسمعه فيضحك الضيوف ويستغربون. ويبلغ من عجبهم ودهشتهم أن يخافتوا بحديثهم، حتى يصير همسًا. ويكون أبعث على تعجبهم أن الهمس يوقظه ويرده إليهم. كما ينام المرء وهو في «القطا» على ضجته حتى إذا بلغ المحطة وسكنت الضوضاء استيقظ.

وراح إبراهيم بعد ذلك الحديث الذي ألح فيه على ميمي بأنها تحب صادقًا وهي لا تدري، يسأل نفسه، على عادته في مراجعتها ألا يمكن أن تكون فراسته قد خانته؟ ولماذا لج في قوله لها إنها تحب صادقا؟ أتراه اندفع، بقوة شعوره بالرضي الجديد بتحية وعنها؟ أترا يريد أن يخرج من ورطة علاقته بميمي؟ ولكن هل هذه ورطة؟ إنها صداقة أفاد منها متعة لا تنسي ولا تستقل. ولكن الأمر لم يبلغ حد التورط في شيء. وقد سقاها ما يشبه كؤوسا من خمر الحب، ولكنها في رأيه خمر لها نشوة لا شك. غير أنها لا تشتد لها سورة، ولا يأخذ في شاربها دبيبها، ولا يعنف به تمشيها. غير أنه من يدري؟ إن القليل الهين في ظنه قد يكون كثيرًا في إحساس ميمي. أليست قد قالت له إنها تحبه؟ ولقد أمسكت وصدت نفسها عن إتمام الجملة. ولكن الجملة الناقصة كانت أفصح وأقوي .. وما ردت لسانها إلا لعلمها أنه

يستثقل دوران اللسان بألفاظ الحب، ويستهجن اللغط به ويؤثر حقيقته على وصفه، أو لعلها خافت أن لا يصدقها. فقد قال لها مرارًا إنه لا يصدق أن امرأة يمكن أن تحبه لما يعرف من النقص في نفسه والقصور عما يجعل المرء جديرًا بالحب وأنه من أجل هذا يؤمن بالصداقة ولا يؤمن بالحب ولكن من يدري مع ذلك؟ إن هؤلاء النساء أمرهن عجيب والذي يستطيع أن يعرفهن ويفهمهن على حقيقتهن، لم يخلق بعد. ولقد قيل إن المرأة خلقت من أحد أضلاع الرجل. فليكن ... فما يدل هذا إلا على أنها قريبة منه. ولكن خلقها غير خلقه وبدنها غير بدنه. واختلاف التكوين يؤدي إلى اختلاف الوظائف فاختلاف أساليب التفكير والاحساس .. ولكن ماذا يكون إذا صح أن ميمي تحبه؟ هل يتفق الحب والقناعة وانعدام الغيرة؟ إن ميمي قانعة راضية لا تطمع في غير ما هي فيه ولا تتطلع إلى خلافه أو مزيد عليه. ولا تبدو عليها رغبة في الاستئثار به، أو غيره من امرأة أخري، أو امتعاض من الحظ الأوفر المذخور لتحية من قلبه وحياته. بل إنه لينزل تحية منزلة القداسة ويجعلها فوق أن يجري حديث عنها بينهما أو بيه وبين إنسان آخر- رجلا كان أو امرأة- ومع ذلك لا يثقل عليها أنه يضعها في هذا المحل الأدنى، وأنه يرفع تحية هذا المقام الكريم الذي لا يتسامى إليه اللحظ. فأي حب يكون هذا الذي تحبه ميمي، إذا كانت تحبه؟ أتراه يمكن أن يكون من ذلك الضرب الخيالي الذي يعز في الحياة والذي تكون فيه التضحية بالذات، وإنكار النفس بل فناؤها، لذة ما بعدها لذة؟ وحدث نفسه أن هذا كلام فارغ. وأن الأقرب إلى العقل، والأرجح في الظن، هو

أن ميمي لا تنطوي له على أكثر من صداقة كريمة لا تبلغ درجة الحب المستغرق الآخذ بالكليتين. ولكن هبها .. هبها تحبه؟ إنها إذن تكون مسكينة فما يستطيع أن ينيلها فوق ما تنال من وده إلا بخيانة تحية. وهو لا ينوي او يجرئ أن يخونها ولا موجب لأن يعني نفسه بهذا. ولكل شيء أوانه. ولكنه مع ذلك لم يسترح. ولم يكف عن تقليب الأمر على كل وجه.

ولم تكن ميمي أقل منه حيرة. وقد عادت بعد هذا اللقاء الأخير، وهي تحس كأنها تمشي على رأسها. فقد باغتها إبراهيم وألح عليها ولم يترفق بها. كانت كالسابح الذي فاجأته موجة عظيمة، وغمرته ودفعته، فهمه أن يرفع رأسه فوق الماء ليتنفس وينظر أين هو. وكانت قبل اليوم لا تفكر في أمرها معه، ولا تحاول أن تتبين حالها ومكانها وموقفها. وكانت تذهب للقائه. كما تذهب إلى مدرستها بطبيعة الحال. أو كما تستيقظ من النوم هذا الذي يكون أولا يكون سواه، سواء أفكر أم لم يفكر فيه [غير مقروء] وكان التعليم ربما ثقل عليها أحيانًا، وشعرت بالزهادة فيه. ورغبة في الانقطاع عنه، والقعود في البيت والانصراف إلى شئونه. كانت تحسن الطهو، وتدير أمور المنزل، ولا تكف عن العمل فيه في أيام البطالة، مؤثرة ذلك على الخروج إلا في اليوم الذي تلقي فيه إبراهيم. فقد كانت تنفض يدها من كل شيء وتتخلي لموعدها معه. ولا تفعل ذلك وهي مضطربة، أو متطلعة، أو متلهفة، بل كأن هذا بعض عملها اليومي، وكان الذي تعرفة أمها، وناظرة مدرستها، وزميلاتها المعلمات، أنها في ذلك اليوم المعين للقاء إبراهيم تذهب لإعطاء «درس خصوصي» لإحدى

البنـات في بيتهـا، وكانـت الناظـرة تحمد لها حسـن إقبالها عـلى عملها وإخلاصهـا فيـه، وعنايتهـا بـه، ونـدرة تخلفهـا، فأخلتهـا في ذلـك اليـوم مـن العمـل بعـد الظهر ورتبـت لها جـدول دروسـها على نحو يتيـسر لها معـه أن تتغـدي في بيتهـا، ثم تذهـب إلى «درسـها» وكانت زميلاتهـا المعلـمات ربـما عابثنهـا مازحات وسـألنها عن هـذا الدرس العجيـب. الـذي اسـتمر سـنتين، ولم يختلـف موعـده مـرة واحـدة؟ ولكنهـن كـن يريـن جدهـا واحتشـامها، وعـدم اختـلاف حالها عن المعهـود مـن إشراق ديباجـة الوجه، وافـترار الثغر، وحسـن الأدب، وسـكينة النفـس، فـلا يخالجهن شـك، ولا يسـتربن، وقـد ائتمرن بها مـرة مع الناظـرة، وأوهمنها أن إحـدى زميلاتهن مرضـت فجأة، وأن عملهـا بعـد الظهـر لا بد مـن توزيعه عـلى الباقيـات الخاليـات وهي في جملتهـن. وكان ظنهـن أنهـا سـتمتعض أو تعتـذر. ولكنهـا تقبلت «الحصـة» الإضافيـة الموهومـة بابتسـام. وزادت فسـألت عـن عنوان المعلمـة لتعودهـا. فارتبكـن ثـم أنبأنهـا بالحقيقـة. فلـم يبـد عليها أن إعفائهـا مـن هـذا التكليف أدخـل على نفسـها سرورًا خاصًـا. وكان الـذي سـهل الأمـر عـلى ميمـي أن هـذا التكليـف لا يؤخرهـا عـن موعدهـا وإن كان يحرمهـا الغـداء في بيتهـا. وليـس هـذا الحرمـان بالـذي يشـق احتمالـه. ولكـن زميلاتها مـا كـن يعرفن هـذا. ولا كن يدريـن أنهـا إنـما تحـرص على الخـروج قبلهـن، لتلقـي إبراهيـم وهي في أمـان من عيونهـن وفضولهن. فقـد تحب إحداهـن أن تصحبها، أو تسـايرها، فـلا تأمن حينئذ أن تطلـع على سرها ولو اتفاقًـا ومصادفة.

ولـو سـئلت ميمـي عـن المدرسـة ومـاذا يحببها إليهـا لقالـت إنها تحـب إحـدى تلميذاتهـا، وهي فتـاة في الرابعة عشرة، دميمـة محروقة،

إلا أنها خفيفة الروح كبيرة القلب، وكانت هذه الفتاة شديدة التعلق بميمي -أبلة ميمي- وكانت تهجم عليها وتقبلها كل صباح وعلى مرأي من التلميذات جميعًا وكانت ميمي تكل إليها بعض عملها، وتستعين بها في رسم الخرائط، وحمل الكراسات إلى خزانتها، أو درجها، وتلقي إليها بمفاتيحها وتتركها معها. فهي تتولي عنها أمر الخزانة وما فيها من معطف أبيض ومثبتة، ومناديل وصابون وفوط وغير ذلك.

وكانت ميمي فخورة مزهوة بحب هذه الفتاة الصغيرة لها. وكانت ربما شعرت أنها تتطلع للقاء إبراهيم في موعده، كما تذهب إلى المدرسة كل يوم متطلعة إلى قبلة هذه الفتاة المحبة المخلصة. ولكن إبراهيم ليس بفتاة. ولا هو بصغير. وإذا كانت لا تظهر لهفة على لقائه، ولا يبدو معه عليها اضطراب، فإنها تدرك -ولا تكتم نفسها- حرصها على ما تفيد منه، ورغبتها فيه. وكرهوها بالفتاة الصغيرة وحبها زهوها بأن لها صديقًا وامقًا منزلة إبراهيم وعلمه وأدبه وفضله وسنه وتجربته.

ولكن هل هي تحبه حب المرأة للرجل؟ ولو سئلت عن هذا قبل أن يدير لها رأسها كلامه عن صادق واصراره على أنها تحبه وهي غير دارية لما كان جوابها إلا «نعم على التحقيق» وما زال الجواب «نعم» ولكنه لم يعد بعد هذه الزلزلة «على التحقيق» وشعرت أنها تستطيع أن تقول «لا. على التحقيق» وبلا أدنى شك إذا سئلت «هل تستطيع أن تستغني عنه وتكف عن لقائه؟» بل شعرت أنها لا تقول إلا «لا. على التحقيق» إذا سئلت «هل تستطيعين إذا تزوجت أن تفارقيه وتبتي صلتك به؟» لا بل هي

تضمر إذا تزوجت صادقًا أو غيره فما -لهذا قيمة- أن تحافظ على صلتها به، كما هي الآن بكل ما تنطوي عليه.

وخطر لها أن لعل إبراهيم لا يود ذلك. فإن له لشذوذًا -وغاب عنها أن من الشذوذ أن تود هي استمرار هذه الصلة بعد زواجها إذا كتب لها الزواج- أو لعله أراد بحديثه أن يمهد للفراق. ولكنها نفت هذا الخاطر. وأبت أن تطيل الوقوف عنده. وقالت لنفسها إن إبراهيم لا ينطوي على خبث أو غدر. وذكرت نفسها بأنه قال لها إنه لا يريد التخلص منها ولا يود معاناة ذلك، وأنه يضن بصداقتها أن يعتريها فتور أو ملال.

وحكاية صادق هذه التي طلع عليها إبراهيم بها فجأة، ما الرأي فيها؟ أيمكن أن يكون صحيحًا ما قاله من أنها تحبه وهي لا تدري؟ وأضحكها أنها يمكن أن تكون عاشقة غير دارية. وهزت رأسها منكرة ذلك. وودت لو استطاعت أن تنتزع قلبها وتضعه أمامها وتعكف عليه فاحصة منقبة مستقصية. وقالت لنفسها إن صادقًا قريبها، وإنها تحبه لهذا. ولكن حبها لقريب لا يمكن أن يشبه حب امرأة الرجل -وهو لا يخلو من مزايا وصفات تحببه إليها. ولكنه طائش وجموح، وعاطل، وخائب. ثم إنه أصغر منها، وهي أسن منه- تكبره بسنتين. فهي أشبه بأخت كبيرة له وقد جربت منه ما يفزع وينفّر، فهل يمكن أن يكون صحيحًا قول إبراهيم إنه لو انتفى عامل الفزع لبان المستور؟ وهل صحيح قوله إن النفس في حالة الفزع وتكون شبيهة بالماء المضطرب فلا يستطاع أن يُرى ما في قاعه ما دام مربدًا ولكن ذلك يتسنى إذا سكن وصفًا؟ ربما. ولكن كيف يتيسر ذلك؟

أتـراني لـو أقبـل صادق الآن وهـو سـاكن وادع لا يثير مخـاوفي بكلمة أو إشـارة، أو نظـرة أو حركـة، أسـتطيع أن أتبين حقيقة هذا الشـعور الـذي يقـول لي إبراهيـم إنه مسـتور تحجبه الخشـية والرغبـة الطبيعية في الدفـاع عـن النفـس ...؟

وملـت هذا الحـوار الـذي لا يقيدها الاسـتقرار وكانـت بطبيعتها تؤثـر الراحـة وتنفـر مـن الاضطـراب، وتتقـي بواعثـه، وتهـرب من المثـيرات. فكفـت وقالت لنفسـها إن لها السـاعة التي هـي فيها، وإن المسـتقبل غيـب. وسيتسـع الوقـت للتفكـير فيـه حـين يجـئ، بما يجئ بـه، وكل مـا أعرفـه الآن أن إبراهيـم صاحبـي الـذي أضـن بـه عـلى الدهر.

أما صادق ...

ومطت بوزها.

(٦)

وكان إبراهيم يتطير -من لا شيء، ومن كل شيء،- وليست الطيرة في الطباع، كما يزعم ابن الرومي، ولكنها إلا تكن فيها ليست مما يستغرب، ولعل مكافحتها أدل على معانتها من الإقرار، فما يغالب المرء غير موجود، أو يصارع معدومًا، وإذا قيل إنه يطردوهما، فالوهم حادث والشعور به حقيقي، وله أصل ينجم منه، وعلة تحدثه، ولم تكن طيرة إبراهيم عن ضعف في العقل أو نقص في صحة الإدراك، بل كانت بعض ما أورثته النوراستنيا، وتلف الأعصاب، وكان يعرف أن طيرته خرف وكان لهذا يكتمها، ومن ذلك أنه كان يكره أن يصبح على غير وجه «تحية» فإذا أصبح على غيره، ظل يومه متوجسًا غير منشرح الصدر، وكان يستثقل، ولا يهون عليه أن يوقظها ويزعجها في البكرة المطولة - فقد كان يبكر في القيام، وينهض من فراشه -صيفًا وشتاءً- حين يبدو الصبح بأصوات العصافير، فيكتفي بأن يذهب إلى سريرها -على أطراف أصابعه- ويتملى بالنظر إلى وجهها الصابح، وربما اتفق أن يكون وجهها للحائط، فيدور حول السرير ويشب، لينظر من فوق شباكه، ومن أجل هذا أقنعها بأن تجعل بين السرير والحائط

مسافة شبرين، وزعم أن البقعة خلوية وأن للبيت حديقة فهو لا يأمن أن تدب الحشرات إلى البيت، وإنما فعل ذلك ليتسنى له أن يدخل بين السرير والحائط وينظر إلى وجهها حين تكون مائلة أو نائمة على جنبها الأيسر، وكان لهذا أيضًا يغريها بالنوم على الجنب الأيمن ويزينه لها، ويقول لها، إنه أصح وأرفق بالقلب حتى ولو كانت المعدة فارغة. وكان إذا تعذر أن يراها قبل أن يرى سواها، قصد إلى المرآة وابتسم لنفسه في صقالها، وقال «هذا على كل حال وجهي، ولا حيلة فيه وهو على دمامته أحب إلى من وجوه الناس»، وكان يحب أن يرى الهلال -أو ما يراه- وفي يده قطع من النقود الفضية، فينظر إلى الهلال، ثم إليها، ويلثمها ويلمس بها جبينه وإذا اتفق له ذلك عفوًا، وبغير تدبير سابق، كان أشرح لصدره وأبعث له على الاستبشار. على أنه مع ذلك كان لا يترك الأمر للمصادفة، فيحرص على ادخار بضع قطع فضية لرؤية الهلال، مؤثرًا ذلك على ما فيه من التكلف على رؤية الهلال على وجوه الناس، وكان ينفر من الألوان القاتمة عامة، واللون الأسود خاصة، فينقبض صدره منها ويضيق، ولكنه على هذا، لا يلبس من الثياب ما كان لونه زاهيًا ويفضل ما هو أقرب إلى الحشمة، وأشبه بالوقار، حتى كسوة الكراسي والمقاعد آثر فيها البساطة والخلو من الزينة، وما هو أدعى إلى راحة العين وأبعث على سكينة النفس، حتى الضوء مال فيه إلى الخفوت ونفر من السطوع. وكانت عادته أن ينزع كل صباح ورقة من التقويم المعلق، فإذا أقبل اليوم الثالث عشر من الشهر، زعم أنه سها، وترك ورقة اليوم الثاني عشر، ونزع في صباح اليوم التالي ورقتين

معًا، وطواهما وألقاهما في سلة دون أن ينظر فيهما لشدة اشمئزازه من رقم ١٣، وكان أبغض شيء إليه أن يفجأه صياح أو صراخ، أو دموع باك أو باكية، أو جنازة أو تابوت، ولو كان فارغًا، وما يجري هذا المجرى، ومن تطيره أنه أبى أن يقتني أثرًا فرعونيًا، أو ما هو على غراره في الصنعة، وكان يفزع من الثعابين والحشرات والهوام بأنواعها، وقد أهدى إليه أحد أصحابه مرة، منشة أو مذبة من صنعة أسيوط وعصا رأسها على هيئة الثعبان فاحتفظ بالمنشة لأنها لا صورة فيها، ودق رأس العصا حتى طحنها، وأبى أن يهديها إلى أحد، أو حتى أن يتركها وينساها في مكان ما -في الترام أو في مقهى أو غير ذلك- لئلا يحيق شرها بأحد:

ولم تكن تحية تعرف أنه يتطير. فقد كانت طيرته تخجله، فهو يخفيها. ولا يعدم ما يفسر لها به، ما يبدو من الشذوذ في سلوكه. وكان يقول لها في تعليل ذلك إنه لا ضابط هناك ولا قاعدة للمزاج الخاص. والأمر فيما يرتاح إليه الإنسان أو ينفر منه من لون أو شيء لا يرجع على العقل، بل إلى الإحساس أي الأعصاب، والأعصاب شيء معقد وبعض حالها موروث، والبعض اكتساب فلا تعجبي، ولكن اعذري. وكل امرئ مهما جل شأنه، وكبر عقله، وعظم عمله، لا يسلم حاله مما يفتقر فيه إلى تمهيد العذر والصفح، والأغضاء، والتسامح، وفي كل امرئ مواطن ضعف تذكر بأنه -على علو قدره- ما زال من بني الإنسان المخلوق من الطين الواهي أو الحمأ المسنون .. أي نعم. نحن من الطين. ففينا كل عيوبه وضعفه وهوانه أيضًا يا امرأتي العزيزة. فلا تنسى هذا. وكوني أبدًا منه على ذكر.

يقـول هـذا وأمثالـه مازحًـا، وعـلى سـبيل التهويـن مـن الأمـر واجتنابًـا للصـدق في الإبانـة، وهـو في قـرارة نفسـه يحـس بما يسـخر منـه إحساسًـا حقيقيًا يشـيع فيـه علوًا وسـفلاً - من فرعـه إلى أخمص قد ميه .

واسـتيقظ يومًا، فتنبـه فجأة، ومـا زالت عينه مفتوحـة كمغمضة، إلى أن هـذا هـو الثالـث مـن الشـهر. فاسـتعاذ بـالله. وأطبـق جفونه. وانقلـب عـلى جنبـه وأدرار وجهـه إلى الحائـط وود لو ينـام إلى صباح اليـوم التـالي. ثم قال لنفسـه وهـو يتكلف البـشر «لا حيلـة لي أعرفها لأختـزل بهـا هـذا النهـار الـذي لـن يكـون فيـما أعتقـد إلا ذميـمًا» وكانـت عادتـه -ودأبـه- أن يتوقـع الـذي هـو أسـوأ، فـإذا نجـا، أو كان مـا هـو أخف سـوءا وأهـون عـلى العمـوم، اغتبط، وتشـهد.

ونهـض متثاقـلاً. ومشـى عـلى أطـراف أصابعـه إلى سريـر تحيـة. فألقاهـا عـلى جنبهـا وذراعهـا على خدهـا. فهـو لا يكاد يرى سـوى أرنبـة أنفهـا. فقـال لنفسـه وهو يتنهـد مستسـلمًا لقضاء الحـظ فيه «لا عجـب فإنـه اليوم المنحـوس من كل شـهر. وأول نحوسـه أن أحتاج إلى النظـر إلى وجهـي في المـرآة ..» وتذكـر قـول الحطيئـة «فقبـح مـن وجـه، وقبـح حاملـه» وسـاءه أن يذكـر هـذا الشـطر من شـعر ذلك الشـاعر السـليط اللسـان، وتسـاءل لماذا لم يذكـر إلا هـذه اللعنة، على الريـق؟ أليـس في شـعر العرب أجمعين -وفي شـعر الغربيـين قاطبة ما كان يمكـن أن يطفـو إلى السـطح غـير هـذا الـكلام الثقيل؟

وأسـلم أمـره إلى الله. وقـال لـن أوقظ الخادمـة. وصـب في إبريق للشـاي ليغليـه. فلـما عـلى المـاء، أنزلـه عـن النـار وكشـف الغطـاء

ليلقى بالشاي فلسعه فقال هذا جزاء من يصبح على هذا الوجه. وأهون به إذا اقتصر الأمر عليه. وخطر له أن يلزم داره يومه. فدار في نفسه قول القائلة:

راح يبغى نجوة من هلاك فهلك

والمنايا رصد للفتى حيث سلك

فانقبض صدره. وأحس أن هذا نذير، وحمل الإبريق على الصينية وحاول، والصينية على كفه. أن يفتح الخزانة ويتناول الفنجان فوقعت الصينية بما عليها على الأرض. وكانت لها ضجة أيقظت تحية. ولم يصبه من اندلاق الماء المغلي سوء.

وأقبلت تحية تسأل «ماذا جرى؟ لماذا لم توقظني أو توقظ الخادمة؟»

فترك المطبخ وهو يقول «لا تصنعي شيئًا .. لا تصنعي شيئًا .. فما أظن إلا أن كل ما أتناول في يومي سيقف في حلقي ويخنقني»

فلحقت به تحية وقالت «مالك؟. إنك مضطرب .. اقعد هنا (وأدنت منه كرسيًا وثيرًا) سأعد لك بيدي أنا ...»

فقاطعها وهو ينحط على الكرسي «لا لا لا .. قلت لك لا تصنعي شيئًا .. كل ما أريد هو الراحة»

قالت «ألم ترتح في نومك؟ مالك؟»

قال «مالي؟ أوه لا شيء. كان النوم مريحًا .. لا حلم فيه. ولكن انظري بماذا يجئ الصباح الجديد ..؟ أباريق مقلوبة .. وأصابع

ملسوعة .. ومن يدري ماذا يخبئ هذا النهار البديع أيضًا؟ سنرى»

قالت «هذه غلطتك .. لماذا تتكلف ما لا تحسن؟ هذا عملنا نحن. ونحن هنا لخدمتك .. لا بأس. أراني أصابعك ..»

ومالت عليه، فابتسم لها. وقال «لا شيء بها.. كانت اللسعة مؤلمة في وقتها. ولكنها لم تزد على ذلك .. صحيح»

وصنعت له الشاي. وجلست قبالته تشاربه، وتحادثه، وتسري عنه. وكانت تعرف أنها تستطيع أن تلهيه عما يثيره أو يؤلمه، أو يخامره، إذا استطاعت أن تجره إلى حواء تستثير فيه عقله، وتغريه بالتفلسف. وقالت تستدرجه «هذا يثبت أنكم معشر الرجال أطفال ... تزعمون أنكم أنتم المجاهدون في الحياة. ومع ذلك لا يحسن الواحد منكم أن يصنع فنجان شاي، أو يقلي أو يسلق بيضة. وتدعون أن النساء لا يصلحن إلا لشئون البيت .. وأنهن أداة للنسل ليس إلا. يطبخن ويحملن ويلدن. ولا خير فيهن لغير ذلك ... حسن. ولكن ماذا يحسن الرجل ولا تستطيع المرأة أن تحسن مثله؟ هل يعجزها أن تجلس إلى مكتب في ديوان وتدخن وتشرب القهوة، وتكتب بضع رسائل قصيرة؟ أو إذا تلقت من التعليم كفاية، أن تكتب مقالات كمقالاتك. أو إذا تعلمت الطب أو الهندسة أن تحذق ذلك كحذقكم؟ وانظر إلى براعتكم في الهندسة. جعلتم البيوت كالمقابر .. لا شمس ولا هواء! وبراعتكم في الطب .. كل طبكم تخمين وتجارب .. كالذي يمد يده ليتحسس في الظلام. وأي امرأة متعلمة يعييها أن تتولى أمر الحساب في المصارف؟»

فأقبل عليها يجادلها. ونسى ما كان. وتلهى عن طيرته. ولما نهض انحنى عليها وقبلها وقال وهو يعتدل «يا امرأة ماذا عساني كنت أصنع لولاك؟».

فقالت وهي تضحك «كنت تكسر كل يوم ما في بيتك من أطباق وفناجين، وتخرج كل يوم، ولا هم لك إلا أن تشتري جديدًا سليمًا بدلاً من المكسور».

ثم دنت منه حتى لصقت به، وأرخت جفونها وسألته جادة، وأصابعها تعبث بزرار المنامة (البيجامة) «صحيح؟»

فلم يجبها بكلام. وضمها إلى صدره، وقبلها قبلة طويلة حارة.

وكان العصر موعده مع ميمي، على باب المسجد كالعادة فسألها «أين نذهب اليوم» ولم يكن ينتظر رأيها، ولكن كانت عادته أن يجاملها بالسؤال، وعزمه موطن على ما يفعل، فأمالت إليه وجهها وتبسمت، وهزت كتفيها، هزة خفيفة، فقال «حسن، إذن فإلى المعادي» كأنما كان هذا ما اقترحت.

قالت «ما هذا الإسراف؟»

قال «إسراف؟ أمن الإسراف أن نمشي على الأقدام إلى محطة باب اللوق ونركب القطار ذهابًا وإيابًا ببضعة قروش؟»

فرفعت حاجبيها هي تبتسم له، كأنما تقول «لا بأس، لقد خفت أن تستأجر تاكسي لهذا المشوار الطويل»

وسألها فجأة «هل رأيتِ صادقًا في الأيام الأخيرة؟»

فالتفتت إليه -واجهته- وقالت «ألا يمكن أن تعفيني من ذكره؟»

قال معتذرًا «إنما أردت أن أقول شيئًا، وكان هذا أول ما خطر لي»

قالت «ولماذا لا يخطر لك سواه؟» وابتسمت وهي تقول «أهذا من الغيرة؟»

وكان يسرها أن يقول «نعم» ولكنه قال «لا .. ليس هذا من الغيرة .. لا أظن .. ثم إني منصف، ومن شيمتي إنصاف الناس حتى من نفسي، لست أفاخر، ولكنها الحقيقة. ويخيل إلى أحيانًا أن هذا ليس انصافًا وإنما هو بلادة، على كل حال أريد أن أقول إن له فيكِ من الحق أكثر مما لي وإنه أولى بكِ»

قالت بفتور «لقد سمعت هذا من قبل»

قال «لا تعجلي .. فما أريد أن أعود إلى ذلك الحديث .. كلا .. ولكنكِ تسألين فأجيب»

قالت «سألتك عن شيء فأجبت عن خلافه»

قال «لا .. ليس عن خلافه. فما يمكن أن تكون الغيرة من لا شيء. والشيء هنا هو صادق. فما ذنبي؟ كوني منصفة»

قالت «دع ذكره بالله فإنه لا يطيب الآن»

وبعد خطوات قالت «هل تعرف؟ لقد زارنا البارحة ... وبقي معنا إلى العشاء وكان ظريفًا لطيفًا، ووديعًا، هادئًا. ولكن مشيته كمشية الثعلب. مشية مريبة مقلقة فلا تحس به إلا وهو أمامك. كأنما خرج من جوف الأرض. ثم إذا به قد صار في غرفة أخرى.

أو في المطبخ. أو الدهليز، ويخيل إلي، وأنا أره ينظر إليّ، أو يمشي أمامي. كأنه لا بد أن يخطف أو يسرق مني شيئًا، وأني لن أشعر بما فقدت إلا فيما بعد. وهذا هو الذي يخفيني ... شعوري باني معه لست في أمان ... وهو الوحيد الذي يخامرني منه هذا الشعور ... أنا معك مثلاً لا أخاف ولا أحذر ...»

والتفتت إليه وقالت برقة «قل لي ... هل تشعر أني حرمتك شيئًا تريده أو أبيت عليك أمرًا لك رغبة فيه ...»

فتناول ذراعها وقال «أنتِ أكرم من ذلك ... ثم إنك أعرف بي من أن تحتاجي إلى الحذر، أو تخافي عاقبة الطمع ..»

قالت «أصدقني ...»

قال «سأصدقك ... نعم رغبت في الكثير ... وزهدت فيه. أو قنعت بما دونه أو رضت نفسي على القناعة. لا خوفًا من ضنك، بل خوفًا عليك من نفسك. والإنسان طماع يا ميمي. ولا نهاية لما يريد، أو آخر لما يتطلع إليه ويشتهيه. وما يكف عن الرغبة إلا حين تنقطع أنفاسه ويملأ تراب الأرض فمه. ولكن هناك يا ميمي ما هو أجل وأمتع أيضًا من إدراك المآرب. هناك لذة القدرة على ضبط النفس، والاكتفاء بما يفيد السعادة، وكبح النفس عن الإسراف والشطط بغير موجب. هذا الإدراك الصحيح الدقيق لقيمة ما ينال المرء بالقناعة، والقيمة الحقيقية لما يشتهي وما تلج به الرغبة فيه، إذا ناله ... هذا الوزن الدقيق لهذه الأمور هو الذي يساعد على كبح النفس بلا أسف أو شعور بخسارة ...»

قالت ضاحكة. «هذا دأبك ... نتفلسف دائمًا»

فسألها «إذن أصدقيني أنتِ ... هل أنت قانعة؟»

فأطرقت وهي سائرة. وتركت لحظات تمر قبل أن تقول «لا أدري .. هذه أول مرة أُلقى فيها هذا السؤال علي .. من نفسي أو منك .. لم أسمعه منك على ما أذكر. ولم أوجهه إلى نفسي .. وأقول الحق إني مترددة ..»

قال «التردد معنا أن القناعة غير حاصلة»

قالت «إنما أريد أن أقول إني لم أفكر في الأمر من قبل. ولكن سؤالك يثير في نفسي خواطر وصورًا شتى. وهذا ذنبك ... لماذا سألتني؟ لماذا تغري عيني بالامتداد إلى ما بعد الحاضر والواقع؟»

قال «لا لا .. ليس هذا فعل السؤال .. لا تجهلي ..»

قالت «كيف؟ ألست أنت الذي تفتح لي آفاقًا جديدة من النظر والرغبة كنت مصروفة عنها؟»

قال «ليس السؤال هو الذي فعل ذلك وإنما هو فعل ما استيقظ في نفسك حين دار فيها الوسواس الجديد .. أن لعلك تحبين صادقًا .. وهل أنتِ تحبينه أو لا تحبينه .. وهل قسم لكِ الزواج منه أو لم يقسم .. وهل ستتزوجين أو لا تتزوجين .. هذه الخواطر تبدو في ظاهرها مجرد أسئلة .. ويبدو أن الغرض منها الاستبانة أو الاستشفاف أو الاستجلاء. ولكنها تنطوي على أكثر من ذلك، لأن كل سؤال مقترن في الخيال بصورة .. بل بصور.. صور شتى للحياة كما هي في حاضرها، وللحياة كما يمكن، أو يُرجى، أو يُخشى، أن تكون في الغد القريب أو البعيد. وهذه الصور تكون في

أول الأمـر غامضـة ملتاثة، ثم تتضح شـيئًا فشـيئًا، وتتجسـد، وتتخذ أشـكالاً تـكاد تُلمـس وتُحس، ولا يقتـصر الأمـر على هـذا بل تشرع الصـور التـي تتمثل للخيـال وتزداد جلاء وتجسـدًا على الأيـام، ومع طـول مناجـاة النفس، أقول تـشرع في الإيحـاء إلى النفـس ... فتحرك إحسـاس الإنسـان، وتثـير رغبتـه وتبعـث مـا كان كامنًـا، وتوقظ ما كان راقـدًا، وتزيـد مـا لا ينقصـه الابتعـاثُ، قـوة. ومن هنـا تضعف وتقـل القناعـة بالحاصـل الموجود.»

وأمسـك، وسـارا خطـوات وهمـا صامتـان، وذراعـه مـا يـزال في ذراعهـا. ثـم رفعـت إليـه وجههـا وقالـت مرة أخـرى - بابتسـام يخفـف مـن وقـع التهكـم إذا كان في عبارتها تهكـم «تتفلسـف دائمًا .. أليـس هـذا دأبك؟»

قال مسـتغربًا «أتفلسـف؟ أعوذ بـالله .. لماذا تعدين بسـط الحقيقة أو مواجهتها فلسـفة أو تكلفًا للفلسـفة؟»

قالت «لقد بلغنا المحطة .. خلنا في الدرجة الثانية»

قـال «يـا خبيثـة، إنـما تريديـن أن تسـتريحي مـن فلسـفتي .. بـل سـنركب في الدرجـة الأولى .. واطمئنـي فـإني لا أسـتطيع الكلام مع ضجـة القطـار .. وحسـبي أن تتكلمـي أنتِ وأسـمع .. جـاء دورك. تعالي»

وأخـذ التذكرتـين -ذهابًـا وإيابًـا- ومضى بهـا إلى مركبـة الدرجة الأولى.

(٧)

ولكنه تكلم على طول الطريق من باب اللوق إلى المعادي. ذلك أنه ما كاد يقعد وميمي إلى جانبه، حتى دخل رجل طويل موخوط الشعر، وانحط على مقعد قريب منهما. فهمست ميمي في أذنه «هذا الرجل يتبعني»

فسألها بصوت خفيض، ومن غير أن يحول وجهه إليها «من هو؟

قالت «هو الجار الذي حدثتك عنه»

وكانت قد حدثته مرة من قبل، أن بين أسرتها، وأسرة هذا الجار المراقب، معرفة وتزوارًا. فحدث مرة أن لقيها وهي عائدة من المدرسة، فقال لها إنه يود أن تكون زوجته، فنهرته وزجرته. وقالت له «إنك رجل متزوج. ولك بنون وحفدة. وإن هذا الكلام منك لا يليق»

فلم يرعو. ولم يغن عنها ما كانت تؤثره معه من الاغلاظ في القول وقال لها مرة «إذا كنت لا تريدين أن تكوني زوجة لي، فلتكوني صاحبتي» فأنذرته أنها ستقص الخبر بحذافيره على زوجته.

وزعم لها، فيما زعم، أنه زار إبراهيم وسأله عنها، وإن إبراهيم ذكرها بخير وأثنى له عليها. وكان هذا كذبًا صراحًا فما رأى إبراهيم وجهه من قبل.

ودعا إبراهيم ربه وهو يخالس الرجل النظر «اللهم ارزقني الدم البارد. وآتني السكينة والحلم والرزانة»

واعتزم أمرًا. فالتفت إلى الرجل وقال له «ألا تتفضل معنا؟ إن بيننا معرفة وإن كنت لا تدري ..»

فدهش الرجل. ولكنه تحول إلى مقعد أمامهما.

فقال إبراهيم «أظنك تعرف الآنسة ميمي .. فقد حدثتني عنك وقصت عليّ ما كان منك .. كل شيء .. ولعلك كنت متتبعنا طول الطريق. وها أنت ذا قد ركبت القطار معنا لترى إلى أين هي ذاهبة»

فتلعثم الرجل واضطرب لهذه المفاجأة. ثم وجد لسانه فزعم أنه له بأبيها معرفة. وأن أباها كان أوصاه بها وأنه استغرب أن تذهب في طريق حلوان، فما لها أهل أو معارف على هذا الطريق.

فشد عليه إبراهيم ولم يرحمه. ولم يتق أن يسمع الناس. وقال «وأوصاك أبوها أن تعرض عليها الزواج بغير علمه؟ وأوصاك أن تقترح عليها أن تكون خليلة لك؟»

فوقف بعد ذلك كل كلام في حلق الرجل. ومضى إبراهيم -بصوت هادئ متزن، وبابتسامة متكلفة- يقول «ما دمت تبغى المعرفة، فابق معنا لترى بعينك إلى أين هي ذاهبة، وسترى وتطمئن إن شاء الله، وتكتب إلى أبيها بما يؤيد حسن الظن بك»

ولما بلغوا المعادي، وقف الرجل على الرصيف يعتذر ويطلب الصفح. ثم انتقل إلى الرصيف الآخر ليعود من حيث جاء.

ولم ينقض عجب إبراهيم من جرأة هذا الرجل على مطاردة ميمي. ولا عجب ميمي من هدوء إبراهيم، وأخذه بتلابيب الرجل على هذا النحو.

وكانت وقدة الحر شديدة فمالا إلى روضة مقهى على النيل. وانحدرا إلى شاطئه واتخذا مكانهما في ظل شجرة وارفة. ونضا إبراهيم سترته، وحل رباط رقبته، وألقاها على كرسي، واضطجع وهو يقول «أكثر ما نلبس، للزينة. ولا تكاد تحتمل الزينة، مهما خفت، في هذا الحر. أحسب أن لو كان هذا أول لقاءنا، لكان الأرجح أن أتشدد وأتكلف الصبر على ما أعاني من الضيق والاختناق، رغبة في حسن رأيك. ولكنك قدمت يا فتاتي، وعرفتني معرفتي، فلا حاجة بي معكِ إلى معونة الثياب الانيقة والهندام الجميل».

فضحكت وقالت «ليتني أستطيع أن أصنع كما تصنع. ولكن ما على بدني هو أقل ما ينبغي للستر فلا حيلة لي إلا الصبر»

قال «مهلاً. مهلاً. لو علمت امرأة أن التجرد أفتن، لما عبأت شيئًا بالستر والحشمة، والحياء والخفر. لا يا فتاتي. لا تغالطي نفسك في الحقائق. فليس مطلب المرأة الستر، بل الفتنة والإغراء. ولا تحسبي أن للتقاليد والعادات والآداب أثرًا في هذا. فإنها نتيجة لا سبب. وأنتِ تتخذين الثياب، وتُبدين شيئًا وتُخفين أشياء، لا لأن الآداب والعادات والتقاليد تقضي بذلك، بل لأن المرأة

أدركت بفطرتها الذكية أن الثياب زينة، فوق أنها نافعة، وأنها تضاعف جمالها، وتزيد سحرها، وتقوي عوامل الإغراء، ولو أن الآية انقلبت، والقضية انعكست، وكان العرى أجمل، لكانت الآداب والتقاليد والعادات تستنكر الثياب، وتستهجن لبسها، وتقضي بنبذها. أي نعم. المرأة هي التي تقرر لنا آدابنا وعادتنا لا الرجل»

قالت «ما أقوى هذه المرأة .. وهي مع ذلك مغلوبة على أمرها. وما زال الرجل هو القوام عليها»

قال «نعم هو كذلك. وإنها لضعيفة إذا قيست إلى الرجل. ولكن لها قوتين لا يستخف بهما إلا أبله. قوة الحيلة التي أنماها ضعفها البدني. وقوة الجمال الذي ضمنته «الحياة» واختزلت فيه كل قوتها. فأين وجه العجب إذا كانت المرأة تصوغ للرجل دنياه؟

وكانا قد طلبا شايًا له وعصير ليمون مثلوجًا لها. فأقبل الخادم بصينية واسعة فضية اللمعان، وأقبلا عليها يتناولان مما فوقها. وأدنت ميمي قدح الليمون من شفتيها ثم ردته والتفتت إليه وقالت:

«في نفسي سؤال»

قال «هاتيه»

قالت «هل يثقل عليك أن أحشر نفسي فيما لا يعنيني؟»

قال «إنه لا يعنيني الآن إلا سروري بوجودك معي، في هذه البقعة الجميلة، والنيل يجري تحت أقدامنا والشجرة الوريقة تظللنا»

قالت «ألم يخطر لك قط أنك مسرف مبذر؟ إن الباعث لي على ..»

فقال مقاطعًا «دعي البواعث .. نعم أنا كما قلتِ، مسرف مبذر. ولكني لم أفكر في هذا، لأني خلقت هكذا. كما لا يفكر الإنسان كيف يمشي أو لماذا يمشي»

قالت «صحيح أنك كريم سخي اليد ولكن ...»

فعاد إلى مقاطعتها وقال «لا تغلطي .. ليس هذا كرمًا، ولا هو من الكرم في شيء، إنما هو التبذير ليس إلا، والفرق كبير بين الأمرين، وليت أجهل قيمة المال، ولست أدعي أني أحتقره، وإني لأعرف أن لو كان لي مال لكان لي شأن آخر في الدنيا بين الناس، تصوري مثلاً ما كان خليقًا أن يكون لي من مقام، وما كانت جديرًا أن أبلغه من المراكز الملحوظة لو كنت ذا مال، وكنت أستطيع مثلاً أن أدعو إلى بيتي هؤلاء وأولئك من أصحاب المناصب العالية والجاه العريض، والنفوذ العظيم، وأن أدعى إلى بيتوهم -أو قصورهم- وأن أكون معهم كأني من أندادهم وأقرانهم، أشهد معهم سباق الخيل وأغشى ما يغشون من أندية وغيرها وأقامر مع من يقامرون ... من يدري حينئذ ماذا كنت خليقًا أن أكون ... أعرف كل هذا ... ولا يخفى عليّ شيء منه، ولكني لا أتحسر على فوته، ولا يحزنني عجزي عنه لأنه ليس مطلبي في الحياة، أو همي من دنياي، ولست أشتهيه، أو أرغب فيه، أو أحس بما يغريني به، وقد بلغت حيث أريد بفقري، واستطعت -بذراعي، وبغير مدد من المال والناس- أن أكون حيث أنا، ولست بالقانع، ولكن ما أطمع فيه لا يحوجني إلى مال، ووسيلتي إليه ما أرجو أن يكون هنا».

ووضع أصبعه على جبينه.

فقالت «لست أعني هذا. ولكني أعني أنك لا تدخر شيئًا لشيخوختك».

قال «اليوم الذي أعجز فيه عن كسب رزقي بعرق جبيني هو اليوم الذي لن أحتاج بعده إلى مدخر. وليس لي ولد، وإذا كنتِ تشفقين على تحية فإن أباها بخير وهو يكفلها إذا طال عمره، وقد أفرد لها من ماله ما هو فوق الكفاية، فلماذا أضيق على نفسي وعليها، احتياطًا لمستقبل لا داعي للاحتياط له؟»

قالت «ولكنك قد ترزق الولد»

قال «صحيح، قد يحدث هذا، ولكني أرى أنه يكون خيرًا لبني أن يبدأوا حياتهم فقراء .. لا تستغربي، لقد كنت في حياة أبي، وإذ أنا في رخاء ورغد، تلميذًا بليدًا، خائبًا، فلما مات وحلت بنا الفاقة، وذهبت البلادة، وتعودتُ الجلد، واستفدت القدرة على معاناة الحياة، ومغالبة الصعاب، وخوض العباب، كلا، لست أوثر لأبنائي -لو كان لي أبناء- الترف واللين والطراوة، ولحسب كل ولد أن يكفل له والداه الكفاية من التعليم، وخير له بعد ذلك، أن يُقذف به في بحر الحياة المتلاطم»

قالت باسمة «والفتاة؟»

قال «والفتاة أيضًا، فإن المناعة لا تكتسب بين أربعة جدران، بل بالمعاناة والمكابدة، أم تخشين العاقبة على الفضيلة؟ -وضحك- إن فضيلة كعظم فتياتنا هي فضيلة الجدران السميكة. ولهذا لا

تكاد الفتاة تزايل ما يحيط بها من الجدران -المادية والمعنوية- حتى تضل، لأنها لا تستطيع، ولا تعرف، كيف تقاوم، كالذي يلبس ثيابًا كثيرة كثيفة، فهذه الثياب هي التي تقاوم وتحميه. ويكفي أيسر التعرض لإصابته بالمرض الذي يتقيه، وعلى خلاف ذلك من يعتاد التخفيف. فإن بدنه يحتاج إلى المقاومة فيتعودها ولا يضيره التعرض، كما يضير الذي يبالغ في التوقي»

وكان وجهه إلى الماء، وهي جالسة بحيث ترى معظم المقهى. فقالت بلهجة أقرب إلى الخفوت.

«لو كنت أسدل على وجهي نقابًا كثيفًا، لكان خيرًا لي الآن على الأقل»

فلفته خفوت الصوت، واضطراب النبرة، وقال، وأمال وجهه إليها «ماذا تعنين؟»

قالت «صادق. ومعه فتاة»

قال «آه ... لم يكن هذا في الحساب .. تبسمي له. وادعيه»

ففعلت بجهد. وأقبل صادق يحمل على ذراعه فتاة بارعة الحسن، زاهية الثياب، وعلى رأسها قبعة كبيرة من الخوص. وحياها إبراهيم كأنما كان على موعد معهما. ولكنه لم يبالغ في الترحيب حتى لا يخرج إلى التكلف.

وسألته ميمي «ماذا جاء بك إلى هنا؟»

قال «لأن هذا المكان، في مثل هذا الوقت، يكون أخلى من غيره. ففي وسعنا أن ندندن ببعض المونولوجات التي أعددتها

للإذاعـة. عـلى فكـرة .. هذه فتحيـة .. تلميذتي .. أو إحـدى تلميذاتي .. أبرعهـن جميعًـا في الحقيقـة. وأحلاهـن صوتًـا .. وهذا .. الأسـتاذ إبراهيـم .. وميمـي بنت خالتي .. حدثتك عنهـا كثيرًا. ألا تذكرين؟»

وقال بعضهم لبعض «تشرفنا»

وقالـت فتحيـة بصـوت أجـش، اسـتغرب إبراهيـم أن يصلـح للغنـاء «لمـاذا لم تعلـم ميمـي منولوجاتـك؟»

فتبسـمت ميمـي متهكمـة. وقـال صـادق «نسـيت أن أقـول إنهـا معلمـة. ولا يتسـع وقتهـا لهـذا. ولا يليـق أيـضًا بها»

فرفـع إبراهيم حاجبيـه متعجبًا لقلـة ذوقه. وقالـت ميمي «المكان خـال تقريبًـا إلا من الخدم .. وهم بعيدون .. فأسـمعونا شـيئًا»

فقالت فتحية «لا. ليس هنا ... إني استحي»

فقـال إبراهيـم «سـأغطي وجهـي ... أو -إذا كان هـذا لا يكفي- سأسد أذني»

وضحكوا. وقال صادق «ليس هذا وقته»

وقالت ميمي «ولكنكما جئتما لهذا. فهل وجودنا ...»

قال «نعم ... وجودكما يغير كل شيء ..» وضحك ثم قال «لا داعي للعجلة فما اسـتطعت إلى الآن إقناع محطة الإذاعة بقبول مونولوجاتي»

فقـال إبراهيـم «إذا كانت فتحية تسـتحي. فأنـت -ولا مؤاخذة- لا تسـتحي. فلـماذا لا تسـمعنا شـيئًا. لنـرى أيكـما على حـق، أنت أو المحطة؟»

فأبى كل الإباء. وقال إن ميمي تسخر منه، وتعد من السخافة أن يحاول أن يكون منولوجست ... ولم ننف ميمي أنها تفعل ذلك. ولم تفارقها ابتسامتها وكانت كأنها مطبوعة على شفتيها. ولم يفت إبراهيم هذا. وسره ما رأى وأفزعه أيضًا؛ سره أن يتبين أن جمودها هذا من الغيرة، حين رأت هذه الفتاة الجميلة وإن كانت قبيحة الصوت، على ذراع صادق. وأفزعه أن تغلبها الغيرة وتجنبها الحكمة. غير أنه رجا أن تظل -كعهده بها- متزنة الأعصاب، وإن كان لم يختبر متانة أعصابها في موقف تعصف بها فيه عاطفة قوية. وحدث نفسه وهو ينظر إلى صادق أنه لا عجب إذا أحبته ميمي، وخشبته في آن معًا. فإنه شاب قوي وسيم، ونظرته فاحصه نافذة، ومعارف وجهه كلها ناطقة بقوة العزم والجرأة، وفي خفة حركته وخبث نظرته ما يريب ويقلق ولا شك. ولكنه ليس على هذا بشرير. وإن كان ما عامله به أهله قد جعله ينطوي للناس على المقت والرغبة في الأذى، وأغراه بالاندفاع والتهور دون الاعتدال أو محاولة اكتساب حسن الظن به وطيب الرأي فيه. وقال لنفسه وهو يدير هذه المعاني في صدره إنه لم يخطئ حين حض ميمي على إيلائه الثقة وإيثار الحسنى معه، وتشجيعه، بدلاً من الزراية عليه .

وصفق، فجاء الخادم، وقال صادق «إذا سمحت يا أستاذ فإني أفضل أن أشرب قليلاً من البيرة»

فقال «والله إنه لرأي، فإنها في هذا الحر أوفق، فما قولك يا ميمي؟»

فالتفتت، وقد تنبهت على صوته، وسألته «إيه؟»

فلم يعد السؤال وقال للخادم «زجاجتان من البيرة، وأربعة أقداح يا مولانا بسرعة»

فاعترضت ميمي، فقال «هذه مناسبة طيبة .. أعني اجتماعنا بصادق وفتحية في هذا المكان الجميل.»

واغتنم الفرصة والتفت إلى صادق وقال «سمعت منك أنك تظن أن ميمي تسخر منك .. فاسمح لي أن أقول إنك لا تعرف ميمي إذا كنت تظن هذا .. إنها الوحيدة المعنية بأمرك ومستقبلك والرغبة في أن تراك -كما تريد أن تكون- شيئًا مذكورًا .. وهي لا ترغب في هذا فقط بل تثق بك، ولا يخالجها شك في أن لك مواهب عظيمة تستطيع أن تشق بها طريقك في الحياة. وإذا كانت تكتمك هذا فلأنها امرأة، أعني أنها تحبك، وتتعجل صلاحك، وتسخطها الحاجة إلى الصبر فتبدي خلاف ما تضمر. أليس كذلك يا ميمي؟»

فلم تدر ميمي ماذا تقول، واستغربت أن يحرجها على مسمع ومرأى من هذه الفتاة وشعرت بموجة من الاشمئزاز. وكادت -على خلاف عادتها- تقطب لولا أن أنقذها الخادم فقالت «سأصب لكم البيرة ولكني أرجو أن تعفوني»

فأصر أن تشرب. وملأ لها كوبها. فأذعنت. وارتفعت الأكواب إلى الشفاه وحسا كل واحد حسوة، إلا ميمي. فقد راحت تعب في الكوب حتى أتت على ما فيه. ثم حطته فارغًا إلا من الرغوة. وتنهدت كأنما انحط عن صدرها حجر.

فقال إبراهيم وهو يضحك «لم أكن أعرف أنك سكيرة يا ميمي»

وألقى إليه صادق نظرة استفسار فقال «حقيقة .. لا أعرفها تشرب شيئًا وأخشى أن أكون قد أخطأت بإثقالي عليها بالإلحاح. ولكن لا بأس. فما في البيرة من ضير»

وكانت ميمي تسمع وكأن الأمر لا يعنيها، ولم يسعها إلا أن تتعجب -في سرها- له مرة أخرى. لماذا كذب؟ وليست هذه شيمته، فقد شاربته غير مرة، ولم تكثر ولم تفرط، ولكنها شاربته البيرة والنبيذ ليس إلا. وغاظها منه أنه بسلوكه هذا يرمي إلى ما لا تعرف أو تتبين، ونفت فيما بينها وبين نفسها - أنه يريد أن يصقلها في عين صادق، فإن صادفًا لا يصرفه عنها، بل قد يزيد إقباله عليها وطمعه فيها، أنها تشرب قليلاً من البيرة من حين إلى حين.

وخطر لها أن لعله يقول هذا لتسمعه فتحية، على حد قول المثل «وإياك أعني يا جارة» وودت في هذه اللحظة لو خلت دقائق -دقائق فقط- بإبراهيم، فتسأله رأيه في صادق وفتحية. ومن أدراها أنه لا يعرف فتيات أخريات غير فتحية، يخرج معهن في سيارته الفخمة إلى المتنزهات الخلوية ليدربهن على المشاركة في إلقاء منولوجاته .. منولوجاته حقًا؟ أهذه وسيلته إلى الفتيات؟؟ لا عجب إذن إذا كان لم يبلغ سؤله منها -هي- فما تعبأ شيئًا بمونولوجاته السخيفة، وإنها لتحتقرها، وتحتقره أيضًا. وهذا هو الفتى الذي يتعقبها، ويطاردها بحبه المزعوم ويطمع أن تجاوبه،

وتبادلـه حبًـا بحب. منولوجيسـت .. يعوج طربوشـه وفمه وسـاقيه ويـروح يتحـرك حـركات مضحكـة وينطق بهـراء، أو يلبـس جلابية حمـراء مخططـة، وعلى وسـطه حزام مـن حبل وقدمـاه حافيتـان، لأن المنولـوج قـد يقتـضي هـذا المنظـر (البلـدي) أو يلبـس (طرطـورًا) ويصبـغ وجهـه ... هـذا هـو صـادق .. فليقنـع بفتحيـة وأمثالها...

ونهضـت، وراحت تتمشـى على الشـاطئ بخطوات بطيئـة، وهمّ صـادق أن يتبعهـا، فـرده إبراهيـم، ورمـى إليـه نظـرة فهمهـا صادق فهـز رأسـه وابتسـم وخـف هـو إليهـا فلـما صـار إلى جانبهـا قـال «ليسـت هـذه ميمـي التـي أعرفها»

قالت وهي تنظر إليه «نعم ولا أنت الذي أعرفك»

قال «أسمعيني رأيك الجديد في العبد لله»

قالت «لا تمزح ... لماذا كذبت؟»

قـال «لأن مـا تفعلينـه وأنتِ معـي وحـدك، لا أرى مـن حقي أن أدع لسـاني يثرثـر ويغلـط به ..»

قالت «لم يسألك أحد حتى تحتاج إلى الكتمان»

قـال «سـؤال الحال أبلغ يـا فتاتي .. يـراك تشربين البـيرة .. بطبيعة الحـال وبغـير تـردد، كأنـما تفعلـين ذلـك منـذ نعومـة أظفـارك فـماذا يظن بـكِ وبي؟»

قالـت «ومـاذا يعنينـي مـن ظنـه بي؟» بـل مـاذا يدعـوني إلى كتمان علاقتـي بـك؟ مـاذا يمنعنـي أن أصارحـه بهـذا؟ مـا شـأنه هـو؟ أي حـق لـه عـليّ؟ وسـأصارحه وأحسـم هـذا الأمـر الـذي طال»

قال «هل سائك منه أن معه هذه الفتاة؟ كوني أوسع صدرًا وأرحب أفقًا»

قالت «ولماذا يسوئني؟ وما شأني إذا كان معه ألف فتاة؟ إنه حر وأنا أيضًا حرة»

فلم ير أن الموقف يسمح بطول الحديث وقال «طبعًا. طبعًا. والآن أرينا هذه الابتسامة التي احتجبت عنا اليوم. أرينيها .. وأري صادقًا أيضًا.. هاتي»

فأدركت مراده، وغالبت نفسها حتى استطاعت أن تبتسم.

فقال «هذا أحسن.. ولا تبخلي عليّ .. علينا جميعًا .. بحلاوتها وفتنتها حين نعود إليها. أريد أن أرى ميمي .. اليوم على الخصوص كما أعرفها.. تمامًا»

فهزت له رأسها هزة خفيفة وألقت إليه نظرة شكر. فقال وهو يعود بها.

«والآن. من الآن سنكون ضيوفك. فأذيقينا كرمك. واحتقبي سكرنًا. وشكر العبد لله خاصة. وثقي أنك ستحمدين ما أكلفك»

قالت «هذا يقيني. وأنت تعرف ثقتي بك»

ورأى صادق بشرها وتطلق وجهها

فتعجب لسلطان إبراهيم علسها وود لو كان له مثله

وشعر بالغيرة تدب في نفسه

(٨)

وانحدرت الشمي. فخرجت الدنيا من الحر، وطاب الوقت، واعتدل الجو وطالت الجلسة على النهر، وانشرحت الصدور. ولم يعد إبراهيم يلمح ما كاد يعكر الصفو قبل ساعة. وسره من ميمي أنها قدرت على مغالبة نفسها وارتدت إلى السجاجة والبشاشة، وحسن الإيناس. وأعجبه من صادق أنه يتكلم بسهولة - ولا يبدو عليه تكلف، أو تحرز، كأنما لا يعينه من ميمي شيء. أما فتحية فكانت معظم الوقت صامتة وكان هذا خير ما يمكن أن تصنع في رأي إبراهيم. فقد كان يشعر، حين يتكلم، أن صوتها يجرح أذنه، أو يصك سمعه بمثل الحجارة.

وآن أن ينصرفوا. وكان صادق يرد لو لبثوا ساعة أخرى، ولكن ميمي القت إليه نظرة رقيقة فيها من الأسف والتوسل والاعتذار معان. وقالت «أنت تعرف خالتك» فهز رأسه وهو مطرق ثم التفت إلى إبراهيم وقال «لا داعي لركوب القطار فإن معي السيارة. والطريق الجميل.»

فقال إبراهيم «ونرمي فلوسنا؟» وأخرج من جيبه التذكرتين.

ووقفوا أمام السيارة. ودار إبراهيم حولها معجبًا بها، متمنيًا لو كان له مثلها فعرض عليه صادق أن يتولى قيادتها فأبى وقال «لا يا سيدي. فإني أخشى أن أتلفها. ثم إني، إذا قدت هذه، لا أحسبني أرضى بعدها عن سيارتي الحقيرة. فأصنع معروفًا ودعني قانعًا بما أملك».

وخيل إلى صادق أنه يبالغ في إعجابه بالسيارة. والغض من سيارته هو لأمر ما فقال -لا يدري لماذا- «إنها سيارة الوالد المحترم، ولم أشترها أنا بمال لي».

ولم يسر ميمي أن تسمع عبارة (الوالد المحترم) فقد أذكرتها بما كان من أمره معها في طريق الإسكندرية. وهي تجربة لا تحمى ذكراها ولا تحمد، لشدة ما يختلط فيها الحلو بالمر، والأمل بالخوف، والوهم بالحقيقة.

وسمعت إبراهيم يقول، وهو يفتح الباب ويشير إليها أن تركب «أحسب أن بلادنا هي الوحيدة التي يجتمع فيها هذا العدد الضخم من السيارات الفخمة من كل طراز أوروبي وأمريكي. أو لعل الأصح أن أقول بلادنا ونظائرها من البلدان التي لا تصنع السيارات، وإنما تقتنيها. لا أعد هذا مظهر غني، أو آية رخاء، وإنما هو عندي مظهر غفلة، أو آية تخلف. والمثل العامي يقول (رزق العبط على المجانين) ونحن الأمم المتخلفة في ركب الحضارة العالمية، المجانين الذين تجد أوروبا وأمريكا رزقهما عندهم»

واتخذ صادق مقعد القيادة، وإلى يمينه تلميذته. واحتل إبراهيم وميمي المقعد الخلفي. ودارت السيارة. ومضت على مهل. وكان

القمر في ليلة السواء - والطريق على جانبيه الشجر، وجله وريق منتشر الاغصان، متلبس بعضها ببعض فوق الرؤوس. والقليل منه أمرد انجرد من الورق. والأرض دنانير رقاصة.

وكان صادق متمهلاً. ولكن إبراهيم مع ذلك لا يطمئن. وكان لا ينفك يدفع قدميه كأنما يحاول أن (يربط) وتلك آفة من يحسنون قيادة السيارات حين يتولى غيرهم قيادها. وأكثر من يفعلون ذلك من ذوي المزاج العصبي. وكانت عين إبراهيم على الطريق لا تتحول عنه. وكان لا يفتأ يحرك راسه يمنة ويسرة ليستبين فلم يكن باله، من أجل ذلك، إلى جارته. ولا كان يستطيع الكلام أو الإصغاء. بل ما كان ينعم بجمال الطريق وسحره في هذه الليلة المقمرة الساجية لفرط اشتغاله بالطريق وما يصنعه صادق. على أنه على قلقه كان يتقي أن ينبه صادقًا أو يحذره، مخافة أن يحدث له اضطرابًا، فإن كثيرين يرتبكون إذا صحت بهم فجأة. وكان شر ما يزعجه أن الحقول على يمين الطريق أوطأ وأدنى. فهو يخاف أن تنقلب السيارة، ويود لو توسط صادق ونأى عن الحافة. ولم تكن كثرة الشجر تطمئنه وتنفي ما يحاذر من الانقلاب، فإن المسافة ما بين الشجرة والشجرة غير قصيرة.

ولكنهم بلغوا مصر القديمة في سلام ومن غير إن يقع لهم حادث. وكان حق إبراهيم أن يتشهد ولكنه لم يفعل. وقال لنفسه أن شوارع المدينة غاصة بالترام والمركبات والسيارات والناس الذين يسيرون وكأنهم يتنزهون في حدائق بيوتهم. وهمّ مرات أن يستأذن ويركب الترام، فإنه آمن فيما كان يحس. غير أنه استحيى وطال تردده فضاعت الفرصة.

وصاروا في ميدان الإسماعيلية. ولم يكن نظام المرور في ذلك الوقت وافيًا بالحاجة بل لم يكن ثم نظام ما. فكان كل سائق يمضي على هواه، إلى حيث يشاء وهو آمن أو مجازف. وكاد إبراهيم، والسيارة تقتحم هذا الميدان المضطرب، يثب من السيارة إلى الأرض من فرط الجزع ولكن صادقًا كان حاذقًا فمر كالسهم، بسلام، من بين قطاري الترام. فاضطجع إبراهيم، ومسح العرق المتصبب بكفه ونظرت إليه ميمي فأدركت ما به وقالت بابتسام «خائف؟»

قال «بل ميت من الخوف .. مت مائة مرة وسأموت مائة أخرى إذا لم أنزل».

قالت «لا تخف وثق بصادق ..» وضحكت «غريب أن أدعوك أنا إلى الثقة به وأنت الذي تلح عليّ بذلك ..»

قال «هذا شيء آخر. مختلف جدًا»

قالت «على كل حال قربنا .. أعني أن في وسعك إذا شئت أن تتركنا عند شارع فؤاد»

قال «يؤسفني أن أقول إن هذه ستكون أسعد لحظة»

ولكنه صادقًا أبى أن يدعه، وأصر على أن يبلغه بيته – بعد الفتاتين.

فضحكت ميمي وقالت «هذا امتحانك. فأرنا إراداتك القوية».

فتنهد وقال «لا إرادة ولا شبهها .. الأمر لله، ثم لهذا المجنون»

قالت «ولكنه ليس مجنونًا .. إنه متمهل جدًا، ومحاذر جدًا»

قال «محاذر؟؟ ألا ترين كيف يمرق بين السيارات كأنه بسكليت؟»

قالت «هل تريد أن يقف حتى يخلو له الشارع من كل راكب وراجل؟»

قال «تركت لك البيعة ...»

وفي هذه اللحظة، وقبل أن يتم ما كان ينوي أن يقول، وقعت الحادثة! ولا يدري أحد كيف وقعت، أو كيف تعذر اتقاؤها. وكان صادق في هذه اللحظة يقطع شارع فؤاد وهو مقبل من شارع سليمان باشا، ويحاول أن ينثني متجهًا إلى اليسار فرأى على ما يقول، موتوسيكلاً مقبلاً بسرعة من اليمين فخشى أن يصطدما فمال ميلاً شديدًا إلى اليسار ليفسح له، فاصطدم بالترام الواقف في محطته، ولم يصب أحد بسوء يستحق الذكر، ولكن السيارة تحطم مصباحها الأيسر، وانطبق جناحها على العجلة، فوجب رفعه عنها ليتسنى لها أن تدور، أما الترام فلم ينله أذى.

وأقبل الخلق من كل صوب وتزاحم الرجال والغلمان وعلت الأصوات واختلطت الصيحات وعظمت الضجة، وأقبل شرطي يسأل عن الخبر، وينحّي أهل الفضول عن طريقه، وكان صادق قد نزل، وألقى على السيارة نظرة، والترام أخرى، فلما جاء الشرطي تقدم إليه وقال.

«اسمع، لا أستطيع ان أجيئك بالمسئول الحقيقي، ولكنك ترى أن سيارتي هي التي تحطمت، وأن الترام ليس به شيء، ومن حسن الحظ أننا نجونا ولم يلحق بنا مكروه، فهل لك أن تتفضل وتصرف هؤلاء الناس وتدعني أمضي في سبيلي؟»

قال الشرطي «لا بد من المعاينة وكتابة المحضر»

قال «معاينة لماذا؟ ومحضر لأي شيء؟ سيارتي هي التي تلفت، وبفعلي أنا، والترام بخير. وأنا أعلن هذا على مسمع من ألف واحد يستطيعون أن يكونوا شهودًا لك وللترام، وعليّ، فاصنع معروفًا ودعني، فما بأحد أية حاجة إلى معاينة أو محضر.»

وبدا على الشرطي التردد، وانقسم الجمهور إلى فريقين، واحدًا يريد التطويل لتطول متعته، وآخر يحمد من صادق أنه لا يكابر، ويعجبه منه اقراره بالحق وأنه يشهد على نفسه، ونظر الشرطي إلى سائق الترام فقال هذا «إذا كان الأفندي يريد أن يصرف الحكاية، فلا مانع عندي ولكن خذ رقمه واسمه ودوّن اعترافه حتى لا يعود فيدعي علينا زورًا أننا كسرنا سيارته»

فقال صادق «هذا عدل» وأخرج بطاقة كتب عليها اقراره، ودون الساعة والدقيقة ورقم السيارة، ومد يده بها إلى الشرطي، فقدمها هذا إلى السائق.

ولم يستغرق هذا كله سوى دقائق عشر، وكانت هذه أعجوبة، ثم عادت السيارة فانطلقت في طريقها، وإبراهيم معجب بحزم صادق، وما أظهر من رجولة وقدرة على الحسم السريع، وحمد له تعجيله بإخراجهم من هذه «الزفة» وحدث نفسه أنه لم يخطئ

حين قال لميمي أن صادقًا ذو مواهب قد تكون معطلة ولكنها موجودة، وإن كانت كامنة، ولو أتيح لها مجال أو فرصة لظهرت.

وخطر له وهو مضطجع أنه لا يستغرب أن يحدث هذا في اليوم الثالث عشر، وحمد الله على اللطف في قضائه.

ولاحظ إبراهيم أن صادقًا مالكٌ لأعصابه على الرغم من رجة الحادث، وأن عقله حاضر غير غائب، ولم يفته أنه ذهب بفتحية إلى بيتها، قبل غيرها، فنزلت أول من نزل، ثم عاد فعرج على بيت ميمي، وهنا ألح إبراهيم في الاستئذان اشفاقًا على صادق، وإيثار لراحته -هكذا زعم- ولكن صادقًا ظل على إصراره .. ووقف الرجلان أمام البيت يتجادلان. فقالت لهما ميمي.

«الأولى أن تدخلا إذن»

فقال إبراهيم «كلا اصعدي أنتِ واستريحي، ولا حاجة إلى جدل فإني ذاهب»

ورأى صادق صحة العزم في صوته ووجهه فأقصر آسفًا.

وكان الذي دعا إبراهيم إلى الإصرار على ترك صادق، أنه خاف عاقبة اصطحابه والتقائه بتحية، فما يستطيع، ولا يليق، أن يكلفه رحلة طويلة ثم يصرفه من الباب بكلمة شكر فارغة، ولا بد أن تسأله تحية عما حدثها به زوجها من أنه -أي صادق- يوشك أن يتزوج ميمي، والنساء ثرثارات، وليس أحب اليهن من اللغط بقصص الزواج والشروع فيه، وقد يحدثها صادق عن الحادثة، وعن جلسة المعادي، ولا يبعد أن يروي الأمر على

وجهه الصحيح وأن يتحرى الدقة، فيذكر أنه وجدهما معًا، فماذا عسى أن تظن زوجته إذا علمت أنه يتّعد مع ميمي، ويلقاها ويذهب بها إلى هنا وههنا ولا يخبرها بشيء من ذلك؟ إن هذه تكون صدمة جديدة تردها إلى الوجوم القديم، وتقوي سوء ظنها به، وقد تدفعها إلى اليأس منه، أو من قدرتها على الاحتفاظ به، وليس مما يقوى على احتماله أن يعاني هذه المحنة مرة أخرى، وأن يفقد ثقة تحية وحبها على الأرجح، وسيفقد ميمي يوم تعرف ما تبطن لصادق من الحب، فإذا ترك صادقًا يصاحبه فإنه خليق أن يفقد المرأتين جميعًا. وهب صادقًا لم يقل شيئًا، وتحية لم تسأله عن شيء، فإنه حقيق أن يبدو بينهما مرتبكًا مضطربًا، فيثير الوساوس أو الشكوك في نفس تحية، فالخير كل الخير، أن يبقى هذا الشاب حيث يشاء إلا معه، وأن يلقى من يشاء غير تحية – على الأقل إلى حين .

(٩)

وفي تلك الليلة خلا اثنان بنفسيهما، أستاذ وتلميذته، كل على حدة.

فأما التلميذة فميمي. ذهب بها صادق إلى بيتها، وصعد معها فتركته مع أمها ريثما تغير ثيابها وتصلح من شأنها، ولكنها لم تغيرها ولا كانت بها حاجة إلى ذلك. وإنما قعدت على كرسي بين السرير والمرآة وقالت لنفسها «لست أستطيع أن أجرد من نفسي شخصًا ثانيًا -كما يصنع إبراهيم- ولكني أستطيع أن أنظر إلى خيالي في المرآة»

وأقبلت على الخيال البادي في صقال المرآة تتأمله، وتُميل وجهها يمنة ويسرة وتسوي شعرها ببنانها، وأخرجت (الأحمر) فمرت به مرًا خفيفًا على شفتها السفلى ثم أطبقت العليا عليها، وتبسمت إذ تذكرت أن إبراهيم كان إذا بلغ بها مأمنًا أشار إلى ثغرها، فتخرج منديلاً وتبله بيرقها، بطرف لسانها، وتمسح هذا الأحمر الذي لا يطيقه إبراهيم وإن كان يغضى عنه في الطريق، ولا يأبى عليها زينتها وهي غادية أو رائحة. وتساءلت ميمي أتراه يخشى أن يبقى بفمه أثر منه؟ ونفت ذلك. وقالت إن تحية لا

تصبغ شفتيها بهذا الأحمر ولا تمسح وجهها بالمساحيق، بل ليس في بيتها شيء من هذا.

وعكفت على اصلاح هندامها وهي تحدث نفسها أن إبراهيم ينطوي لتحية على حب عميق متغلغل في شعاب نفسه إلا أنه ساكن لا يثور ولا يفور، وأنه لم يرفعها -هي- هذا المقام فبقيت في منزلة الصديقة ليس إلا. نعم أقطعها من نفسه مكانًا كريمًا، وكلنه أبى أن يجاوز هذا الحد الذي خطه من أول يوم، وأولاها وده وعطفه، وآثرها على غيرها -وكان لها أبًا وأخًا وصاحبًا- غير أنه في سنوات طويلات المدد لم يجر لسانه -ولا مرة واحدة- بذكر الحب، ولم يقل لها قط إنه يحبها، وزجرها مرارًا عن اللغط بهذا اللفظ، حتى في اللحظات القصار التي يسهل فيها، من فرط النشوة، وطيب المتعة، أن تنتزع العاطفة اللجام وتنطق به جامحة، كان الزمام لا يفلت من أصابعه، والرشد لا يخرج من كفيه، والعقل لا يفقد سلطانه وسيطرته، واللسان لا يجري إلا بقدر.

وتذكرت كيف أنه كاد مرة ينسى نفسه، ويعدو ما خط ورسم، فقد رق حتى قارب أن يذوب، ثم هاجه لما به ما لا تدري، فانتفض وانقض عليها - يطوقها، ويعصرها، ويصهرها، كأنما يريد أن يشق بها ضلوعه إلى قلبه وهي تلين له في العناق، وتئن من طيب ما تجد وألمه، ويلثم فاهها ووجنتيها وعينيها، وجبينها، وشعرها -ويشمه أيضًا- ويدفع راحتيه متحسسًا، ويملأ قيضته بلحمها كأنما يريد أن يقتطع منه، وهي مُدار بها كالمسحورة أو المخمورة من دهشة المفاجأة وسرعة التحول من اللين إلى العنف، وحلاوة الأخذ بقوة، ولسع الرغبة المضطرمة، وتود لو مضى إلى

ما يشاء من مدى، وتشفق أن لا يفعل، وترجو أن يطول أمد النشوة. وإذا به يدفعها عنه فجأة، كما جذبها فجأة، وينأى عنها وصدره كالخضم مضطرب، ويقول بجهد واضح «كلا. ما ينبغي هذا فلستِ لي. ولا أنا لكِ، وسنندم -كلانا- إذا لم نرشد»

ومر أمام عينها -كشريك السينما، ولكن كخطف البرق- كل ما كان بينها وبينه ولم يسعها إلا أن تعترف بأنه أمتعها ولم يحرمها - كما قال لها مرة وهو يضحك «الا استيفاءات يتم بها (المحضر) ولا يعد ناقصًا بغيرها على حد تعبير الشرطة»

ونهضت ودارت أمام المرآة. وتأملت قدها من الجانبين، ومن خلف ومن قدام وحدثت نفسها أنها هي أيضًا أمتعته. ولم تقل ذلك على سبيل المن، بل إعجابًا بحسنها، فما كان يخفى عليها -ولا كانت في هذه اللحظة تنكر- أنه كان أسهل شيء على إبراهيم أن ينال منها كل منال. فما كانت تشعر، إذ تكون معه أن لها إرادة غير ما يريد، وكانت ربما اشتهت أن يرخي أصابعه ويدع اللجام يفلت من بينها. ولكن وطأة هذه الرغبة لم تكن تثقل عليها أو تلج بها. وكانت تحس -ويخيل إليها- أنها ما تمنت ذلك أحيانًا إلا من أجله، ولتهبه من السعادة كل ما لعله يحلم به. وكان يطيب لها أن تغالط نفسها على هذا النحو وأن تتصور أنها مصدر سعادة له، وأن عندها ذخائر من الاستمتاع بحسنها فوق ما فاز به ونعم، وكانت ربما تعجبت لزهادته وقناعته، وخشيت أن يكون ذلك مرده إلى نقص في فتنتها وقوة جذبها عن حد الكفاية. فلولا صراحة إعجابه بها، وخوفه عليها، وضنه بها، لعذبها هذا الشك الذي كانت وساوسه تهجس في خاطرها كلما أقصر.

وألفت نفسها تكبر منه، وتحمد له، أنه أكرمها، ووقاها ما كان غيره خليقًا أن يجرها إليه، وصانها عن الشعور بالابتذال. ولقد قتر عليها، ولم يعاطها الحب إلا بقدر يكفي أن يعفيها من عذاب الالتياح وإن كان لا يبلغ أن يكون ارتواء. ولكنه قتر على نفسه أيضًا، وتجشم في ذلك ما لم تتجشمه هي، فقد كان الزمام في يديه، والمجهود كله مجهوده؛ فإن شاء أحب وأوضع وإن شاء تمهل وترفق، فأبى إلا التحرز.

وأحست أن نفسها تفيض بالشكران له على ما توخى من تجنيبها الامتهان، ولو كان أذال ما يجب أن يصان، لما وسعها أن تلقى صادقًا بما لقيته وتلقاه به.

صادق ...

وأدارت اسمه على لسانه كأنما تريد لتتذوقه .. فأحست بمثل النار تندلع في صدرها، وتتقد علوًا وسفلاً، فرفعت يدها إلى وجهها تتحسسه وتجسه، فوجدت بردًا، ولم تجد حرًا، وحدثت نفسها ساخرة أن هذا لنعم القريب المحب العاشق .. توليه الثقة التي لا يستحقها، عملا بمشورة إبراهيم وتؤثر معه الحسنى، وتبدي له صفحة الود، لتتألفه وتغريه بأن يكون شيئًا، فينقلب وحشًا يستدرجها إلى مهمه قفر ليفتك بها زاعمًا أن هذا من الحب! وهو مع ذلك قريبها، ومن لحمها ودمها. فكان حقه أن يصونها ويعف كما عف عنه إبراهيم وليس من نسبها، فإذا كان يهم بها هذا الهم، ولا تمنعه قرابة الدم أن يحاول اغتصابها،

فماذا تراه يصنع باللواتي لا تصله بهن صلة رحم فتحية مثلاً؟؟ تلميذته التي ترى له عليها حق الأمر ..

ومطت شفتيها لما ذكرت فتحية. ولم تنكر أن لها جمالاً ولكنها أنكرت أن صوتها يطاق. وشبهته بصوت زمارة ينفخ فيها من لا يحسن الزمر. وليست هذه بالتلميذة الوحيدة .. وكل همه أن يكون مونولوجست .. بففف.! وإن أباه لفي سعة. ولكن لا هو ولا أبوه يخطر لهما أن يصنعا شيئًا يعالجان به هذه البطالة المزرية. هي فتاة تكسب رزقها بعرق جبينها. وهو فتى لا يستنكف أن يعيش حميلة على ذويه. وهذا هو الذي يطمع فيّ، ويحلم بأن أكون له زوجة ..

ومع ذلك أحست أن قلبها يرق له. وإنه لجدير بكل ما صبت على رأسه من نعوت ولكنها لا تحفل ذلك كثيرًا وإن كان يمضها ويرمضها. أليس من رحمها وإن كان عاطلاً؟ وإن الفتيات ليحمن ويلبن عليه كالذباب .. أي نعم كالذباب. فما هي بخير منه ولا أطهر .. فلا بد أن له مزية .. فتنة .. جذبًا .. وإلا لما قدر على ذلك.

واعترفت أن له جذبًا. ولكنه يخيفها ويفزعها .. أما لولا ذلك .. لولا خشيته لأمكن أن .. ماذا؟ أترى إبراهيم قد صدق، وصحت فراسته حين قال لها إنها تحبه في قرارة نفسها وهي لا تدري؟؟ نعم تنطوي له على الود والعطف والأسف لما هو فيه. ولكن .. كيف تحبه وهو عاطل؟ وكيف تأمنه وتطمئن إليه وهو لا ينفك يحمل على ذراعه فتحية ونظائرها ولا يشعر بارتباك أو خجل حين تلقاهما معًا.؟؟

وذهبت تقطع الغرفة جيئة وذهوبًا. ثم انحطت على الكرسي وقد أحست أنها تعبت. وتجمعت العبرات في مدمعها وحلقها، وجاهدت أن تردها، ولكنها أرفضت فتركتها تقطر على خديها، أو تنهمل. ولم يكن يُسمع لها بكاء. ولكن صادقًا كان قد استبطأها، فدخل عليها -كالثعلب- فألفاها هكذا - جالسة. ورأسها مثنيٌّ على صدرها. والدموع تتسايل على وجهها، وتقطر على كفيها في حجرها. فخطا إليها بسرعة وجثا أمامها وراح يلثم راحتيها باطنًا وظاهرًا. ثم رفع رأسه وجفف لها دموعها بمنديل. ثم ضمها إليه حانيًا عليها، مريحًا خده على شعرها.

فتنهدت وهمست «صادق»

قال «نعم يا ميمي»

قالت «تعدني! ...»

قال «إنما لك الأمر وعليّ الطاعة ..»

قالت «وتترك المونولوجات ... وفتحية وغيرها؟»

قال «كل ما لا يرضيك لا أفعله»

قالت «و.. و.. ولكنك عاطل ...»

قالتها بعد تردد وتلعثم وتشجع. ولم تقذف بها في وجهه

فقال «من الغد أحاول جادًا أن أغير هذا»

فاستدارت شفتاها لشفتيه

وتحاجزا فقال صادق «أشكرك يا ميمي»

قالـت «بـل أشـكر إبراهيم. هـو الذي فتـح لي عينـي .. أو علمني حبك .. لا أدري»

قال «ما أغربه ..»

ولم يزد.

(١٠)

وأما الأستاذ فإبراهيم.

دخل كالصاروخ، وكانت تحية تنتظره، وفي يدها كوم من ورق اللعب تلقيه متجاورًا على المنضدة في صفوف متتالية، وتتبين حظها من تقارب ورقات معينة، أو تباعدها، فابتسمت له ابتسامة السرور والترحيب بأوبته وتوقعًا لسخره مما هي فيه. ولكنه مضى إلى باب غرفة المكتب وقال وهو يهم بالدخول.

«لا تدخلي عليّ حتى أدعوكِ. وسأدعوكِ».

ورأت صرامة نظرته وتجهم وجهه، فتحجرت الابتسامة -لم تغض بل صارت رسمًا تنقصه الألوان والمعنى- ولم يكن هذا عهدها به إلا حين يكربه همٌ ثقيل. فقلقت، وارتدت عينها إلى الورقات المتجاورة فنحتها بكلتا يديها. واتكأت بكوعها على المنضدة وأسندت رأسها إلى كفها وراحت تنتظر قضاء الحظ فيها.

وارتمى إبراهيم على كرسي وهو يقول لنفسه «إن الأمر جاوز الحد هذا الجار الذي انشقت عنه الأرض اليوم، وأقبل بتعقبنا، من يدريني أنه ليس هناك غيره، يرى، ويتتبع، ويستخبر، ويروح

يلغط؟ وإذا ألح الرجال على ميمي بالمطاردة فما عسى أن تكون العقبى؟ وتحية؟ تحية التي رددت إلى محياها البشر والتطلق، هل أعود فأعذبها هذا العذاب الغليظ الذي لم أرحها منه إلا بمشقة؟

وخطر له أن يرجى البت في هذه الأمور الاشكال إلى الغد، فإن اليوم هو يوم النحس الثالث عشر .. ثم عاد يقول «كلام فارغ .. الأمر أكبر من ذلك وأنا هنا الساعة لأراجع نفسي وأحسابها وأستقر على رأي لا تردد بعده. وماذا تقول تحية إذا خرجت إليها متحيرًا بعد أن وقع في روعها من كلامي ولهجتي وهيئتي أني مزمع أمرًا له ما بعده؟»

واضطجع وشرع في الحساب. وخيل إليه، وقد استغرق ذلك، أن نفسه تتمثل له جالسة قبالته، مضطجعة مثله، وإحدى ساقيها ملتفة بالأخرى. وكبر هذا في وهمه حتى لقد همّ أن يقدم لها سيجارة.

وقال «إن السؤال الأول -والأولى بالتقديم، والذي يقع على المحز ولا يترك سبيلاً إلى المراوغة والهرب- هو هل استطيع أن أستغني عن تحية؟

فهزت نفسهُ رأسَها بشدة أن «لا»

قال «كلا، لا أحسبني قادرًا على ذلك، أو مطيقًا له، وما أظن بتحية إلا أنها قد صارت «عادة لي».

فقالت نفسه «نعم عادة .. ولم لا؟ أي ضير في هذا؟ إن كل إنسان حزمة من عادات تكبر وتضخم، شيئًا فشيئًا، على الأيام

مع ارتفاع السن، ويحسن أن توطن نفسك على هذا، وليست تحية بالعادة المفردة فإن هذا الحساب العقيم الذي لا تزال تؤديه، وتكفلني أداءه، وتسوّد به عيشي معك، عادة أخرى. وأقول الحق إنك أتعبتني وقد مللت صحبتك، ولو كنت تصدر عن رأيي، وتعمل بمشورتي ... ولكنك عنيد مكابر»

قال «وكيف بالله أصنع وأنت تشيرين بالرأي ونقيضه؟»

فأحست نفسه أنها تهورت، فأقصرت وقالت «مهلاً، فليس هذا وقته، لقد كنا نقول إنه لا غنى عن تحية، وإنها عادة لك، انتهينا إذن»

فقال «كلا لم ننته، فهل أن أحبها؟»

قالت «يا أخي ما قيمة هذا؟ ثم إنك تحبها ولا شك - حبًا هادئًا لا فائرًا عارمًا كما كان في البداية، ولكل فورة سكون، ولكل جديد لذته ثم تبلى الجدة، وتذهب معها اللذة، كالثياب ...»

فثار بها مقاطعًا «قبحك الله، تشبهين تحية بثوب يبلى ويُطرح، ويُخلع على فقير؟»

قالت «ها، ألم اقل لك أنك تضمر لها حبًا وإكبارًا.؟»

قال «دعي هذا. المهم أنه لا غنى بنا عنها ولا طيب للحياة بدونها»

قالت «ولماذا كل هذا النفور، بل الفزع، من ذكر الحب؟ أتراك أصبحت كمصاصة القصب التي ذهب عصيرها؟ فأنت تنفر مما لم تعد قادرًا عليه لأنك جففت ونشفت؟»

قال «أما إنكِ لثقيلة، ثم إنكِ لم تصدقي، فما عجزت عن الحب، ولكن ..»

قالت مقاطعة «مع غيرها ... اختَشِ يا شيخ، هبها ملتك كما مللتها وذهبت تنشد التسلي كما تنشده ...»

فصاح بها «اخرسي ..»

قالت «إذن أنصفها، ولا تكلفها إلا ما تكلف نفسك، وإلا زهقت روحها إذا ظلت على التصّبر والتشدد، ولم تذهب تتعزى وتتلهى مثلك، وعلى فكرة ... إن روحها تكاد تزهق الآن من القلق والاضطراب. يا ما أقل ذوقك معها وأسخف رعايتك لها .. ألا ترى أن الأوفق أن تفض الجلسة وتخرج لترد إليها روحها؟»

قال «صدقتِ، وغني لوحش، فلنعجل، إذن لا معدي عن عمل نعمله؟»

قالت «طبعًا، وإنه لسهل»

قال «سهل؟ تقولين سهل؟؟»

قالت «نعم إذا كانت علة الفتور أنها لم تستطع أن تجدد نفسها لك فجددها أنت لنفسك»

قال «يبدو لي أن هذا معقول ولكن كيف؟».

قالت «لا تكن بليدًا. فكر .. اختر لها ثيابها برأيك .. مثلاً .. فصلها على قدها على هواك، فلن يسوئها بل أخلق أن يسرها أنك معنىٌّ بها وبتجميلها في عينك .. غيرّ لها ولك المناظر التي

تحيط بكما - اذهب بها إلى لبنان، ولا تخش ولا تقبل منها اعتراضًا، واذكر أنك حفيد أولئك الأجداد الحكماء العمليين من أهل الكهوف والغيران، وأنها هي أيضًا حفيدة أولئك الجدات اللواتي كن يفرحن بقوة الرجل وسطوته ويلتذذن طاعتهن له».

قال «أظنك على صواب. وهذا يذكرني بقول أبي تمام.

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

بل الحياة نفسها إنما كانت لها هذه المحبة لأنها ليست بسرمد، اتفقنا .. وإلى لبنان إذن».

وهم بالنهوض، فأومأت إليه أن مهلاً، وقالت «وميمي؟».

قال «هي عاقلة، تفهم، وتعذر».

قالت «خير لك أن تكتب إليها - هذا أسهل».

قال «الحق معكِ».

ودعا تحية فأقبلت واجفة القلب فابتدرها بقوله.

«سنسافر فاستعدي»

فريعت، وتوهمت أن مكروهًا حاق بأحد من الأهل .. ولمح آية الجزع والفزع في محياها -ووخزته نفسه وهمست في أذنه «يا شيخ حرام عليك»- فتبسم وقال «إلى الشام».

فوضعت يدها على صدرها وتنهدت، ثم سألته «الشام؟».

قال «نعم بأسرع ما نستطيع»

قالت «ولكن الشام؟ هذا .. كلا. ليس الآن».

قال «ماذا تعنين؟ الشام قلت، وإلى الشام سنذهب».

فهمست نفسه في أذنه معجبة به راضية عنه «هكذا يتكلم الرجل ... برافو ..».

قالت «ولكنك غير فاهم، ليست المسألة أني لا أريد السفر فإني أريده وأشتهيه ولكن .. ولكن ..».

وتلعثمت واتقد وجهها كالجمرة، وغضت من بصرها، فدنا منها وأحاطها بذراعه وسألها بحنو «مالك؟».

قالت وهي مطرقة، وشفتها تختلج «إني ... إني ... أنا حامل».

فقال على البديهة، وبغير تفكير، وذهنه متجه إلى الحجة لا إلى الخير «كلام فارغ .. أليس في لبنان حوامل!» ثم تنبه فصاح بها «إيه؟ ماذا تقولين؟»

فضحكت - وسعها أن تضحك بعد أن أجرت لسانها بما كانت مستحيية كالعذراء عن ذكره.

فانحنى عليها وقبلها، وضمها ضمًا خفيفًا. وجلس وأجلسها على حجره ومسح لها شعرها بكفة وأسندها إلى صدره وقال:

«أظن أن أمي يسرها هذا - لو أمكن أن تدري»

قالت «في الصباح نذهب إليها ونخبرها»

قال «ثم إلى الشام»

قالت «إذا شئت»

وأغمض عينيه. وذهب يتصور أنه يوشك أن يصبح أبًا. وذهل حتى عن تحية على حجره. فغمزته نفسه وهمست «لا تنس من فرحتك أن تكتب إلى ميمي».

فقال بضجر وصوت عال «كيف يمكن أن أنسى؟

فاستغربت تحية وسألته «تنسى؟ تنسى ماذا؟»

فتنبه. وسخط على «نفسه» التي كادت توقعه في ورطة وقال «لا شيء. أحسبني كنت أفكر .. في هذا .. كل جديد من الأمر يتطلب جديدًا من التفكير ..»

فضحكت ونهضت عن حجره، وقالت وهي تسوي خصل شعر ها

«هذا دابك أبدًا .. لا يمكن أن تتغير»

فحدق في وجهها وقال «بل أنا أتغير .. كل ساعة ... وقد تغيرت الآن ... منذ لحظة ... فلو أني ...

«ليس في عيني»

ومالت عليه ولثمته «ولا في قلبي»

«تمت»

الكنزي
ALKANZY